

فن النظرية الاجتماعية

ترجمة

خالد عبد الفتاح عبد الله

خالد كاظم أبو دوح

نيفين زكريا محمد أمين

وليد رشاد زكي



ريتشارد سويدبرج

فن النظرية الاجتماعية

ترجمة

خالد عبد الفتاح عبد الله

خالد كاظم أبو دوح

نيفين زكريا محمد أمين

وليد رشاد زكي



مكتبة الأنجلو المصرية


mohamed khatab


mohamed khatab


mohamed khatab


mohamed khatab


mohamed khatab


mohamed khatab


mohamed khatab


mohamed khatab


mohamed khatab

من أجل مابيل*

* مابيل بيريزين Mabel Berezin، زوجة ريتشارد سويدبرج، هي عالمة اجتماع في قسم علم الاجتماع بجامعة كورنيل. حصلت على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع من جامعة هارفارد. متخصصة في علم الاجتماع المقارن، تهتم باستكشاف التقاطع بين المؤسسات السياسية والمعاني الثقافية مع التركيز على التحديات التي تواجه التماسك الديمقراطي والتضامن في أوروبا والولايات المتحدة. من مؤلفاتها: "صناعة الذات الفاشية: الثقافة السياسية في إيطاليا ما بين الحربين (١٩٩٧)"، "السياسة اللاليبرالية في العصر النيوليبرالي: الثقافة والمجتمع والشعوب في أوروبا الجديدة"، وحررت بالاشتراك مع مارتن شاين Martin Schain كتاب "أوروبا بلا حدود: إعادة رسم الأرض والمواطنة والهوية في عصر عبر الوطنية" (المترجم).

المحتويات

شكر وتقدير

أدين بشكل رئيسي إلى مابيل بيريزين Mabel Berezin، والتي أهدي لها هذا الكتاب. أيضا أدين بشكر خاص لأريك شوارتز Eric Schwartz في مطبعة جامعة برينستون، فقد كان دعمه ومشورته مفيدة جدا. أود أيضا أن أشكر جينيفر هاريس Jennifer Harris ورايان موليجان Ryan Mulligan، فقد دعماني في الحصول على مساعدة جيدة من المطبعة.

لقد قدم اثنان من المراجعين المجهولين عددا من الاقتراحات الإيجابية والبناءة للتغييرات. وقد ساعد العديد من الأشخاص الآخرين كذلك، في بعض الحالات بشكل مباشر وبشكل غير مباشر في أغلب الأحيان، غالباً عن طريق ما قالوه أو كيف تفاعلوا مع بعض الأطروحات التي قدمتها.

إن قائمة الأشخاص المفيدين والملهمين طويلة جدًا. وأخص بالشكر كل من: آندي أبوت Andy Abbott، علا آيجفال Ola Agevall، جيف ألكساندر Jeff Alexander، باتريك أسبرس Patrik Aspers، مارجريتا برتيلسون Margareta Bertilsson، ريتشارد بيرناكي Richard Biernacki، ميكائيل كارلهيدن Mikael Carleheden، بروس كاروثرز Bruce Carruthers، فرانك دوبين Frank Dobbin، أليسيا إيدز Alicia Eads، نيكولاس إيلبوم Nicolas Eilbaum، لورا فورد Laura Ford، بيتر جيلجن Peter Gilgen، أندرياس جلاسر Andreas Glaser، مارك جرانوفيرتر Mark Granovetter، ميكائيل هولمفيست Mikael Holmqvist، دان كلاين Dan Klein، كارين كنور ستينا Karin Knorr Cetina، ثوربيورن كنودسن Thorbjørn Knudsen، بول ليشترمان Paul Lichterman، مايكل لينش Michael Lynch، جيمس غ. مارش James G. March، أندريا مورير Andrea Maurer، إيلين ماكدوف Elaine McDuff، خوان دييز ميدرانو Juan Diez Medrano، هيرو ميازاكي Hiro Miyazaki، سوزان أوسمان Susan Ossman، رولاند بولسن Roland Paulsen، تريفور بينش Trevor Pinch، إسحاق ريد Isaac Reed، لامبروس رومانيس Lambros Roumbanis، إريك شنايدرهان Erik Schneiderhan، بيتر سوهلبرغ Peter Sohlberg، لين سبيلمان Lyn Spillman، إيددو تافوري Iddo Tavory، ستيفن تيرنر Stephen Turner، لارس أودهن

Lars Udehn، ديان فون Diane Vaughan، كارل ويــك Karl Weick، جيــف وينتــروب Jeff Weintraub، وهــانز زيتيربيــرج Hans Zetterberg وكــارين زيتيربيرج Karin Zetterberg.

كما تعلمت الكثير من الطلاب الذين أخذوا دوراتي في التنظير فــي جامعــة كورنيل، وجامعة ستوكهولم، وجامعة كوبنهاجن. من بين الذين تعلمت منهم الكثير، أود أن أشكر بشكل خاص: آنجي بويس Angie Boyce، كريــستوفر كارلــسون Christoffer Carlsson، إميلي جولدمان Emily Goldman، تيريــز هيلتبيــرج Therese Heltberg، إميلي هوجلاند Emily Hoagland، تــشو جينجيــنج Zhu Jinjing، هرنان موندانى Hernan Mondani، ودفعة طلاب ٢٠١٢ في كورنيل.

ستوكهولم وإيثاكا

نوفمبر ٢٠١٣

مقدمة الترجمة (*)

ولد "ريتشارد سويدبرج" في ١٨ مايو عام ١٩٤٨ في مدينة ستوكهولم Stockholm بالسويد. حصل على شهادة في القانون من جامعة ستوكهولم عام ١٩٧٠، ثم حصل على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع من كلية بوسطن عام ١٩٧٨. يعمل سويدبرج أستاذاً لعلم الاجتماع، بجامعة "كورنيل" بالولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ٢٠٠٢، حصل سويدبرج، في ٢٩ يناير ٢٠١٦، على الدكتوراه الفخرية من كلية العلوم الاجتماعية بجامعة أوبسالا Uppsala University، وهي من أعرق الجامعات بالسويد، لرؤيته الثاقبة حول "مدى فائدة عمل المفكرين الكلاسيكيين في فهم المجتمع المعاصر". وهو متخصص في النظرية الاجتماعية وعلم الاجتماع الاقتصادي. وينصب تركيزه في أعماله الخاصة بالنظرية الاجتماعية على التنظير أو بالأحرى كيفية تدريس التنظير، حيث ينصب الجانب الأعظم من إسهامه الفكري على مواجهة أزمة النظرية والتنظير في العلوم الاجتماعية عامة، وعلم الاجتماع بوجه خاص، ويحاول من خلال دراساته وأبحاثه توصيف الأزمة، وتقديم مقترحات لتجاوزها.

يتوزع الإنتاج العلمي لسويدبرج على حقلي التنظير وعلم الاجتماع الاقتصادي، ففي مجال التنظير، أنتج سويدبرج حتى الآن دراسة مهمة عن النظرية، تتضمن إرشادات عملية لكيفية التنظير، وهو كتابه المعنون فن النظرية الاجتماعية، مطبعة جامعة برينستون، الصادر عام ٢٠١٤، كما كتب مؤلفا بعنوان التنظير في العلوم الاجتماعية: سياق الاكتشاف، من منشورات مطبعة جامعة ستانفورد، وصدر عام ٢٠١٤. وشارك مع بيتر هيدستروم Peter Hedstrom في تأليف كتاب بعنوان الميكانيزمات الاجتماعية، من منشورات مطبعة جامعة كامبريدج، صدر عام ١٩٩٨. وفي مجال علم الاجتماع الاقتصادي، فقد ساهم سويدبرج في تجديد هذا الفرع من علم الاجتماع منذ منتصف الثمانينات ونتج عن هذا الإسهام ظهور "علم الاجتماع الاقتصادي الجديد". حيث كتب سويدبرج على نطاق واسع عن أعمال ماكس فيبر Max Weber وجوزيف شومبيتر Joseph Schumpeter واهتم أيضا بتحليل الأزمة المالية. وفي هذا السياق فقد كتب

* كتبه خالد عبد الفتاح عبد الله وخالد كاظم أبو دوح.

سويدبرج، على سبيل المثال، كتابا بعنوان الاقتصاد وعلم الاجتماع، صدر عن مطبعة جامعة برينستون عام ١٩٩٠، وكتاب ماكس فيبر وفكرة علم الاجتماع الاقتصادي، صدر عام ١٩٩٨ عن مطبعة جامعة برينستون، وكتاب الاقتصاد السياسي عند توكفيل عام ٢٠٠٩، من منشورات مطبعة جامعة برينستون. وتشمل أعماله التي حررها أو التي شارك في تحريرها: كتاب الاقتصاد وعلم اجتماع الرأسمالية، الوجيز في علم الاجتماع الاقتصادي بالاشتراك مع نيل سميلسر Neil Smelser طبعتي ١٩٩٤، ٢٠٠٥، وعلم اجتماع الحياة الاقتصادية بالاشتراك مع مارك جرانوفيتر Mark Granovetter طبعات أعوام ١٩٩٢، ٢٠٠١، ٢٠١١. وتتضمن صفحته على الإنترنت في جامعة كورنيل سيرته الذاتية بالإضافة إلى بعض كتاباته.

وعن أفكاره المتعلقة بموضوع كتابنا هذا الذي نقدم له، فيري "سويدبرج" أن هناك وجهان لأزمة النظرية في علم الاجتماع؛ يتمثل الأول في أنه منذ الحرب العالمية الثانية، قد تقدمت أساليب ومنهجيات البحث الاجتماعي، بسرعة كبيرة وملحوظة، وهذا عكس ما هو عليه الحال في النظرية الاجتماعية، وهذا التطور لا ينصب على إنتاج النظريات، بقدر ما يرتبط بقدرة وكفاءة دارسي علم الاجتماع والمشتغلين به على التنظير. بمعنى أن المتخصص في علم الاجتماع، يستطيع من خلال دراسة مناهج البحث، أن يستخدم ويطبق منهجيات البحث وأدواته، بشكل مقبول علي الأقل، بينما لا يستطيع بسهولة أن يتعلم "كيف يُنظر؟". وهذا لا يمنع أنه يمكن أن يكون مستوعباً وعارفاً بشكل جيد لتاريخ النظرية وروادها سواء في المرحلة الكلاسيكية أو المرحلة المعاصرة.

ويتمثل الوجه الثاني في علاقة معظم الباحثين في علم الاجتماع بالنظرية، حيث باتت النظرية وحضورها في جل البحوث – خاصة رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه – مجرد استيفاء شكلي، يتم التعبير عنه في صورة سرد جزء نظري، يكون في الغالب مقطوع الصلة بما قبله وما بعده، وعلى الرغم من حرص الباحث علي الاستعانة بالنظريات ذات الصلة بموضوع دراساته، إلا أنها لا تنعكس في تناول المادة الإمبيريقية، ولا يتم استنباط فروض منها، وقد لا يستدعيها في تحليل وتفسير نتائج دراسته.

ويحاول "سويدبرج" من خلال عدد من الدراسات والمؤلفات ذات الصلة بهذه الإشكالية أو الأزمة، توصيف تاريخ وطبيعة هذا الوضع، وتقديم آليات لدفع التطور فيما يتصل بقدرات الباحثين في علم الاجتماع على التعامل مع النظرية، واكتساب

القدرة على التنظير كحرفة وفن. والنقطة المحورية في مشروع "سويدبرج": هي كيفية تطوير مقاربة لتدريس النظرية بطريقة فاعلة، تسهم في اكتساب وتعلم مهارة التنظير، كما هو الحال مع الطريقة المتبعة حالياً في تدريس مناهج البحث الاجتماعي. بإضافة إلى تطوير طريقة تعامل الباحثين مع النظرية في سياق البحوث والدراسات التي يهتمون بها.

ويعد مفهوم "التنظير" Theorizing، المفهوم الأساسي الذي يعتمد عليه سويدبرج، ويقدم من خلاله تصور أولي لفهم كيفية إعداد نظرية ما، وكيف يتم التعامل معها في البحث الإمبيريقي، وكيف يمكن أن تدرس بأسلوب فاعل. يضاف لذلك أن "سويدبرج" يستخدم هذا المفهوم ليشدد على عناصر عملية، إلى جانب فكرة التجربة والخطأ، التي تميز محاولة التعاطي مع الجزء الخاص بالنظرية، حينما نقوم بإجراء دراسة ما.

وفي سياق هذه المحاولة التي يقدمها "سويدبرج" اعتمد على عديد من المصادر الأساسية في علم الاجتماع والفلسفة وغيرها، إلا أن الحضور الكبير كان لإسهامات الفيلسوف الموسوعي "تشارلزساندرز بيرس" Charles S. Peirce (١٨٣٩–١٩١٤)، الذي اشتهر بمساهماته في المنطق والسيميائية والبراجماتية، إضافة إلى تعامله الصريح والمباشر مع التنظير، كما ورد في محاضرته بعنوان: "كيف تُنظر؟ How to Theorize?"، التي ألقاها في عام ١٩٠٣ في "كيمبردج مساتشوستس"، والتنظير بالأساس جزء من نموذجه العام بشأن كيفية ممارسة العلم، ووردت هذه المحاضرة في ملاحق الكتاب موضوع الترجمة، وتمت ترجمتها، وهي محاضرة مهمة جدا في هذا السياق.

ويمثل كتاب "فن النظرية الاجتماعية" المؤلف الأساسي الذي طرح فيه "سويدبرج" رؤيته ونظريته حول التنظير، وهو كتاب غاية في الأهمية، ولا غنى لأي دارس ومتخصص في علم الاجتماع عن قراءته، والاستفادة منه فيما يتصل بطريقة تفاعلنا مع النظرية في علم الاجتماع، والكتاب صادر عام (٢٠١٤).

وإلى جانب أهمية الأفكار التي يطرحها سويدبرج في كتابه هذا، فإن أسلوبه في التعامل مع مصادره، والأفكار التي تتضمنها هذه المصادر، يضيف أهمية أخرى على الكتاب، فيمثل من وجهة نظرنا دليلا عمليا، لشباب الباحثين على وجه الخصوص، في التنقيب عن الأفكار وتجميعها وتوليفها والخروج بنص أصيل. وخير دليل على ذلك النص التحليلي لمصادره الذي قدم به لقائمة المراجع التي اعتمد عليها.

ونظرا لأهمية الكتاب أخذ فريق الترجمة على عاتقه مهمة ترجمته، وذلك على النحو التالي:

تولى الدكتور خالد عبد الفتاح عبد الله، أستاذ علم الاجتماع المساعد بجامعة حلوان، ترجمة المقدمة والفصول الثلاثة الأولى، إضافة إلى تحرير النص المترجم. وقام الدكتور خالد كاظم أبو دوح، أستاذ علم الاجتماع المساعد بجامعة سوهاج، بترجمة ثلاثة فصول هي: الفصل الرابع والخامس والثامن. وترجم الدكتور وليد رشاد زكي، أستاذ علم الاجتماع المساعد بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، الفصلين السادس والسابع. وأخيرا قامت الدكتورة نيفين زكريا محمد أمين، أستاذ علم الاجتماع المساعد بجامعة عين شمس، بترجمة الفصلين التاسع والعاشر إضافة إلى ترجمة ملحق الكتاب.

فن النظرية الاجتماعية

المقدمة (*)

لماذا تُنظر وهل يمكنك تعلم التنظير؟

ما هو سبب أهمية معرفة كيف تنظر في مجال العلم الاجتماعي؟ وهل التنظير مهارة يمكنك تعلمها – وقد يمكنك تعليمها أيضاً؟ سبق لهذه الأسئلة أن ألقى عليها شعاع ضوء أثار اهتمام الناس بها بنفس الطريقة التي حل بها لغز جريمة وقعت في صيف سنة ١٨٧٩. كان ضحية هذه الجريمة، وهو أيضاً الشخص الذي حل لغزها، هو الفيلسوف والعالم شارلز إس. بيرس(**) Charles S. Peirce.

وقعت الجريمة على متن سفينة بخارية اسمها بريستول Bristol كانت تسافر بين بوسطن ونيويورك. في ذلك الوقت كان بيرس في التاسعة والثلاثين من عمره، وكان قد قبل – لتوه – الالتحاق بوظيفة محاضر في المنطق بجامعة جونز هوبكينز. كما كان يعمل – أيضاً – لحساب الحكومة في مشروعها "لمسح السواحل والأراضي" "the "Coat Geodetic Survey.

فقد حدث في يوم الجمعة، ٢٠ يونية سنة ١٨٧٩، أن ركب بيرس هذه السفينة في بوسطن. وكان سيصل إلى نيويورك في اليوم التالي، حيث كان سيذهب لحضور أحد المؤتمرات. وعندما استيقظ في مقصورته صبيحة اليوم التالي لم يكن يشعر بأنه في حالة طيبة. فقد كان ذهنه مرتبكاً، لذلك سارع بارتداء ملابسه واستقل عربة أجرة من الميناء إلى فندق "بريفورت هاوس"، وهو فندق شهير في فيفث أفينيو Fifth Avenue "أي الشارع الخامس"، وهو مكان انعقاد المؤتمر.

بعد أن وصل بيرس إلى الفندق، أكتشف أنه نسى معطفه في السفينة، بجانب نسيانه لساعته الثمينة ماركة تيفانى Tiffany والتي كانت موصولة بسلسلة ذهبية.

---

* ترجم المقدمة الدكتور خالد عبد الفتاح عبد الله

** ولد تشارلز ساندرز بيرس في العاشر من سبتمبر عام ١٨٣٩ بولاية ماسا شوستيس بالولايات المتحدة الأمريكية. التحق بجامعة هارفارد عام ١٨٥٥، وتخرج منها عام ١٨٥٩. درس الفلسفة والمنطق، والرياضة والعلوم في وقت واحد حتى حصل على درجة الماجستير في الآداب عام ١٨٦٢ من جامعة هارفارد، وحصل في العام التالي على درجة البكالوريوس في الكيمياء. يعتبر بيرس من أشهر المفكرين المغمورين، ومن أهم من أغفل ذكره. لعب دورا في تطوير المنطق المعاصر. كان المؤسس الحقيقي للفلسفة العملية أو فلسفة البراجماتيزم Pragmatism المعاصرة (انظر: عزمي إسلام، مراجعة لكتاب: المنطق الصحيح لتشارلز ساندرز بيرس، تراث الإنسانية، عدد ٢، أبريل ١٩٦٩). (المترجم)

كان بيرس حزينا – بصفة خاصة – لاحتمال فقدانه لهذه الساعة، حيث كان يستخدمها كآلة؛ كما إنها كانت مملوكة للحكومة.

اندفع بيرس عائداً إلى السفينة، وذهب إلى مقصورته، وبحث هنا وهناك. ولكنه لم يجد الساعة ولا السلسلة ولا المعطف في أي مكان. قدر بيرس أنه لابد أن واحداً من خدم السفينة قد سرق أمتعته، حيث إنهم هم الأشخاص الوحيدون الذين يمكنهم الوصول إلى مقصورته ودخولها. وبمساعدة قبطان السفينة سرعان ما صف خدم السفينة أمامه للتحقيق معهم.

الذي حدث بعد ذلك أمر غريب. فبدلاً من أن يستجوب بيرس المتهمين بالأسلوب التقليدي، تصرف بالصورة التالية، والتي عبر عنها قائلاً:

أخذت أمشي بدءاً من أحد طرفي الصف لأنتهي إلى طرفه الآخر، وتحدثت قليلاً مع كل واحد منهم، بأقصى ما أستطيعه من تلقائية وعفوية، عن أي شيء يمكنه أن يتحدث عنه باهتمام، ولكن كل واحد منهم كان يتوقع – على الأقل – أن أثير أنا الموضوع الذي أطلب منه الكلام فيه، بينما كنت آمل من حديثي بهذا الشكل أن أبدو شخصاً بلغ به غباؤه أن يظن بنفسه القدرة على استكشاف عرض ما، فيمن أتحدث معه، يدل على أنه اللص الذي أبحث عنه.

إلا إن هذا التصرف لم يجد نفعاً، وظل بيرس وهو لا يدري من هو اللص. فقرر أن يحاول أمراً آخر، عبر عنه قائلاً:

عندما انتهيت من تفحص صف الخدم، استدرت وتركتهم، وإن لم أبتعد عنهم كثيراً، وقلت لنفسي: "لم أحصل على أقل شعاع من الضوء يتيح لى فهم الموقف." ولكن نفسي الأخرى (فأحاديثنا النفسية تجرى دائما في صورة حوارات بين طرفين) قالت لى عندئذ: "ولكن لابد لك – فقط – من أن تضع أصبعك على الرجل. ولا عبرة لكونك تفتقد المبرر "لهذا الاتهام"، فلابد أن تقول من هو الشخص الذي أنت متأكد أنه اللص". سرت في خطوات تشكل دائرة صغيرة على أرض الحجرة، الأمر الذي لم يستغرق دقيقة، وعندما استدرت ملتفتاً نحوهم، تلاشى كل ظل من ظلال الشك. لم يراودني أي خاطر بمراجعة نفسي أو تخطئتها. فقد كانت كل هذه الأمور غير موجودة بالمرة. ذهبت إلى الشخص الذي ألصقت به تهمة السرقة، وأمرته أن يتقدم ليدخل قاعة الاحتفالات التي بالسفينة معي (Peirce 1929: 271).

عندما اختلى بيرس وحده بالرجل، لم يحاول أن يجعله يعترف (بالسرقة) بدلاً من ذلك، حاول إقناع الرجل بإعادة الأشياء المسروقة. كان مع بيرس ورقة مالية

من فئة الخمسين دولاراً في جيبه، وقد قدمها للرجل في مقابل "أن يعيد له الرجل" ساعته ذات السلسلة "الذهبية" ومعطفه.

قلت له: "الآن، هذه الورقة المالية ملكك، إن كنت تريد أن تحصل عليها. أنا لا أريد منك أن تكتشف الشخص الذي سرق ساعتي.. بل أذهب وأحضر لى الساعة، والسلسلة، والمعطف، وسوف أكون سعيداً للغاية –في نهاية الأمر– إذ أدفع لك هذه الخمسين دولاراً ثم أغادر هذا المكان" (Pierce 1929: 271).

قال الرجل إنه لا يعرف أي شيء عن الأغراض الشخصية المسروقة، وسمح له بيرس بمغادرة المكان. في هذا الوقت، قرر بيرس أنه يتعين عليه أن يحاول محاولة أخرى فاتصل بالوكالة الخدماتية الشهيرة المتخصصة في التحقيقات والتحريات، واسمها وكالة "بينكرتونز" "Pinkertons". وقد شرح للمستر جورج بانجز، رئيس فرع الوكالة في نيويورك، ما حدث له.

أخبر بيرس بانجز أنه عرف اسم السارق، وأنه يريد أن يقوم أمرؤ ممن يعملون في وكالة بينكرتونز بتتبع اللص عندما يغادر السفينة. قال بيرس: "سوف يذهب الرجل "أي اللص" إلى مكتب رهونات، حيث سيحصل على خمسين دولاراً في مقابل رهنه للساعة المذكورة. وعندما يرهن الساعة، اقبضوا عليه".

أنصت بانجز لبيرس وسأله كيف عرف أن هذا الفرد بعينه هو اللص. أجاب بيرس قائلاً: "لماذا، ليس لدى أي سبب كان يبرر تفكيري بهذا الشكل، ولكنني واثق تماماً أن الأمر هو كما أراه بهذه الصورة" (Pierce 1929:273) وأضاف بيرس أنه إن كان مخطئاً، فلن يذهب الرجل إلى أي مكتب رهونات، ولن يصيبه أذى من تتبعه.

لم يكن بانجر مقتنعاً. وأخبر بيرس أن وكالته تعرف أكثر بكثير مما يعرفه بيرس عن اللصوص والمجرمين، قال:

إنني واثق أنه ليس لديك أي معرفة باللصوص، وأنك لا تدري شيئاً على الإطلاق عن هذه الأصناف من البشر. ونحن الآن نعرف عنهم كل شيء فعلاً. إن عملنا الذي نتكسب منه هو أن نكون على دراية ومعرفة تامة بهم. فنحن نعرف أساليب كل نوع وكل عصابة منهم، كما نعرف الرجال أنفسهم – أقصد معظمهم. دعني أطرح هذا الاقتراح: سأرسل معك أفضل رجالنا. وسوف يهتم بانطباعاتك ويقدرها حق قدرها. وليس مطلوباً منك إلا أن تتركه في حاله ولا تعرقل عمله بأوامرك الصارمة. دعه يعمل بناءً على استنتاجاته، وذلك بعد أن يكون قد فرغ من تمحيص كل الدلالات (Pierce 1929: 273)

وافق بيرس، وأرسل أحد مخبري التحريات من رجال وكالة بينكرتونز إلى السفينة في نفس اليوم، حيث استجوب جميع الخدم. وسرعان ما اكتشف المخبر أن لأحد خدم السفينة سجلاً جنائياً، وأخذ يتابع أخبار هذا الرجل.

تبين أن الفرد الذي سبق لبيرس أن انتقاه "كمتهم من بين الخدم" يعمل خادماً شخصياً لقبطان السفينة لسنوات كثيرة. وعندما وقعت حادثة السرقة كان الرجل يعمل – أيضا – على طابق آخر من طوابق السفينة أكثر امتيازاً من الطابق الذي كان يضم مقصورة بيرس.

تتبع المخبر خطوات الرجل ذي السجل الجنائي، بيد أن هذا العمل لم يفض به إلى أى مكان. سأل بيرس بانجز عما يمكن عمله بعد ذلك في هذا الموقف. كانت الإجابة على هذا السؤال تقول: قدم مكافأة قدرها ١٥٠ دولاراً لأي مكتب رهونات يمكنه أن يعطى معلومات عن الساعة.

أخذ بيرس بالنصيحة، وحدث في اليوم التالي فعلاً، أن أعلن مكتب رهونات أن لديه هذه الساعة: ومن خلال الوصف التفصيلي الذي قدمه مكتب الرهونات لملامح الرجل الذي رهن هذه الساعة، تعرف بيرس مباشرة على الخادم الذي وقع اختيار بيرس عليه قبل ذلك باعتباره اللص الذي سرق الساعة.

تحصل بيرس في ذلك الوقت على ساعته، غير أنه كان لايزال مفتقداً لمعطفه وللسلسلة الذهبية التي كانت موصولة بالساعة. لكي يستعيد متعلقاته الشخصية المتبقية، قرر بيرس الذهاب إلى شقة اللص، يصحبه مخبر من وكالة بينكرتونز.

عندما وصل بيرس والمخبر إلى المكان الذي يعيش فيه اللص، سأل بيرس المخبر أن يدخل الشقة ويستعيد سلسلته الذهبية ومعطفه. رفض المخبر. وقال: "أوه" "لا يمكن أن أفكر في هذا العمل. فليس معي أمر رسمي بالتفتيش، كما أن من المؤكد أنهم سيطلبون الشرطة بالتليفون ويطلبون منها أن تحضر وتتدخل!" .(Pierce 1929: 275)

أصاب الغضب بيرس فقرر أن يقوم بهذا العمل بنفسه. فصعد السلالم وطرق على باب الشقة التي يعيش فيها اللص. فتحت امرأة الباب، وكانت وراءها امرأة أخرى. أخبر بيرس المرأة الأولى أن زوجها قبض عليه لسرقته الساعة، وأنه "أي بيرس" قد جاء ليسترد معطفه وسلسلته الذهبية. شرعت المرأتان في الصراخ وقالت إنه لا يستطيع أن يدخل الشقة. وقالتا له إنه لو دخل الشقة فستستدعيان الشرطة. تجاهل بيرس المرأتين وخطا خطوات إلى داخل الشقة.

في هذه المرحلة، تأخذ القصة منعطفاً مثيراً للاهتمام. يصف بيرس ما حدث بمجرد دخوله الشقة بالطريقة التالية:

لم أري مكاناً في تلك الحجرة يترجح أن توجد فيه السلسة، وسرت مخترقاً المكان فدخلت حجرة أخرى. كان يوجد بها أثاث قليل وراء سرير يصلح لشخصين، وصندوق خشبي للملابس في الجانب الاخر من السرير. فقلت لهما: "الآن، توجد سلسلتي في قاع هذا الصندوق موضوعة تحت الملابس، وأنا بسبيلي لأخذها. إنها موضوعة في علبة ذهبية مع بوصلة موصولة بها، وإن بإمكانكما أن تريا أنني سآخذ تلك العلبة الذهبية، والتي أعلم أنها موجودة في هذا الصندوق، ولن أخذ شيئاً سواها" انحنيت لأفتح الصندوق فوجده لحسن الحظ مفتوحا. وبعد أن طوحت بكل ما فيه من ملابس أخرجتها منه. وقد كانت ملابس ثمينة للغاية – عثرت على ما يكاد يكون طبقة كاملة من الحلى الرخيصة مكتوب عليها بوضوح اسم المصنع الذي أنتجها، وبين هذه الحلى وجدت سلسلتي (Peirce 1926: 276).

بقي المعطف. عندما كان بيرس يبحث هنا وهناك عنه، قالت له المرأة أنه له الحرية في أن يبحث في أي مكان يرغب في البحث فيه. إلا إن الطريقة التي قالت بها المرأة كلامها ذلك جعلت بيرس يشك في وجود المعطف بهذه الشقة. كما لاحظ أيضاً أن المرأة الثانية قد اختفت.

غادر بيرس الشقة وظن أن المرأة الأخرى تكون إحدى الجارات. فطرق الباب المواجه للشقة الذي كان فيها. فتحت الباب فتاتان شابتان، قال بيرس:

نظرت فوق أكتاف الفتاتين فشاهدت قاعة استقبال ذات مظهر فخم للغاية وبها بيانو أنيق. إلا إنه كان يوجد فوق البيانو لفافة أنيقة لها نفس الحجم والشكل المناسبين لتحتوي على معطفي. فقلت لهما: لقد مررت بكم لأنه يوجد لديكم هنا لفافة تخصني، أوه، نعم، إنني أراها، وسوف أخذها فحسب". وهكذا اندفعت برفق خلفهما، وأخذت اللفافة، وفتحتها، ووجدت معطفي، الذي ارتديته (Peirce 1929: 277).

إن ما ذكر حتى الآن عن سرقة متعلقات بيرس، وعن كيف استردها، قد يبدو شبيهاً بحكاية عجيبة، حيث تكشف عن مدى كون بيرس شخصاً غريب الأطوار وعنيداً، بجانب كشفها عن تمتعه بموهبة لا شك فيها بوصفه محققاً هاوياً.

ومع ذلك، فقد فسر بيرس – نفسه – ما حدث على نحو مختلف جداً. فقد عزا إلى هذه القصة أهمية كبيرة ودونها أثناء ربيع سنة ١٩٠٧ في صورة مقالة عنوانها "التخمين" "Guessing".

قال بيرس أن هذه الحادثة حافلة بالدروس التي يتعلمها العلماء، كما يمكن النظر إليها باعتبارها "فصلاً من فصول فن التحري والتحقق" (Peirce 1929:282). وفي خطاب له أرسله إلى صديقه وليم جيمس William James وصف ما سبق أن حدث باعتبار أنه مثال "للنظرية التي تفسر السبب في أن الناس يخمنون تخميناً سليما في الغالبية العظمى من الأحيان" (Sebeok and V miker – Sebeok1981: 16)

فالتخمين، في نظر بيرس، يؤدى دوراً حاسماً في البحث العلمي. فمن المؤكد تماماً أنه من خلال التخمين وحده يتم إنتاج أهم جزء من أجزاء التحليل العلمي – أعنى به: التعليل Explanation "أي: تفسير الأسباب". فإن الشيء الذي يعلل سبب وجود ظاهرة ما يشكل محور البحث العلمي، وفقاً لما يذهب إليه بيرس. صحيح أنه بدون وجود الحقائق المطلوبة لاختبار الفرضية أو الفكرة، لا يكون للتخمين قيمة تذكر. إلا أنه بدون الفرضية أو الفكرة لن يوجد شيء يختبر ولن يوجد علم إطلاقاً.

واللفظ الذي استخدمه بيرس، معظم الأحيان، فيما كتبه عن تخمين المرء لفرضية ما هو لفظ "Abduction" بمعنى "الاستدلال"(*). فالكائنات الإنسانية، في نظر بيرس، وهبتها الطبيعة قدرة على اختراع التعليلات. فهم يتمتعون "بموهبة في التخمين"، والتي بدونها لم يكن محتملاً أن يوجد العلم بادئ ذي بدء .(Peirce 1929: 282)

لم يكن بإمكان العلم أبداً أن يتطور بهذه السرعة التي بلغها في الغرب، وفقاً لما يذهب إليه بيرس، لو أن الناس اقتصروا على التفكير العشوائي في الأفكار، واختبار تلك الأفكار. "أما" العلماء، فقد نجحوا بطريقة ما في التخمين الصائب في أحيان كثيرة.

في المقالة التي عنوانها "التخمين"، يقدم بيرس – أيضاً – بياناً عن سلسلة من التجارب التي أجراها مع أحد الدارسين في "جامعة" جونز هوبكنز Johns Hopkins عن موضوع التخمين. وفقاً للمقالة التي حققت نتائج جيدة، والتي ينظر

---

* يتم ترجمة المصطلح في قواميس الفلسفة بالقياس الاحتمالي، وهو قياس كبراه يقينية، وصغراه محتملة. تبعا لهذا، فالنتيجة تكون في قوة الصغرى أو دونها، أي نتيجة احتمالية. ومصطلح Abduction مشتق من الفعل اللاتيني abducere ومعناه "يتحول عن"، أي أن الانتباه في القياس الاحتمالي يتحول عن النتيجة ويركز على المقدمة الصغرى. يطلقه تشارلز بيرس على نوع من الاستدلال يفضي إلى فرض علمي غايته تعليل الوقائع الجزئية، أو على أي استدلال نتيجته احتمالية. (انظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، القاهرة، ١٩٨٣، ص: ١٤٩؛ عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط ٣، ٢٠٠٠، ص: ٦٦٥؛ مراد وهبة، المعجم الفلسفي، القاهرة، دار قباء الحديثة، ٢٠٠٧، ص: ٢٨). (المترجم)

إليها في وقتنا الحاضر باعتبار أنها تجربة كلاسيكية صغيرة في علم النفس التجريبي، فإن الأفراد يتمتعون بقدرة على التخمين السليم بدرجة أكثر كثيراً مما لو اقتصر الأمر على فرصة واحدة "تتاح لفرد واحد" للتخمين "لأن وجود عدد كبير من الأفراد ضمان للوصول إلى تخمين سليم" (Peirce and Jastrow 1885).

وسبب ذلك، كما يثبته المؤلفان، أن الأفراد يلتقطون بعض الإشارات لا شعوريا، ثم يعالجون هذه الإشارات بأساليب لا يفهم العلم حقيقتها حتى ذلك الوقت. ما برهن المؤلفان على أن بعض الأفراد أفضل من غيرهم في التخمين بطريقة صحيحة وهم في ظل ظروف معينة.

فهل هذا الأمر – أيضاً – مهارة يمكن تعلمها وتعليمها؟ من المؤكد أن بيرس كان يرى هذا الرأى. كما أنه واضح من سلوكه الوارد في القصة مع اللص أنه كان قد درب نفسه على الملاحظة، وكان يثق بقدرته على التخمين، والإتيان بالتعليلات/ أو التفسيرات الصحيحة والحقيقة أن بيرس كان، طوال حياته، مهتما اهتماماً شديداً بقضية كيف تحسن مستوى القدرة على "الاستدلال". وكان مهتماً – بصفة خاصة – بالأساليب العملية التي بها يستطيع الأفراد أن يدربوا أنفسهم على تحسين قدرتهم على الإتيان بحلول للمشكلات، وعلى ابتكار آراء جديدة. كما قام بيرس، وفي ذهنه هذه التصورات، ببناء عدد من التمرينات/ أو التدريبات العملية "في هذا المجال".

يعود بنا هذا الأمر إلى هذا الكتاب، والموجه أساساً إلى من يريدون أن يتعلموا فن التنظير في مجال العلم الاجتماعي. والحقيقة أن المؤلف الوحيد الذي ألهمني بالأفكار الرئيسية لهذا الكتاب أكثر من أى شخص آخر هو الباحث بيرس، إذ كان مشغولاً للغاية بهذه القضية. مثال ذلك، أن تصوره للعلم هو الذي يشكل الأساس لما سيأتي ذكره لاحقاً، أعنى بذلك أن العلم معنى برصد / أو ملاحظة ظاهرة، ثم الإتيان بفكرة أو نظرية تفسر سبب حدوث أمر ما، ثم اختبار النظرية بمواجهتها بالوقائع الفعلية.

والأمر الأهم من ذلك، والذي ألهمني به بيرس أيضاً، أنني أعتبر أن الاستدلال Abduction، أو الإتيان بفكرة ما، وذلك باعتبار أنه أهم جزء في العملية البحثية بأكملها، فهو الجزء الذي لا يقدر بثمن، والجزء الذي تعد السيطرة عليه بشكل ما أهم ما ينبغي على الباحث الحرص عليه. فهذا الجزء، في حقيقة الأمر، يشكل قلب عملية التنظير. واتباعاً لبيرس، أحاج أيضاً بأن أي فكرة أو أي فرضية

لا تكون لها قيمة تذكر حتى يتم اختبارها بدقة بالغة في مواجهة البيانات وفقاً لقواعد العلم.

الأمر الذي استهدفته من كتابة هذا الكتاب هو – أولاً – تقديم دليل إرشادي عملي. فالكتاب، في حقيقته، يحتوي على تلميحات مفيدة عن الطريقة التي يجب أن يتبعها من يريدون أن يتعلموا التنظير بطريقة إبداعية في مجال العلم الاجتماعي. كما يحاول هذا الكتاب أن يكشف عن مدى قدرتك على تدريس التنظير، أو يكشف – في الحد الأدنى– عن الطريقة التي ينبغي عليك اتباعها لكي تفهم هذا الموضوع.

هذه مهمة صعبة، ثم إن الكتاب يعتبر، بحكم تصميمه وبحكم الضرورة، كتاباً تجريبياً. نتيجة لذلك، فإنه يحتوي من الاقتراحات ما يزيد على ما به من التوصيات والتوجيهات. ومع ذلك، فالأمل أن هذا الكتاب سوف يساعدك على وضع التنظير – أي: كيف تقوم به وكيف تدرسه لغيرك – على جدول أعمال العلم الاجتماعي في وقتنا الحاضر.

يتألف الكتاب من جزئين، يتكون كل واحد منهما من خمسة فصول. يعالج الجزء الأول قضية: ماذا تفعل حينما تنظر باستخدام تعبيرات عملية؛ ويعالج الجزء الثاني قضية: كيف تعد نفسك وتدربها من أجل التنظير.

في الفصل الأول، عرضت مشروع التنظير الإبداعي في العلم الاجتماعي. وفي هذا الفصل، كما في غيره، سوف استخدم مصطلح "التنظير الإبداعي" "Creative Theorizing"، أو أي نمط تنظير" يوجهه الاستدلال" – "Abductive Oriented"، بهدف تمييز نمط التنظير الذي أؤيده. كما أناقش الحاجة إلى قطيعة حاسمة مع بعض الطرق التي تفهم بها النظرية حالياً في مجال العلم الاجتماعي. يلي هذا الفصل فصول أربعة تصف طريقة التنظير بأسلوب عملي.

يحاج الفصل الثاني بأن على التنظير الإبداعي أن يبدأ بالرصد/ أو الملاحظة الدقيقة Observation. وتصف الفصول ٣، ٤، ٥ كيف تتقدم من مرحلة الرصد حتى مرحلة صياغة نظرية مؤقتة. وأنا أسمى هذا الجزء من عملية التنظير "البناء الواضح للنظرية"، كما يمكن وصف هذا الجزء بأنه إعطاء جسم وبنية للنظرية.

المشكلة الأولى هي تسمية الظاهرة التي تريد أن تردسها وتطوير المفاهيم التي يمكنها مساعدتك على استيعاب النظرية تماماً وتحليلها. (الفصل الثالث). في محاولتك لتقديم نظرية ما، قد يتوجب عليك أيضاً أن تستخدم التشابهات الجزئية Analogies والمجاز، وأن تنشئ نوعاً من التنميط، وما هو أكثر من ذلك (الفصل

الرابع). ولا تكتمل أي نظرية بدون وجود تفسير لها، وتوجد أساليب مختلفة كثيرة للإتيان بأحد التفسيرات (الفصل الخامس).

الجزء الثاني من هذا الكتاب مخصص للطرق التي بها تعد نفسك للتنظير، وكذلك للطريقة التي بها تعلم طلبتك كيف ينظرون. ومن المباحث المعرفية المفيدة في هذا الشأن مبحث الاستدلال Heuristics "أي: الاستراتيجيات التي يستخدمها المعلم في توجيه طلبته وتشجيعهم على استكشاف الحقائق بأنفسهم وتجربة الحلول، والاستفادة من خبراتهم السابقة، واستخدام تقنيات التعليم الذاتي self- education، والإدراك العام commonsense، وطريقة المحاولة والخطأ Trial – and- error، في التحسين المستمر لمستوى حلول المشكلات بأساليب عملية"، ولذلك توجد تمرينات عملية متنوعة (في الفصل السادس والفصل السابع). ويتعين عليك أن تكون على علم بإحدى النظريات لكي تكون كفؤا للتنظير، وفي الفصل الثامن مناقشة للطرق التي بمقتضاها تحقق هذا التنظير بأسلوب عملي.

يوجد أيضا السؤال المتعلق بالخيال والفنون ودورهما في مساعدة العلماء الاجتماعيين في التنظير بطريقة جيدة (الفصل التاسع). أما المقاربة العامة للتنظير في هذا الكتاب، فهي مذكورة بشكل موجز في الفصل الأخير، والذي يحتوي أيضا على ما أرى أنه الطبيعة الديموقراطية المتأصلة للتنظير (الفصل العاشر).

ينتهي الكتاب بمثل ما بدأ به، أي بذكر الباحث بيرس. وقد أدرجت بالكتاب ملحقاً عنوانه: "كيف تنظر وفقاً لتشارلز إس. بيرس". وسبب ذلك أن مؤلفات بيرس ليست مشهورة في مجال العلم الاجتماعي بالقدر الذي ربما تستحق أن تكون عليه. ويصدق هذا المعنى بصفة خاصة – على الجانب العملي لهذا الكتاب، والذي يتناول موضوع "الاستدلال" Abduction، والذي يعالج مسألة "تعلم فن التنظير" "Learning the art of theorizing".

القسم الأول
كيف تُنظِّر

١

الفصل الأول
البدء من جديد

الفصل الأول *
البدء من جديد

التفكير هو التنظير، بكل ما في الكلمة من معنى كولريدج، في كتابه بعنوان الصديق
Coleridge, The Friend [(1)]

سبق لأفكار مشابهة لأفكار تشارلز إس. بيرس عن الاستدلال Abduction وعن التنظير أن عبر عنها، على امتداد القرون، عدد من الناس، بدءًا بالعلماء وانتهاءً بالفنانين. مثال ذلك أنه عندما كتب كولريدج، منذ قرنين، أن التفكير يعنى التنظير أيضاً، لم يكن لديه برهان يبنى عليه رأيه هذا إلا ما يتمتع به من بديهة لماحة بوصفة مفكراً وشاعراً.

في وقتنا الحاضر، وعلى النقيض مما سبق، فإن الوضع مختلف. فنحن نعرف – بفضل علم الإدراك وعلم فسيولوجيا الأعصاب – أن الأفراد يولدون وهم مزودون بقدرة على التفكير؛ وعلى خلق المفاهيم، والاستنتاجات المنطقية القائمة على قياس التشبيه Analogies، والتعبيرات المجازية، وعلى ابتكار أشكال التعليل والتفسير. موجز القول إن الأفراد يولدون وهم مزودون بقدرة على التفكير والتنظير (انظر على سبيل المثال (Frankish and Ramsey 2012, Holyoak and Morrison 2012).

يستخدم الأفراد هذه القدرة في حياتهم بصورة مستمرة تقريباً. كما إنها تكون قيد العمل حين تخلق النظرية في مجال العلم الاجتماعي أو في مجال أي علم آخر. هي قدرة بالإمكان تعويقها أو تقويتها، وذلك إذا أدخلنا في الاعتبار الظروف الاجتماعية والثقافية القائمة، فضلاً عن إرادة الفرد في الانطلاق قدماً وتجريب أمر ما بطريقة جديدة.

مشكلات النظرية الاجتماعية اليوم

من الأسباب الهامة التي تدعو التخصيص كتاب لموضوع التنظير أن النظرية في العلم الاجتماعي حالياً ليست في حالة جيدة للغاية. من أساليب الحصول –

---

* ترجم هذا الفصل الدكتور خالد عبد الفتاح عبد الله.

بسرعة- على فهم ما لسبب هذه الحالة أن تقارن بين حالة النظرية بحالة مناهج البحث. فمنذ الحرب العالمية الثانية ومناهج البحث تتقدم بسرعة بالغة. وعلى امتداد سنوات عديدة ظل الدارسون أيضاً قادرين على تلقى كورسات/ أو مقررات تعليمية خاصة تمدهم بأساس متين في مناهج البحث – ويصدق هذا المعنى على مناهج البحث الكمية كما يصدق على مناهج البحث الكيفية. ولم يتح للنظرية أو التنظير شيء من هذا القبيل. وبصورة أعم، ليست النظرية الاجتماعية – حالياً – في أقصى درجات الإبداع، كما إنه ليس لديها إلا القليل الذي تقوله في كثير من القضايا الهامة.

ثمة أسباب كثيرة لهذه الحالة المتخلفة نسبياً للنظرية الحديثة في العلم الاجتماعي، ويرتبط العديد من هذه الأسباب بممارسات خاصة تعود الباحثون عليها، ولإحدى هذه الممارسات صلة بالميل المشترك "لدى الباحثين" إلى تنفيذ الجزء الإمبيريقى من البحث أولاً، تاركين النظرية لتضاف إلى البحث فيما بعد. وبذلك يقوم الباحثون بحشر المادة الإمبيريقية داخل نظرية موجودة من قبل، أو يضعوا لها عنواناً يميزها بشكل ما.

من الممارسات الأخرى الشائعة التي تنطوي على مشكلات معقدة ما يحدث حين يكون الباحث مقتنعا غاية الاقتناع بالمستوى الممتاز الذي تتمتع به مقاربة نظرية ما. للدرجة التي تجعله يختار موضوع البحث تبعاً لهذه النظرية. من مشكلات التصرف بهذه الطريقة أنه كلما ازداد اهتمام الباحث بالوقائع في حد ذاتها، ازدادت صعوبة احتفاظه بالفكرة الأصلية لاحقاً. وينتج عن ذلك نوع من الصراع العنيف الذي يقاوم أي حل يسير.

هذه بعض ما يزاول حالياً في مجال العلم الاجتماعي من ممارسات تجعل من العسير خلق نظرية جيدة. كما يوجد عدد قليل من المعتقدات/ أو المذاهب الفكرية Doctrines المتعلقة بطريقة إجراء البحث، والتي يغلب عليها أن تعوق التنظير الإبداعي. من هذه المذاهب: مذهب الإمبيريقية Empiricism، ومفهوم "النظرية المجردة" "Abstract Theory".

والإمبيريقية مذهب فكرى يتضح منه أن النظرية أقل شأناً من الوقائع، هذا إن كان للنظرية ضرورة اصلاً. فالواقع موجود في صورة أنماط وأبنية، والمهمة الرئيسية للعالم الاجتماعي هي إدراك هذه الأنماط والأبنية بمساعدة البيانات. انطلاقاً من هذا المنظور، تكون مهمة النظرية، أساساً، تقديم صورة موجزة لأسلوب حياة هذه الأنماط والأبنية.

للإمبيريقية تراث طويل الأجل في العديد من العلوم الاجتماعية، كعلم الاجتماع والعلم السياسي مثلاً. كما يمكن العثور على نسخة حديثة العهد "من الإمبيريقية" فيما بين الباحثين الذين يتعاملون مع "البيانات الضخمة" "Big Data". فهم يرون أن فكرة تطوير الفروض ثم اختبارها بعد ذلك سوف تعتبر في القريب العاجل جزءاً من الماضي، عندما كان من العسير الإتيان بالبيانات، وعندما كان اختيار العينات عملاً ضرورياً. أما في وقتنا الحالي، ومع توافر مجموعات البيانات التي يكون فيها "ن" "N" يساوى "كل شيء" "all"، فإن الوضع يختلف، كما يمكنك، أساساً، أن تدع البيانات تتحدث. (مثال ذلك: Anderson 2008; Mayer – Schönberger and Cukier 2013، وانظر أيضاً Conté et al 2012).

والنظرية المجردة، شأنها شأن الإمبيريقية، تأتى في صور مختلفة. وتسمى إحدى هذه الصور "النظرية الكبرى" "Grand theory"، والتي تلقت انتقادات من جميع المفكرين تقريباً، أو قل إنها النظرية التي تعالج المشكلات المحورية للمجتمع ولكن ليس لها ارتباط، تقريباً، بالواقع الإمبيريقي. فالبيانات تستخدم – أساساً – لتوضيح النظرية، والتحليل يتناول كل ما هو غير إمبيريقى من هذه البيانات. هذه هي صورة ما يطلق عليه اسم "النظرية "النظرية" "Theoretical' Theory"، كما إنها وصفت باعتبار أنها تتعامل – أساساً – مع النظريات (النظرية) الأخرى (Bourdieu 1988: 774).

بيد إنه توجد صور أخرى، أيضاً، للنظرية المجردة، والتي منها ذلك النمط من المقاربات التي هيمنت على التيار السائد لعلم الاقتصاد أثناء القدر الأعظم من القرن العشرين. في هذا النمط من البحوث، يرفض العالم الاجتماعي، وبشكل صريح، أن يبدأ برصد الواقع الإمبيريقى، بل يبدأ بدلا من ذلك بإحدى النظريات. وفقاً لما يذهب إليه أحد أنصار هذه المقاربة، يتعين عليك أن تبدأ البحث مستخدماً "ذلك المزيج المكون من المسلمات المتعلقة بتعظيم المنفعة المستمدة من سلوكيات الأفراد "المستهلكين"، ومن تفضيلاتهم المستقرة، ومن توازن السوق، مع تطبيقها تطبيقاً صارماً حازماً بلا تردد أو إحجام" (Becker 1976: 5)

النظرية في مواجهة التنظير

أفضت الطرق التي تستخدم بها كلمة "النظرية" حالياً في مجال العلم الاجتماعي إلى قدر كبير من الخلط والتشويش فيما يتصل بتعريف النظرية. نتيجة لذلك، أصبح "التنظير" "Theorizing"، أو العملية التي من خلالها يتم إنتاج النظرية، أصبح أمراً

عسير الفهم والإدراك. وقد اكتسب التنظير، كما اكتسبت النظرية، معنى إشارياً يدل على شيء مجرد لا فائدة منه، وهو ما يتمثل في بعض التعبيرات التي منها مثلاً: تعبير "التنظير العقيم" "Sterile theorizing" أو التعبير الذي يقول: "إن حقيقة واحدة تساوى مجلداً من التنظير" (Merton 1945: 472, OED 2000).

مع أن التنظير لم يناقش في الكتابات السابقة في مجال العلم الاجتماعي بدرجة كبيرة للغاية، فإن المقالات والكتب التي تعالج موضوع "النظرية" ذات أعداد متزايدة ووفيرة. إلا إنه يوجد – رغم هذه الحقيقة – قدر كبير من الخلط فيما يتعلق "بالعناصر" التي تتكون منها النظرية، وبالمهمة التي ينبغي على النظرية أن تقوم بها. في سنة ١٩٤٥ نشر الباحث روبرت ك. ميرتون Robert K. Merton مقالة عن الطريقة التي بها تفهم كلمة "النظرية" في علم الاجتماع؛ وقد وجد أن هذه الكلمة استعملت فيما لا يقل عن ستة وجوه مختلفة (Merton 1945) بعد هذا التاريخ بنصف قرن ظهرت مقالة تتماشى مع نفس هذه الأفكار في "مجال" "النظرية السوسيولوجية" "Sociological Theory"؛ وفي هذه المرة وجد المؤلف سبع استعمالات مختلفة 'لكلمة "النظرية"' (Abend 2008: see also Camic and Gross 1998)

نظراً لأن المنحى الفكري لهاتين المقالتين هو نفس المنحى تقريباً، فسوف أقتصر على تقديم قائمة الباحث ميرتون "بعناصر النظرية" إذ يقول إن النظرية تعتبر – بصفة عامة – متكونة من العناصر التالية:

(١) منهج البحث؛ (٢) والتوجهات السوسيولوجية العامة؛ (٣) وتحليل المفاهيم السوسيولوجية؛ (٤) والتفسيرات السوسيولوجية اللاحقة؛ (٥) والتعميمات الإمبيريقية في علم الاجتماع؛ (٦) والنظرية السوسيولوجية (Merton 1945).

والتعريف الذي انفرد به الباحث ميرتون للنظرية تعريف مشهور استشهد به الباحثون كثيراً: "يشير مصطلح "النظرية السوسيولوجية" "Sociological theory" إلى مجموعة من الافتراضات المترابطة فيما بينها منطقياً، والتي يمكن أن تستمد منها مظاهر الانتظام "أى الخضوع لنفس القاعدة أو المبدأ". ويخص ميرتون مظاهر الانتظام هذه بأن من الواجب ترسيخا من خلال "الفرضيات التي يمكن اختبارها إمبيريقيا" (Merton 1967: 39,66,70; Compare Merton 1945: 472).

من الأهمية أن نلاحظ تأكيد الباحث مرتين على أهمية دور عملية التحقق Verification "أي: البرهنة وإثبات الحقائق من خلال الاختبارات العلمية" بالنسبة لما ينبغي – في رأيه – أن يعتبر نظرية. وكما سيتضح من مناقشة لهذا الموضوع نعرضها حالاً، فإن عملية التحقق هذه تشكل – أيضاً – مفتاحاً ذا

أشكال وطرق متعددة لفهم ما حدث، بصورة أعم، للنظرية الاجتماعية منذ الحرب العالمية الثانية.

ثمة مشكلات كثيرة تتعلق بالمقاربة الفكرية التي يتبناها الباحث ميرتون في مجال "النظرية"، وفي هذا الكتاب سأستخدم مقاربة فكرية مختلفة، وهو ما سبق ذكره في المقدمة. ورؤيتي مشابهة جداً لرؤية بيرس، ومشابهة أيضاً للرؤية القياسية في العلم. فالنظرية، وفقاً لما أعرفها به عموماً، هي حكم يتعلق بتعليل ظاهرة ما "أي: بتفسير سبب وجودها" ومن منطلق هذا المنظور الفكري، فإن التنظير Theorizing هو العملية التي من خلالها يتم إنتاج نظرية ما.

سياق الاكتشاف وسياق التعليل

كذلك يمكن للمرء أن يسعى لفهم موضوع التنظير وحالته الراهنة بالاستفادة من التمييز بين "تعبير" سياق الاكتشاف The Context of discovery و"تعبير" سياق التعليل The context of justification. والتصرف بهذا الأسلوب يجعل بالإمكان – أيضا – أن نحسن فهمنا للسبب الذي أدى إلى ندرة مناقشة الباحثين لموضوع "التنظير الإبداعي" "Creative theorizing" في مجال العلم الاجتماعي.

قدم للمرة الأولى مصطلح "سياق الاكتشاف" ومصطلح "سياق التعليل" في أوائل ثلاثينيات القرن العشرين على يد فيلسوف العلم هانز رايشنباك Hans Reichenbach، وانتشر بعد ذلك من خلال كتاب المفكر كارل بوبر Karl Popper بعنوان "منطق الاكتشاف العلمي" "The Logic of Scientific Discovery" (1935) والذي كان له تأثير بالغ عند الباحثين والمفكرين.

يشير تعبير "سياق الاكتشاف" إلى المرحلة التي عندها يتم توليد الأفكار الجديدة المتعلقة بكيفية تفسير ظاهرة ما. ويشير تعبير "سياق التعليل" إلى المرحلة التي تأتى بعد ذلك، أو حين تعطى هذه الأفكار الشكل الذي ينبغي أن تكون عليه عندما تقدم للمجتمع العلمي.

كان كل من رايشنباك وبوبر من الآخذين بالرأي القائل بأن فلسفة العلم عاجزة – من حيث المبدأ – عن أن تقول أي شيء له أهميته بشأن ما يحدث في سياق الاكتشاف. والسبب في ذلك، كما ذهب إليه المفكران المذكوران، أن توافر الأفكار الجيدة "لدى الباحث" ليس شيئاً يمكن تحليله بمساعدة المنطق والعقل.

وقد عبر رايشنباك عن هذا المعنى بقوله: "إن فعل الاكتشاف يفلت من التحليل

المنطقي (231 :1951) فالذي يحدث عند توليد الأفكار لا يمكن فهمه بمساعدة العلم. فهو ينتمي في أفضل الأحوال، وفقاً لآراء بوبر، إلى "علم النفس الإمبيريقى" (Popper, 1935:45) "empirical psychology"

لم يكن التميز بين سياق الاكتشاف وسياق التعليل في مجال العلوم الطبيعية أمراً سبق لرايشنباك أن اكتشفه قبل غيره من الباحثين، إلا أن إنجازه الكبير في هذا الصدد تمثل في استحداثه لمجموعة من المصطلحات التي شاع استعمالها بين الباحثين. فبإمكان المرء أن يعثر على هذا التمييز، مثلاً، في مؤلفات بيرس التي كتبها قبل ذلك. فكلمة" "abduction" عند بيرس، ومعناها "الاستدلال" ترمز إلى مفهوم سياق الاكتشاف "عند رايشنباك"، كما أن "توليد الفرضيات واختبارها"، عند بيرس، ترمز إلى مفهوم "سياق التعليل/ أو التفسير" "عند رايشنباك". كما يمكن العثور على هذا التمييز في أعمال العديد من الفلاسفة والعلماء الآخرين (انظر مثلاً (Schickote and Steinle 2006

من المهم كذلك أن نشير إلى أن التمييز بين سياق الاكتشاف وسياق التعليل/ أو التفسير قد استنفدت طاقته "فضعف تأثيره" بطريقة مختلفة جدا في العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية. من الأسباب الهامة لهذا الوضع أن النظرية، فيما قبل عشرينيات القرن العشرين، سبق لها أن تطورت في مجال العلوم الاجتماعية بوتيرة أسرع كثيراً من وتيرة تطوير مناهج البحث التي تختبر النظرية (انظر مثلا .(Ogburn 1930; Bulmer 1984

ومع ذلك، فقد حدث بعد الحرب العالمية الثانية بالتحديد أن بدأت مناهج البحث الكمية الخاصة باختبار النظرية في التقدم بسرعة بالغة في العلوم الاجتماعية، كما بدأت تحظى بالقبول بصفة عامة "في أوساط الباحثين" يضاف إلى ذلك أن كثيراً من علماء الاجتماع في وقتنا الحاضر بدأوا يحاجون بأن من اللازم اختبار جميع النظريات على نحو دقيق صارم، باستخدام مناهج البحث (الكمية) العلمية.

على النقيض من ذلك، فإن مشكلة توليد الأفكار الجديد لم تجتذب إلا قدراً قليلاً من اهتمام الباحثين والمفكرين في ذاك العصر، كما جرت العادة على النظر إليها على أنها مشكلة تنتمي إلى الجزء غير العلمي من عملية البحث. وكانت نتيجة ذلك حدوث تشويه لمفاهيم كثيرة، إذ لم يقتصر هذا التشويه على الإساءة لما يرمز إليه التنظير "من معان ودلالات" بل أساء هذا التشويه – كذلك – إلى معنى النظرية نفسها "أو قل: أساء إلى معنى الفكر نفسه "Theory itself".

التنظير شأن عملي

قبل مواصلة التقدم في معالجة الموضوع، من الضروري أن نتوقف للحظة ونقول شيئاً عن الطريقة التي سوف يستخدم وفقاً لها مصطلح "النظرية" "Theory" ومصطلح "التنظير" "Theorizing" في هذا الكتاب. فكلمة التنظير، شأنها شأن كملة النظرية، اكتسبت بمرور السنين صوراً من الارتباطات الذهنية التي تصلها بما هو مجرد وتفصلها عن الفعل action "العملي". وهذا المعنى يختلف عن معناها الأصلي، حيث طور على يد المفكرين الإغريق في القرن الرابع قبل الميلاد، وهو المعنى الذي يكون التنظير Theorizing بمقتضاه أمراً ذا طبيعة علمية. ففي ذاك العصر، كان الفعل المصدري "To Theorize" يعنى أموراً ثلاثة هي: النظر to see، والملاحظة to observe، والتفكر to contemplate

في مبدأ الأمر كان ينظر إلى التنظير باعتباره أمرا يجمع في طبيعته بين العملي والمجرد، وتنعكس هذه الحقيقة "أي: تتجلى صورتها" في أصل كلمة Theorein، وهي الكلمة الإغريقية لكلمة Theorizing "الإنجليزية". وقد أخبرنا "من أساتذتنا" أن هذه الكلمة كلمة مركبة من عنصرين: الأول منهما هو Thea، بمعنى منظر أو هيئة شيء ما، والثاني هو Horan، بمعنى "ينظر إلى شيء بانتباه وتركيز، كما أن الاسم "الإغريقى" "ثريوس" "Thereos"، كان يعنى: الشخص الذي يقوم بالملاحظة في تنبه وتركيز، أو قل: الشخص المبعوث لرصد الأعمال التي يمارسها الجانب وأن "ينظرها" "to "Theorize" Them – أي يقوم، عن طريق التفكير المنظم، ببلورة تفسيرات منطقية لكل ما هو غريب وغير متوقع (Scaff 291:11).

ثمة جانبان لهما أهمية خاصة فيما يتصل بأهدافنا الواردة في هذا التقرير الذي يبين أصل كلمة Theorein "الاغريقية" لأحد هذين الجانبين صلة بالمحاولة التي بذلها الإغريق في القرن الرابع قبل الميلاد كي يطوروا اسلوباً جديداً في التفكير يكون مختلفاً جداً عما كان ينظر إليه حينئذ على أنه الهدف الرئيسي للتفكير – أعنى به اكتساب الحكمة. وقد ركز هايدجر Heidegger على هذا الجانب الخاص في محاولته لإعادة بناء المعنى الأصلي للنظرية في الفلسفة الإغريقية. وفقاً لما يذهب إليه هايدجر، فإن التنظير وخلق النظرية كانا يعنيان – في مبدأ الأمر– التركيز على ظاهرة ما، والإقامة، معها، ومحاولة فهمها بهذا الأسلوب .(Heidegger 1977: 116)

إلا إنه يوجد – أيضاً – عنصر آخر وعملي جدا من عناصر معنى كلمة التنظير Theorizing في اللغة الإغريقية القديمة. فوفقاً لما وصلت إليه المعارف

الحديثة، لم تكن كلمة "Theoria"، وهي الكلمة الإغريقية المقابلة لكلمة "Theory" الإنجليزية، لم تكن تشير في مبدإ أمرها إلى أسلوب ما في التفكير، بل كانت تشير إلى مؤسسة مدنية A civil Institution "أي: ممارسة مدنية" (انظر، على سبيل المثال، Nightingale 2009). فقد كان من عادة أي مدينة إغريقية أن تبعث بفرد، أو قل بلغة الإغريق أنها كانت تبعث بشخص تسميه "ثيوروس" "Theoros" "أي: مندوب أو مرسال"، في رحلة حج إلى خارج المدينة بهدف استشارة أحد وسطاء الوحي من الكهنة، أو بهدف المشاركة في أحد الاحتفالات الدينية، ثم العودة إلى مجتمعة "أي مدينته" ليقدم تقريراً بما عايشه ولاقاه "من الأشخاص والأحداث". كما وجدت صورة أخرى لهذه الحالة السابقة، ولكنها ذات طابعٍ علماني، حيث كان "الثيوروس" يسافر إلى خارج المدينة بوصفه سائحاً أو باحثاً، أكثر منه حاجا أو مشاركاً في احتفال ديني. في كافة هذه الحالات، كان يعاد توحيد هذا المسافر مع مجتمعه المحلى الأصلي "أي: مع مدينته" عن طريق تقديمه بيانا لها بما قد شاهده في سفره.

استخدم فلاسفة القرن الرابع قبل الميلاد كلمة Theoria كمجاز أو وصف رمزي ليشرحوا ما الذى يقصدونه من كلمة "الفلسفة" "Philosophy"، وكيف يرون هذه الطريقة الخاصة في التفكير، والتي يتضمنها هذا المصطلح الجديد، ويمكننا العثور على أشهر بيان يشرح الرحلة التي قامت بها "الثيوريا" "theoria" "أي: النظرية" "Theory" حتى وصلت إلى شهود الحقيقة العليا، أقول: يمكننا العثور على هذا البيان في الحكاية الرمزية الخاصة بالكهف، والتي وردت في كتاب "الجمهورية" Republic لأفلاطون: فحينما يغادر الفيلسوف الكهف، يحدث له في أول الأمر أن يعجز عن الرؤية بسبب تعرض عينيه لضوء الشمس. لكنه بعد برهة قصيرة يبدأ في رؤية الأشياء على ما هي عليه في الواقع، خاصة "مثال الخير" "Form of the Good". وينتهي به الأمر إلى أن يعود إلى الكهف، وفي هذه الحالة يعاني من صعوبة الرؤية في الظلام ومع ذلك، فإن عينيه تتكيفان "مع الظلام" بعد برهة قصيرة. إلا إنه، في هذه المرة، سوف يرى الأشياء بطريقة أخرى، حتى لو كانت هذه الرؤية "رؤية في الظلام" "Seeing in the dark" (Plato 1989: 211)؛ مع ملاحظة أن ما هو مكتوب بحروف مائلة، بهدف التأكيد، هو من عندي).

فإذا تركنا الآن موضوع أصل كلمة "Theorize" "أي: ينظر"، والذي يكشف لنا عن إنها كان ينظر إليها ككلمة تعبر عن نشاط عملي للعقل، فإن القضية التالية

التي يتعين التأكيد على أهميتها هي أن التنظير – في جوهره – نشاط نتعلمه عن طريق ممارسته. ومن هذه الحيثية يمكن الربط بين التنظير والسباحة أو ركوب الدراجات، فالنشاطان الأخيران لا تستطيع تعلمهما بمجرد القراءة عنهما. ويصدق نفس المعنى على الطريقة التي بها يتعلم الأفراد – في وقتنا الحاضر – مناهج البحث في العلوم الاجتماعية.

الحقيقة التي تقول إن التنظير نشاط عملي تعنى أيضاً أن ما هو مطلوب لتعلمه (ولتعلم طريقة تدريسه للغير) هو المعرفة بقواعده العملية. أي معرفة القواعد التي تخبرك بما تعمله حين تنظر، وليس معرفة الدراسات المجردة للتنظير، والتي تنطلق من رؤية ما من الرؤى الموضوعية والعلمية. فالدراسات العلمية الاجتماعية لموضوع الإبداع"، بعبارة أخرى، ليست نافعة جداً لتحقيق هذا الهدف، نظراً لأنها لا تهدف لتقديم النصيحة العملية. وهذا الوضع شبيه بوضع دراسات العلم والتكنولوجيا. فالإسهام الرئيسي الذي تقدمه هذه الدراسات هو أنها تثبت أن ما يجرى في سياق التعليل ليس هو ما نتوقعه من منطق البحث العلمي. أو بعبارة أخرى أقول: إن المنطق العملي لا يشبه المنطق المعاد بناؤه (Kaplan 1964).

والدراسات التي تعالج موضوع الإبداع، شأنها شأن الدراسات التي تعالج موضوع العلم والتكنولوجيا، تحتوي أحياناً على معلومات نافعة جداً، بل تحتوي على توجيهات ونصائح للمنظر بخصوص الطريقة التي ينبغي عليه اتباعها ليواصل عمله. بيد أن هذا الوضع يمثل مكسباً إضافياً تفوز به عندما تقرأ هذه الدراسات، وليس عندما تطلع على هدفها الرئيسي "وهو إثبات أن المنطق العملي لا يشبه المنطق المعاد بناؤه".

ولكن حتى إن يكن التنظير نشاطاً عملياً من أوله لآخره، فإن هذا لا يعنى أن بالإمكان استنباط قواعد محددة تنظم طريقة التصرف في المراحل المختلفة للتنظير. والسبب في ذلك يتضح مما يلي: من المفيد – حقاً – أن يكون لديك بعض القواعد البسيطة التي تتبعها حينما "تتعلم" "Learn" كيف تنظير. وسوف نقدم في هذا الكتاب بعض القواعد التي من هذا النمط.

ولكن في مرحلة لاحقة سوف تتبلور "لديك" مهارة في استخدام هذه القواعد، وفي هذه المرحلة يكون من الأهمية أن تسمح لنفسك بالتحرر من القواعد. ذلك أن اتباع القواعد في هذا الوقت سوف "يعوق" "block" محاولتك للوصول إلى مستوى أعلى ولتحويل الممارسة إلى مهارة (أنظر على سبيل المثال Dreyfas and Dreyfus1986).

يقدم فيتجنشتاين Wittgenstein سبباً آخر لعدم الاعتماد على القواعد وحدها (Wittgenstein, 1953). فهو يرى أن القواعد لا يمكنها أن تغطى جميع الأوضاع، وسبب ذلك أنها تنشأ في أوضاع تؤخذ فيها بعض الأمور مأخذ التسليم (إلا أنها لا يصرح بها في القواعد). وحينما تطبق هذه القواعد على أوضاع جديدة، لا يكون بإمكانها أن تزود الباحث بشيء من التوجيه والإرشاد.

يترتب على رؤية فيتجنشتاين هذه نتيجة "مفادها أن التركيز البالغ الشدة على اتباع القواعد سيوقف الباحث عن التفاعل/ أو التعامل مع الوضع الحقيقي بما يكفي لتحقيق غرض الدراسة. وقد وصل ماكس فيبر Max Weber إلى ما يكاد يشبه هذه النتيجة مضيفاً – من عنده – رأياً آخر يعارض الاتباع الدائم للقواعد، حيث يقول: "الواقع أنه كما أن الشخص الذي حاول أن يتحكم في نمط سيره متعمداً، وذلك بانتفاعه بمعرفته التشريحية لجسم الإنسان، تعرض لخطر التعثر، فكذلك الحال مع العالم الخبير الذى حاول أن يحدد بشكل قاطع أهداف بحثه بصورة لا صلة لها بموضوع البحث، وذلك بناء على ما يتمسك به من أفكار منهجية، أقول: فإن من شأن هذا العالم أن يتعرض لخطر الوقوع في نفس الصعوبات المذكورة" (Weber 1949: 115).

التنظير في التخصصات المختلفة

يتم العمل بالتنظير على وجوه مختلفة في التخصصات المتنوعة. فلعلماء الاقتصاد أسلوبهم الخاص بهم في معالجة النظرية، وكذلك الأمر مع العاملين في مجال القانون، ومجال علم الآثار، ومجال الطب، ومجال علم الفيزياء، وما إلى ذلك. ويمكننا أن نضيف إلى هذه الحقيقة أنه كثيراً ما توجد أساليب مختلفة للتنظير داخل نفس العلم الواحد، وأن هذه الأساليب تتغير بمرور الزمن.

النتيجة المترتبة على هذه الأمور كلها هي وفرة الأساليب التي يتم بها التنظير. ففي الوقت الذي قد يكون فيه علم ما قادراً على الإنجاز والنجاح في مجال ما، وليكن مجال الطريقة التي تستخدم بها أشكال التناظر الوظيفي Analogies* مثلاً، قد يكون علم آخر قد طور اتجاهاً مثيراً للاهتمام في مجال تفسير الظواهر التي يدرسها. ولم يحدث، إلا للقليل جداً من هذه الثروة المعرفية، أن قام الباحثون

* التناظر الوظيفي: هو تماثل أو تشابه في الوظيفة بين أعضاء ذات أصول أو أبنية نشوئية تطورية مختلفة (من مصطلحات علم الأحياء). المصدر: قاموس أطلس الحديث. (المترجم).

بتجميعها معاً ومناقشتها من منطلق المنظور العام للتنظير في العلم الاجتماعي، إلا إنه يوجد لدى الباحثين مبرر مقنع/ أو سبب وجيه للاعتقاد بأن بالإمكان أن يتعلموا الكثير من هذه الثروة المعرفية.

والأمر الذي يتعين استحداثه في عصرنا الحالي هو توفير مجموعة متميزة من المعارف العلمية المتعلقة بالتنظير، بجانب توفير تراث علمي شامل للتنظير في العلم الاجتماعي. ولقد ذكرت حتى الآن نصوصاً من كتابات بيرس وفيبر، وسوف تتوافر حالاً فرصة للرجوع إلى أعمال بعض المفكرين الآخرين من المهتمين بهذا المشروع البحثي، من أمثال كارل ويك Karl Weick، وجيمس جي مارش James G. March، وإيفرت سي هيوز Everett C. Hughes.

ولكني أكرر القول بأن معظم الأعمال العلمية التي تتناول كيفية التنظير في العلم الاجتماعي، وهو التنظير الذي يستخدم ألفاظاً عملية ويتم بأسلوب إبداعي، غير موجودة حتى وقتنا هذا. كما أن الغالب على المادة العلمية الموجودة حالياً، في هذا المجال، أن من العسير تحديد مواقعها، فهي غير متاحة إلا لمن هم على علم ودراية بمداخل ومخارج العلوم الاجتماعية، والفلسفة، وما إلى ذلك. والشيء الذي ينقصنا – بصفة خاصة– هو توافر عدد من النصوص / أو الكتابات والتمارين المفيدة التي يمكن تدريسها في مقررات تعليمية قياسية.

وحتى بافتراض أن العلوم الاجتماعية كلها تعتمد على تراثات معرفية مختلفة الطبائع إلى حد ما في مجال التنظير، حيث تعكس هذه التراثات ما لهذه العلوم من مهام، وتواريخ مختلفة، فإن الانفتاح على الأسلوب الذي يمارس به التنظير في العلوم الأخرى، هو أمر جدير بأن يوصى به إلى حد بعيد. كما إنه يوجد الكثير مما ينبغي أن نتعلمه من التنظير في الفلسفة، والفيزياء، والقانون، وكثير من العلوم الأخرى.

وأود أيضاً أن أضيف أن بإمكانك التعلم من الفنون، وسبب ذلك أن الفنون تشكل مجالاً في المجتمع الحديث يجرى فيه قدر كبير من التجريب والتفكير المثيرين للاهتمام والذي يحدث في "عالم" الفنون له صلة وثيقة بمشروع التنظير من عدة وجوه، وفقاً لما أراه في هذا الشأن. خذ مثلاً مهارة الفنانين في التوصل إلى ملاحظات جديدة "أي: مشاهدات جديدة لأعمال فنية قديمة"، وشغفهم باستكشاف الوسائل الجديدة في التعبير. وفي الفصل التاسع مناقشة لهذه الموضوعات، وللقضايا التي لها صلة بها.

التنظير باعتباره أسلوباً مختلفاً في التفكير

يحاج كتاب "قواعد المنهج في علم الاجتماع" "The Rules of Sociological Method" لإميل دوركايم Emile Durkheim بأن مهمة علم الاجتماع هي البدء بتأسيس ما يسميه "الحقائق الاجتماعية" Social Facts، ثم تفسير هذه الحقائق. والحقائق الاجتماعية، وفقاً لتعريف دوركايم، تتكون من أساليب التفكير، والشعور، والعمل. وبعد فترة من الزمن يتم إبراز هذه الأنماط المختلفة من الحقائق الاجتماعية بأساليب متنوعة، كما أنها توجه وتقيد الأسلوب الذي يتصرف الفاعلون وفقا له.

بهذا الشكل، فإن للعلوم الاجتماعية المختلفة كلها أساليبها الخاصة بها في التفكير، والشعور، والعمل، كما أن هذه الأساليب تتجسد – في نفس الوقت في صورة أساليب مقبولة في مباشرة الأمور. كما يمكن للمرء أن يحاج بأن صياغة النظرية بالأسلوب العتيق الطراز تمثل أسلوباً مختلفاً في التفكير، والعمل، والشعور.

وبعبارة أخرى اقول، إنه من منطلق منظور دوركايمي، يمكن للمرء أن يصف النظرية العتيقة الطراز في العلم الاجتماعي بأنها حقيقة اجتماعية راسخة، وأنها مجسدة في "صورة" الأسلوب الذي يتم به تدريس المقررات التعليمية "للعلم الاجتماعي"، بجانب تجسدها في صورة ذلك العدد الهائل من الكتب والمقالات التي قدمت في هذا الموضوع.

يعلمنا دوركايم أيضاً أن من العسير تغيير اساليب التفكير التي تأتى بهذا النمط من النظريات، وأن هذه الأساليب تمارس ضغطاً قسرياً على العلماء الاجتماعيين، دافعة إياهم إلى التفكير بالأساليب التقليدية. أما النمط الجديد للتنظير، وكما أدعو إليه في هذا الكتاب، فهو على النقيض من الأسلوب التقليدي، فهو نمط متقلب "لا يخضع لقاعدة ثابتة" وسلس، كما إنه لم يحظ بالاعتراف به بعد "في أوساط العلماء والباحثين".

إن النمط القديم لصياغة النظرية في مجال العلوم الاجتماعية ينتمي – بصورة عامة– إلى تراث فلسفي يوجب أن تكون النظرية (والتنظير) متصفة بطابع رسمي "أي: متفقة مع الأعراف الفكرية السابقة" وبطابع منطقي، وأن يتم تنفيذهما وفقاً للمبادئ التي يرتكز عليها شكل من أشكال أبستمولوجيا علم الإدراك ينظر إليه في وقتنا هذا باعتباره شكلاً عتيقاً عفا عليه الزمن (انظر، مثلاً، Dreyfus 2009، الفصل الثالث).

أما النمط الجديد للتنظير، وبالصورة التي أدعو إليها هنا، فيعتمد، بدلاً مما

سبق ذكره، وبصورة أساسية، على مجموعة متعددة من أشكال التفكير التي تختلف جميعاً عن الاتجاه الفكري الرسمي العتيق الطراز. والأمر الذي أهتم به بصفة خاصة يتمثل في أساليب التفكير التي تتخذ شكل قياسات التشبيه Analogies *، وتمييز الأشكال/ أو: تمييز النماذج Pattern Recognition، والرسوم البيانية Diagrams، وما أشبه ذلك. كما أن ما يندرج من أشكال التفكير تحت اسم "التفكير السريع" "Fast Thinking" واسم "الحدس/ أو البديهة" Intuition يقع أيضاً في مكانه المناسب هنا.

مع أن العلوم الاجتماعية قد أولت شيئاً من الاهتمام بهذه الأساليب البديلة وغير الرسمية في التفكير، فإن العلم الذي يتصرف بهذه الصورة مستخدماً الأسلوب الكثر إبداعية واستمرارية هو علم الإدراك Cognitive Science. وأعتقد أنه ينبغي – لهذا السبب – أن يحدد لعلم الإدراك حيز خاص ينفرد به، وذلك في هذه المحاولة التي نبذلها لاستحداث نوع جديد من التنظير في مجال العلم الاجتماعي. ذلك أن ما يتعين على علم الإدراك أن يقوله عن بنية المفاهيم "أو: بنية الأفكار والتصورات Structure of Concepts"، وعن الطريقة التي تستخدم بها أشكال قياس التشبيه، وما هو أكثر من ذلك بكثير، أقول: إن ما يتعين على علم الإدراك أن يقوله في هذه الأمور يسبق العلوم الاجتماعية ويتقدم عنها بمسافة بعيدة للغاية، كما إنه لا غنى عنه لمشروع التنظير.

الدراسة المسبقة ومراحلها

إذا كيف للمرء أن يتصرف وهو يهدف للوصول إلى تعلم كيف يحسن التنظير وكيف يقدم نظرية مثيرة للاهتمام؟ سوف أطرح رأيي واشرحه بالتفصيل في الفصول القليلة التالية. من المهم أن نلاحظ أن هذا الكتاب موجه – أساساً – لدراسي العلم الاجتماعي، من تخرج منهم ومن لم يزالوا طلبة بالجامعات. وأنى لأرجو أن يكون هذا الكتاب – أيضا – مفيداً للعلماء الاجتماعيين بصورة أعم لأنه يطرح شكلاً من أشكال التغيير في الرؤية الحالية لما يبغى أن تكون عليه العملية البحثية. وأنا– في حقيقة الأمر – أحاج من أجل الوصول إلى صورة موسعة من العملية البحثية، والتي يدرج فيها العنصر النظري بصورة واضحة ويعطى ما يخصه من موقع متميز.

---

* قياس التشبيه: شكل من أشكال الاستدلال أو الاستنتاج المنطقي مبني على الفرضية التي تقول: إذا تشابه شيئان في بعض النواحي، فإنه يترجح – إلى حد بعيد – أن يتشابها في نواح أخرى. المصدر: قاموس "أطلس الحديث". (المترجم).

كثيراً ما يتم تعليم دارسي العلوم الاجتماعية أن يبدأوا بحوثهم بتقديم خطة / أو تصميم للبحث، يقدمون فيه وصفاً تفصيلياً دقيقاً للمشكلة التي يريدون دراستها وكيف يشرعون في هذا الأمر وهو: موضوع البحث/ أو تساؤل البحث "The Search Question". وتعد مناقشة مناهج البحث جزءًا من أي خطة/ أو تصميم جيد للبحث. وكذلك الأمر مع أي مناقشة للدراسات الحالية وللنظرية ذات الصلة.

إلا أن التصرف بهذا الأسلوب يجعل من العسير تطوير مقاربة جديدة وجذابة لهذا الموضوع. فكثيرا ما يأمل الدارس أن يظهر شيء يثير الاهتمام عندما يبدأ العمل في البحث. من ناحية أخرى، فإنه إن لم يكن الدارس متمتعاً بموهبة فطرية في التنظير، فليس من الراجح أن يحدث هذا التنظير، وسبب ذلك أن بحثه يبدأ بأفكار قليلة العدد جداً.

لعلاج هذا الوضع، اقترح أن نباشر العمل في البحث بالأسلوب التالي. يتعين علينا أن نضيف مرحلة لبداية عملية التساؤل، وأن نجعل هذه المرحلة جزءاً من العلمية البحثية. وسوف تكون مهمة الباحث في هذه المرحلة هي الإتيان بأفكار جديدة، وإنجاز هذه المهمة من خلال مواجهة مبكرة، وتمهيدية، وإن تكن مواجهة حادة، مع البيانات.

لتسهيل إفراد هذه المرحلة المبكرة التي ينبغي أن تحدث قبل المرحلة التي فيها يتم استكمال رسم خطة البحث وتنفيذه، أقترح أن نستخدم اسماً خاصا لها. والكلمة التي اخترتها لهذا الاسم هي كملة "الدراسة المسبقة" "Prestudy". وهذه الكلمة تعد في إنجليزية الحياة اليومية فعلاً يعنى "الإعداد / أو التحضير" "To Prepare". وفي العلم الاجتماعي تعطى هذه الكلمة ارتباطات ذهنية بالدراسة الاستطلاعية والدراسة الاستكشافية، إلا أن لها مهمة مختلفة جداً عندما تستخدم في هذا الكتاب لاحقا – وأعنى بها صياغة النظرية المبدئية/ أو المؤقتة The Tentative Theory التي سوف تستخدم في الدراسة الرئيسية (٢).

إن تقديم كلمة – لأول مرة – مثل كلمة "الدراسة المسبقة" "Prestudy" يمثل محاولة لإعطاء هوية متميزة لمرحلة المشروع البحثي التي فيها يمكن أن يصاغ شكل مبكر وإبداعي من أشكال التنظير. انطلاقا من هذا المنظور، فإن العملية البحثية التامة، أو قل التحقيق العلمي Inquiry، تتألف من مرحلتين، وليس مرحلة واحدة، هما" مرحلة الدراسة المسبقة" "Prestudy" "ومرحلة الدراسة الرئيسية" "Mainstudy". ويتم تنفيذ المرحلة الأولى قبل أن يتم استكمال رسم خطة البحث، والغالب على المرحلة الأخيرة أن تمثل النتيجة التي تنتهي إليها خطة البحث

والمحاولات المبذولة في الإجابة على تساؤل البحث. وتنتمي الدراسة المسبقة والدراسة الرئيسية إلى بعضهما انتماء عضوياً، حتى ولو كان من المفيد الفصل بينهما لأسباب تتعلق بأصول التدريس ومقتضياته. فالتنظير يحتل مكانة في كلتي الدراستين.

انطلاقاً من هذا المنظور يجب تخصيص حيز متميز وكبير الحجم للتنظير في العملية البحثية. علماً بأن التنظير يعمل به بصورة بديهية في حالات كثيرة للغاية، إلا إن من يفعلون ذلك هم المتمتعون بموهبة طبيعية في هذا الشأن، دون غيرهم من الباحثين. وهو وصفة "أي: مجموعة من الخطوات والتعليمات" لتحقيق تقدم بطيء في العلم الاجتماعي. وبالمثل، فإنه كثيراً ما يمارس التنظير وحده في نفس الوقت الذي تنفذ فيه الدراسة الرئيسية أو بعد تنفيذها بقليل. إلا إن هذا الوضع، أيضاً، يجعل من العسير إنتاج نظرية جيدة.

في مرحلة الدراسة المسبقة يتوافر للباحث مساحة كافية للتجريب والتنظير بأسلوب إبداعي، وذلك بناءً على ما يقوم به الباحث من مواجهة خاطفة، وإن تكن حادة، مع البيانات. وفي مرحلة الدراسة الرئيسية يتم استكمال رسم خطة البحث وتنفيذها في محاولة للإجابة على تساؤل البحث. في هذا الوقت يمكن للنظرية التي طورت أثناء مرحلة الدراسة المسبقة أن تختبر وتطور بأسلوب ملتزم بمناهج البحث العلمي– وهو أمر غير ممكن في المرحلة المبكرة. أما تحديد مدى ما قد تتمتع به النظرية المستمدة من مرحلة الدراسة المسبقة من قيمة إمبيريقية، فلن يتضح إلا في هذه المرحلة الأخيرة، وبعد أن تكون النظرية قد اختبرت اختباراً تاماً في مواجهة الحقائق الواقعية.

وتفادياً لأي لبس أو سوء فهم، أقول: إن من شأن التنظير أن يحتل مكانه أثناء مرحلة الدراسة الرئيسية، ويجب أن يحدث هذا الأمر كذلك. فإن ما يحدث أثناء هذه المرحلة يعد – من ناحية أخرى – نوعاً من التنظير الذي يختلف في بعض الوجوه عن نوع التنظير الذي يحدث أثناء مرحلة الدراسة المسبقة ومن أسباب هذا الاختلاف، أن التنظيم يعتمد على مجموعة من البيانات أكثر كثيراً "من بيانات المرحلة التالية". كما أن بالإمكان توسيع مدة العمل به ليستمر فترة أطول من الزمن، وهو الأمر الذي يتيح حيزاً أكبر لمعالجة علمية قائمة على التدقيق والتنقيح.

بيد أن تنفيذ دراسة مسبقة يكون له – أيضاً – نتائج تتعلق بالدراسة الرئيسية. فالتنظير أثناء مرحلة الدراسة الرئيسية سيتأثر بالتنظير الذي تم أثناء مرحلة

الدراسة المسبقة. كما أن من الأمور المستصوبة إلغاء الدراسة الرئيسية إذا تبين أن الدراسة المسبقة سلبية، بمعنى أنها لم تطرح أفكاراً إبداعية.

من المهم أن تتفطن إلى أن الخطر الذي تجازف بالتعرض له، إن كنت تريد أن تقول شيئاً جديداً، هو الإخفاق دائماً. أو قل إذا استشهدنا بكلام فيبر في مقالته بعنوان "العلم كمهنة" "Science as a Vocation"، أن "العامل العلمي عليه أن يدخل في حسابه الخطر الذي يتغلغل في العمل العلمي كله، والمتمثل في هذا السؤال: *هل خطرت على البال "فكرة" ما أم لا؟* (Weber 1946:136)علماً بأنني أنا الذي دونت الكلمات المكتوبة بحروف مائلة، بهدف التأكيد على أهميتها.

ليس من المستصوب أن تضع – على الدوام – خطا قاطعا يفصل بين الدراسة المسبقة والدراسة الرئيسية. فبمجرد إدراك الباحث – جدياً – لوجود هذين الجزأين من العملية البحثية، يتغير الوضع. إذ يصبح من الضروري حينئذ أن يطور "لنفسه" مهارة بوصفه باحثاً، وأن يتأكد من أن الخط الفاصل بين الدراسة المسبقة والدراسة الرئيسية هو خط سلسل "غير قاطع" كما هو المعهود عند الباحث المتمكن.

والتوجيه الذي يوجب على الباحث المبتدئ أن يبدأ عمله باتباع خطوات معينة، وأن يتوقف عن ذلك حين يطور مهارة لنفسه كباحث، أقول: هذا التوجيه ينطبق أيضاً على ما يجرى في الدراسة المسبقة. ففي أي دراسة مسبقة، تبدأ كما هو معهود بالرصد والملاحظة، ثم تطور بعض المفاهيم، وربما تطور نوعاً من التصور الرمزي، وتنتهي بصياغة تفسير مبدئي/ أو مؤقت Tentative. بهذا الأسلوب تستكمل بناء النظرية، حيث تزودها بجسم وبناء.

الجزءان اللذان تتكون منهما العملية البحثية، أو التحقيق العلمي، في العلم الاجتماعي هما: الدراسة المسبقة والدراسة الرئيسية

المرحلة رقم (١): مرحلة الدراسة المسبقة، أو التنظير المبكر

- قم بالرصد والملاحظة – وركز على أمر ما يثير اهتمامك أو دهشتك لدراسته.
- استكمل بناء النظرية (ضع اسماً للظاهرة؛ طور المفاهيم، وأشكال التشابه الجزئي، والأنماط، وما إلى ذلك، بهدف فهم العملية، والنموذج، وما أشبه ذلك من الأمور التي تنطوي عليها الظاهرة).
- استكمل النظرية المبدئية Tentative "أو: المؤقتة" من خلال تقديمك لتفسير ما لها/ أو لتعليل ما لسببها.

المرحلة رقم (٢) مرحلة الدراسة الرئيسية، أو مرحلة البحث الأساسي والتعليل:

- استكمل رسم خطة البحث بناءً على تساؤل البحث.
- نفذ خطة البحث، وقم بالتنظير مرة ثانية.
- دون النتائج "بكتابتها في الصورة التي تقدم بها التقارير العلمية"

تعليق: بإدراج الدراسة المسبقة كجزء عضوي من أعضاء العملية البحثية، يتم إعطاء مساحة أكبر للنظرية والتنظير. بعد أن يقرر المرء ما يريد دراسته من خلال الرصد والملاحظة، يواصل عمله بإعطاء بدن وبناء للنظرية المبدئية هادفاً من ذلك إلى فهم العملية والنموذج، وما أشبه ذلك من الأمور المتصلة بالظاهرة قيد البحث. يتم عمل ذلك من خلال عملية لها عناصر كثيرة، كعنصر التسمية "تسمية الظاهرة"، وعنصر بناء المفاهيم، وعنصر الإتيان بتعليل "يفسر سبب الظاهرة". وأنا أشير إلى هذه العملية باعتبار أنها "البناء الظاهر للنظرية" "Building out the theory" أما عنصر التنظير الذي يسرى في ثنايا الدراسة الرئيسية، فتتم مناقشته في الفصل العاشر.

تحتوي الفصول القليلة التالية على مناقشة للأنشطة الأساسية التي تتكون منها الدراسة المسبقة. وتهدف هذه الفصول إلى مساعدة الدارس المتوسط في العلم الاجتماعي على التنظير بأسلوب إبداعي. ولا يعد مشروع التنظير مشروعاً يوتوبياً يهدف إلى أن يحول كل دارس، بشكل ما، إلى عالم اجتماعي رائد. إذ يهدف – بدلاً من ذلك – إلى رفع النظرية إلى المستوى الراهن لمناهج البحث. وكما أن الدارسين يمكنهم – في وقتنا الحالي – أن يظهروا كفاءة في كيفية استخدام مناهج البحث الحديثة، فإنه يتعين عليهم – لهذا السبب – أن يكونوا قادرين على إظهار كفاءة في التنظير الإبداعي.

٢

الفصل الثانى
الملاحظة الاجتماعية

الفصل الثاني*
الملاحظة الاجتماعية

يقول شرلوك هولمز: "لا يتوافر لدى حتى الآن أي بيانات. إنه لخطأ فادح أن ينظر المرء قبل أن تتوافر له البيانات. فهو يبدأ بشكل غير مفهوم في اعتصار الوقائع وليها حتى تتناسب مع افكاره، بدلاً من أن يلوى أفكاره لتتناسب مع الوقائع"

سير آرثر كونان دويل، في مقالته بعنوان "فضيحة في بوهيميا"

"Sir Arthur Conan Doyle, "A Scandal in Bohemia"[1]

من أجل أن تقدم تنظيراً جيداً "أو: فكراً جيداً"، وكما شرح شرلوك هولمز هذا الأمر لدكتور واطس، فمن اللازم مطلقاً أن تتوافر لديك حقائق/ أو وقائع Facts. وسوف يقوم هذا الفصل بالاستفاضة في معالجة هذه المسألة، كما سيناقش مسالة ما هي أنواع البيانات التي تفيد في التنظير الجيد في العلم الاجتماعي. ومع ذلك، فإن هذا الفصل ليس فصلاً من فصول مناهج البحث.

فى المرحلة المبكرة للعملية البحثية يكون اهتمامك منصباً على استخلاص معنى إمبيريقى صحيح للظاهرة التى تريد دراستها، وذلك من أجل أن تصوغ لها نظرية ما بأسلوب تمهيدي. والأمر المهم هنا هو **ألا** يقوم الباحث بدراسته مستخدماً ذلك الأسلوب الصارم الدقيق في البحث، والذي يتحتم عليه اتباعه بمجرد بنائه لخطة بحثه وتنفيذه للدراسة الرئيسية. ولكنى أقول، للمرة الثانية، إنه بدون وجود أي بيانات على الإطلاق، يكون من المحال أن يصوغ الباحث نظرية بشكل جيد.

وسواء أكانت الدراسة الرئيسية ذات طابع إحصائي، أو كانت مكونة من عدد قليل من دراسات الحالة، فإن هذا شأن قليل الأهمية في مرحلة الدراسة المسبقة. وإن وصولك إلى إدراك سليم لما تريد أن تدرسه من خلال الرصد والملاحظة لهو أمر ضروري لا غنى عنه لأي باحث كان. إلا إنه من الطبيعي – أيضاً – أن ينتهي العلماء ذوو التوجهات المختلفة إلى توليفات مختلفة من البيانات الكيفية والبيانات الكمية.

---

* ترجم هذا الفصل الدكتور خالد عبد الفتاح عبد الله.

لابد من التأكيد على أن الأمر المهم في هذه المرحلة لا يقتصر – فحسب – على جمع البيانات، بل يشمل أيضاً جمع **البيانات الاجتماعية** Social data. أعنى بها البيانات المتعلقة بالحياة الاجتماعية، وبما يحدث بين الأفراد الذين يعيشون في جماعات، ومجتمعات محلية، ومجتمعات كبيرة الحجم. وإنه ليس بالمهمة الهينة أن تكون قادراً على التمييز بين البيانات في عمومها والبيانات الاجتماعية. وسوف أناقش في الجزء الثاني من هذا الكتاب موضوع: كيفية إعداد الباحث لهذه المهمة– أعنى بها: كيف ينمى الباحث في نفسه نوعاً من النظرة الصائبة/ أو حسن التمييز A good eye لما هو اجتماعي. كما سأناقش في ذلك الجزء وجوب درايتك ومعرفتك بشيء ما من الفكر الاجتماعي عندما تقوم بصياغة نظرية ما.

ويختلف أسلوبك في الرصد والملاحظة عند المرحلة المبكرة للبحث عن أسلوبك في تنفيذ هذا العمل لاحقاً. فالأمر المهم في هذه اللحظة هو أن تكتسب إدراكاً حقيقياً بالموضوع بحيث تستطيع تطوير بعض الأفكار الصائبة، والتي قد تستخدم لاحقاً في بناء نظرية ما. وهذا يعنى، ضمن ما يعنيه من أمور أخرى، أنه يجب عليك أن تكون على وعى تام بما يحدث، مستخدماً في ذلك كل ما لديك من مدارك وحواس، بجانب ما لديك من الوعي اللاشعوري.

وتسري القاعدة الأساسية التي قال بها دوركايم، والتي بنى عليها الطريقة التي تتم بها عملية الرصد والملاحظة، أقول: تسري هذه القاعدة على الدراسة المسبقة كما تسري على الدراسة الرئيسية. ومفاد هذه القاعدة أنه يتعين على العالم الاجتماعي أن يبدأ العملية البحثية بالإقرار بأنه لا يعرف أي شيء عن الظاهرة المقرر دراستها.

ويرى دوركايم أن نوع المعرفة التي قد تكون جمعتها من هنا أو هناك عن موضوع ما يعد نوعاً سطحياً من المعارف ذا قيمة ضئيلة. وهو يقول إنه لأمر حاسم قطعاً أن يتحقق دارس العلم الاجتماعي من "***جهله الكامل***" لما تقرر دراسته (انظر: Durkheim 1982, 246) والكلمات المكتوبة بحروف مائلة، بقصد التأكيد على أهميتها، هي إضافة من عندي وليس من عمل المؤلف). أو قل بعبارة أخرى: ***إن الأمور تكون مختلفة– على الدوام– عما يدور في ذهنك من أفكار وتصورات.***

إن المصطلح الذي يستخدمه دوركايم في وصف نوع المعرفة الذي يتوافر لدينا جميعاً قبل أن ندرس موضوعاً ما دراسة جادة، هو مصطلح "المفاهيم المسبقة" أو "الأفكار المسبقة"/ أو "التصورات المسبقة" "Preconceptions" (وبالفرنسية Prénotions). ويأتي هذا النوع من المعرفة – أساساً – من ممارسة الحياة والعمل

في المجتمع. والقاعدة التي يتعين على العالم الاجتماعي أن يلتزم بها هنا هي: "لابد من محو كافة المفاهيم المسبقة" (Durkheim 1964: 31).

وأكرر القول بأن أفكار دوركايم عن المفاهيم المسبقة تسري على الدراسة المسبقة كما تسري على الدراسة الرئيسية. كما أنها مفيدة في كونها تسهل على العالم الاجتماعي اجتناب المفاضلة بين خيار النزعة الإمبيريقية وخيار النظرية العامة. وتحقق هذه الأفكار فائدتها المذكورة عن طريق دفعها "لعملية" التحليل لتتجاوز نطاق ما هو موجود في ظاهر الأمر، ويؤدى هذا "الوضع الأخير" إلى إرغام العالم الاجتماعي على التفطن إلى أن من الضروري، في أغلب الأحيان، وجود تصور مفاهيمي جديد A new conceptualization لديه ليفسر الحقائق/ أو الوقائع Facts بمقتضاه. وهذا التصور المفاهيمي الجديد هو – بالتحديد – ما يسهل على الباحث اجتناب الوقوع في فخ النزعة الإمبيريقية أو فخ النظرية العامة "أي: التفكير المجرد".

عودة إلى استخدام النظرية في علم الاجتماع بالولايات المتحدة

سبق لعلماء الاجتماع في الولايات المتحدة أن اعترفوا، منذ وقت مبكر، بخطورة انتهاء وصول الباحثين إلى النوع الإمبيريقى من العلم الاجتماعي أو إلى النوع المجرد للعلم الاجتماعي. مثال ذلك، أن عالم الاجتماع سى. رايت ميلز C. Wright Mills قدم عرضاً واضحاً جداً لهذه المعضلة في كتاب كان سيسمى في مبدأ الأمر "التقييم النقدي للعلم الاجتماعي" "Autopsy of Social Science" إلا إننا نعرفه في وقتنا الحاضر باسم "الخيال السوسيولوجى" "The Sociological Imagination" (Mills 1959)

كانت محاولة ميلز لحل هذه المعضلة تتألف من خطوتين: هما: التخلي عن الخيال الفضفاض في المشروع السوسيولوجى "أي: في خطة عمل علم الاجتماع"، والعودة إلى الرؤية الكلاسيكية للعلم الاجتماعي كمحاولة لمعالجة القضايا الاجتماعية المهمة.

وفى ستينيات وسبعينيات القرن العشرين بذلت محاولة مختلفة جدا لحل هذه المعضلة من جانب عدد قليل من علماء الاجتماع الذين حاولوا تطوير مقاربة جديدة لفهم حقيقة النظرية، وهي المقاربة المعروفة باسم "بناء النظرية" "Theory Construction" (انظر على سبيل المثال: Zhao 1996, Willer 1996). كانت الفكرة الرئيسية عند هؤلاء العلماء أن ينظر الباحث إلى النظرية باعتبار أنها

منهجية بحث. فكما أنه يلزمك أن تكون نظامياً وواضحاً في أساليب جمعك للبيانات ومعالجتها، (وهي أمور تتصل بمناهج البحث) كذلك يلزمك أن تفسر هذه البيانات بأسلوب نظامي وواضح (وهذه أمور تتصل بالنظرية).

ويقال إن النظرية ليست شيئاً تعطاه، (أي: ليست موهبة عقلية فطرية) أو ليست مجرد فكرة، بل إنك "تبنى النظرية "أي: تنشؤها وتركبها تركيباً ". فالنظرية مكونة من عدة أجزاء يتعين تركيبها معاً والتوفيق بينها بأسلوب خاص. يترتب على النظر إلى النظرية بهذا الأسلوب نتيجة تتمثل في رفض الباحث لكل من النزعة الإمبيريقية والنظرية المجردة. ووفقاً لأنصار الرأي القائل بأن النظرية تصاغ عن طريق البناء والتركب، فإن العمل بهذه الطريقة يؤدى للوصول إلى العلم الاجتماعي العملي والصائب.

قدم بعض الباحثين والمفكرين عدداً قليلاً من المؤلفات الهامة التي تتناول تركيب النظرية أثناء تلك السنوات، وهي المؤلفات التي لاتزال دراستها مفيدة للمهتمين بالتنظير. ففي نطاق علم الاجتماع يوجد – على وجه الخصوص – كتاب "بناء النظريات الاجتماعية" (1968) "Constructing Social theories" للباحث آرثر ستينشكومب Arthur Stinchcombe وإذا وسعنا نطاق الرؤية وتجاوزنا نطاق علم الاجتماع، وجدنا الكتاب الذي ألفه الباحثان تشارلز ليف Charles lave وجيمس جى. مارش James G. March بعنوان "مقدمة للنماذج في العلوم الاجتماعية" "An Introduction to Models in the Social sciences (1975)".

انطلاقاً من المنظور الفكري لهذا الكتاب، فإن فكرة بناء النظرية تمثل – بالتأكيد – حركة/ أو خطوة في الاتجاه الصحيح، كما يوجد فيها – بشكل واضح – نوع من الألفة بين مقاربة التنظير الإبداعي ومقاربة بناء النظرية. فهاتان المقاربتان تؤكدان أن النظرية ليست شيئاً يأتي إليك من خلال الحدس والبديهة، ولا هي بشيء يجب قصره على عدد قليل من مشاهير المفكرين. بل هي شيء لابد من بنائه بعناية، كما تذهب المقاربتان المذكورتان إلى أن بإمكانك أن تتعلم مهارة بناء النظرية، وأن تعلم غيرك هذه المهارة أيضاً.

إلا إنه توجد أيضاً بعض نقاط الضعف في المنظور الخاص ببناء النظرية، وفى رأيي أن نقاط الضعف هذه تساعد في تفسير سبب استمرار بقاء هذا المنظور لما يقرب من عقد واحد فقط في مجال علم الاجتماع، وسبب النظر إليه بعد ذلك باعتباره منظوراً ليس فيه مجال للتقدم، ولا يرجى من ورائه نتائج إيجابية. (انظر على سبيل المثال، Hage 1994, Zhao 1996).

تتعلق واحدة من نقاط الضعف المذكورة بما هو معروف عن منظور بناء النظرية من تفضيل للتفكير المنطقي على حساب القدر الأعظم مما يشكل التفكير العادي. ويعنى هذا الوضع، ضمن ما يعنيه من أمور أخرى، أن الصلة التي تربط بناء النظرية باللاشعور لم تخطر على بال القائلين بهذا المنظور، وأن القدرة على الإبداع لا يمكن تعهدها بالرعاية في الواقع. من أسباب ذلك، أن من المحتمل أن الحركة "الفكرية" الداعية إلى بناء النظرية طورت مقاربتها بدون أي معلومات مستفادة من علم نفس الإدراك Cognitive Psychology.

كنتيجة لهذا السبب، ولغيره من بعض الأسباب الأخرى، والتي سنذكرها حالاً، يوجد جانب ميكانيكي (أي: عملي ومفيد) تتصف به مقاربة بناء النظرية. فأنت – في حقيقة الأمر – تعلم الطلبة أن يبنوا نظرية ما عن طريق تجميعهم لآراء وأفكار جاهزة، وهو نوع من التصرف يشبه قيامك بتجميع "عناصر" شيء ما من قطع الأثاث المفكوكة التي تشتريها من أحد منافذ سلسلة محلات آي. كيا IKEA (التي تبيع قطع الأثاث مفككة الأجزاء ومعها بيان بالطريقة السهلة لتجميعها معاً في صورة منتج متكامل، ككرسي، أو مائدة، أو نحو ذلك). صحيح أنك تحتاج لمهارة معينة لتقوم بهذا العمل، إلا إنها مهارة مختلفة تماماً عن نوع التنظير الذي أدعو إليه في هذا الكتاب.

من نقاط الضعف الأخرى في مقاربة بناء النظرية نقطة تتعلق بالأسلوب الذي اتبعته هذه المقاربة في تجاهل عنصر الرصد والملاحظة، الذي هو من عناصر عملية التنظير، وفى تركيزها معظم اهتمامها على مرحلة التحقق/الاختبار والتدقيق The stage of verification. من منطلق المنظور الفكري لهذا الكتاب، فإن نقص المادة الإمبيريقية الجديدة يجعل من العسير على الباحث أن يتجاوز نطاق المفاهيم المسبقة التي يتحدث عنها دوركايم.

عندما تبدأ عملية البحث التي ينفذها الباحث المشتغل ببناء النظرية، فإن أول وأهم مهمة له أن يقدم فرضيات جذابة من النمط الذي يمكن التحقق من صحته لاحقاً. أما المعرفة المتعلقة بالظاهرة التي تريد دراستها، فمن المفترض أنها موجودة لديك من قبل. ويتوقف مفتاح البحث الناجح على عدد الفرضيات الجذابة التي يمكن اختراعها، وعلى مدى جودة معالجة الباحث لها.

وفقاً لما ذهب إليه ستينشكومب Stinchcombe في كتابه بعنوان "بناء النظريات الاجتماعية"، فإن "الباحث الذي يتعذر عليه التفكير فيما لا يقل عن ثلاث فرضيات معقولة تفسر أي ارتباط (أي: تفسر أي علاقة متبادلة بين متغيرين، أو

أكثر) مما يهتم به اهتماما حقيقيا، قد يتعين عليه أن يختار مهنة أخرى" (Stinchcombe 1968: 13).

وفى اتجاه مشابه يحث الباحثان ليف Lave ومارش March من يقرأون كتابهما على أن يبتكروا / أو يخترعوا أكبر عدد يمكنهم اختراعه من الفرضيات التي تفسر الظاهرة التي يهتمون بدراستها، وأن يكتشفوا الطريقة التي يميزون بها بين هذه الفرضيات من خلال الاختبار الدقيق. بيد أن الباحثين ليف ومارش لا يخبران القارئ أن من الضروري أن يلاحظ أي أمر بمنتهى الدقة قبل أن يبدأ في تنظيره، وأن من المتعين عليه أن يعرف قدراً كبيراً من المعلومات المتعلقة بأي ظاهرة حتى يمكنه تطوير نظرية عنها. ويخرج قارئ كتاب هذين الباحثين بانطباع مفاده أن الأمر الذي له أهمية جوهرية هو تطوير شكل من أشكال سرعة التفكير والذكاء، مع اختراع تفسير ما للظاهرة المدروسة، وليس تأسيس هذا التفسير على قاعدة من المعرفة النافذة بأعماق الظاهرة التي يود الباحث دراستها.

أكرر القول بأن كلاً من الباحثين ستينشكومب، وليف، ومارش يتجاهلون عنصر الملاحظة المبكرة والعميقة في عملية التنظير، وهذا معناه أنهم لا يعترضون على ما يسميه دوركايم "المفاهيم المسبقة" "Preconceptions". أما روبرت ك. ميرتون Robert K. Merton، وعلى النقيض من هؤلاء الباحثين الثلاثة، كان مدركا تماماً أن الملاحظة قد نحيت جانباً عندما أصبح التحقيق verification "أي: اختبار صدق الفرضيات" قضية كبرى في مجال العلم الاجتماعي على امتداد عقود قليلة من القرن العشرين. فإنك عندما "تغالى في أهمية الجانب الإبداعي للنظرية الصريحة"، كما ورد في نص مقالة كتبها ميرتون منذ سنة ١٩٤٨، فإنك تنتهي إلى التهوين من شأن "الدور الإبداعي للملاحظة" (Merton 1948: 506).

حاج ميرتون بأنه، من الناحية الظاهرية للأمور، سيبدو أن التأكيد عل أهمية اختبار الفرضيات هو– في الواقع – الأسلوب الصحيح للتصرف ومواصلة العمل البحثي، ويقول في هذا المعنى:

"مع وجود عدد قليل من الاستثناءات الواضحة، فإن المناقشات السوسيولوجية لم تحدد للبحث الإمبيريقى إلا وظيفة رئيسية واحدة، ألا وهي: "اختبار" الفرضيات أو "التحقق من صحتها" والنموذج الخاص بالأسلوب الملائم لأداء هذه الوظيفة نموذج مألوف بقدر ما أنه نموذج واضح. فالباحث/ أو المحقق The investigator يبدأ عمله بحس باطني أو بفرضية ما، حيث يستمد منها استنتاجات متنوعة، ثم

يخضع هذه الاستنتاجات، بدورها، للاختبار الإمبيريقى الذي إما يؤكد صحة هذه الفرضية وإما يفندها" (Merton 1945: 505-6).

إلا إنه توجد مشكلات كثيرة تصعب التصرف وفقاً لهذا "النموذج المنطقي" "Logical model"، وهذا ما لاحظه ميرتون كذلك، ثم إن هذه المشكلات تجعل من العسير تقديم بحث مميز، وهو يقول في هذا المعنى:

"إلا إن هذا النموذج نموذج منطقي، وهو لهذا السبب يخفق، بطبيعة الأمر، في تقديم وصف تفصيلي لقدر كبير من الأمور التي تجرى في الاستقصاء العلمي المثمر. إذ يقدم هذا النموذج مجموعة من المعايير المنطقية، وليس وصفا تفصيلياً للخبرة البحثية. ثم إن هذا النموذج المنطقي قد يترتب عليه أمر يدركه علماء المنطق تماماً، وهو أنه في أثناء قيامه بتنقية هذه الخبرة قد يشوهها أيضاً. فهو يشبه سائر النماذج الأخرى في أنه يستخلص أحكاما تجريدية من التتابع الزمنى للأحداث. وهو يضخم من شأن الدور الإبداعي للنظرية الصريحة في نفس اللحظة التي يقلص فيها من شأن الدور الإبداعي للملاحظة... **إن فكرتي المحورية تدور حول المعنى الذي يقول إن البحث الإمبيريقى يتجاوز لمسافة بعيدة – نطاق الدور السلبي لاختبار النظرية والتحقق من صحتها: فهو يقوم بعمل أكثر من "مجرد" تأكيد صحة الفرضيات أو تفنيدها.** فالبحث يؤدى دوراً فعالاً: إذ إنه يؤدى – على الأقل – أربع وظائف رئيسية تساعد على تشكيل تطور النظرية. فهو يطلق النظرية Initiates "أي يقدمها للمرة الأولى"، ويعيد صياغتها Reformulates ويحرفها عن مسارها Deflects وينقيها/ أو ينقحها clarifies (Merton 1948: 506)، علماً بأن علامات التأكيد الواردة هنا هي إضافة من عندي).

كان تشخيص ميرتون محقاً تماماً عندما قال إن عنصر التحقيق – أي اختبار الفرضيات في مواجهة البيانات – قد أصبح القضية المحورية عند كثير من العلماء الاجتماعيين بعد الحرب العالمية الثانية. إلا إنه بدلاً من أن يستمد الاستنتاجات المترتبة على رؤيته التي توجب على البحث العلمي الاجتماعي أن يبدأ بالملاحظة، تردد في موقفه وصاغ حجته في ضوء التناقض القائم بين الطريقة التي يفترض أن ينفذ بها البحث، من جهة، والطريقة التي ينفذ بها في الواقع، من جهة أخرى. وقد أدى هذا التردد إلى أن جعل من العسير على هذا الباحث أن يصوغ مقاربة ناجحة في مجال التنظير.

إن الفكرة الأساسية التي لم يتناولها ميرتون تقول إن الملاحظة تشكل المرحلة الأولى للتنظير "The First stage of theorizing"، كما إن الملاحظة تمثل جزءاً

عضوياً من التنظير. كما كان ينبغي على ميرتون أن يدرج في كلامه ما يفيد أن الغرض الرئيسي للملاحظة في هذه المرحلة غرض "استدلالي" أساساً – أعنى بذلك أن غرض الملاحظة، هنا، هو مساعدة العالم الاجتماعي على تكوين فهم أفضل لما عليه حال ظاهرة ما.

من المهم التأكيد على أن فكرة الملاحظة/ أو مفهوم الملاحظة يجب أن تفهم بمعنى واسع جداً في هذه المرحلة من البحث. إذ يوجد الكثير من الأساليب المختلفة في رصد الملاحظات، ليس فقط في العلوم الاجتماعية بل في المجتمع بوجه عام. وذلك إلى الحد الذي يجعل بمقدور أي واحد من هذه الأساليب أن يعزز "عملية" استشكاف وفهم ظاهرة ما يجب على تلك الأساليب أن تستفيد منها.

الهدف الرئيسي للملاحظة في هذه المرحلة من البحث هو الحصول على أكبر قدر يمكن الحصول عليه من المعلومات، والمعلومات المتعددة الوجوه Multifaceted Information بشأن ظاهرة ما حتى تستطيع الحصول على زاوية جديدة للنظر إليها منها. في المرحلة التالية، حين يتقرر اختبار أفكارك بأسلوب نظامي Systematic ومنهجي Methodic "أي: خاضع لمناهج البحث العلمي"، يكفيك أن تتعامل مع تشكيلة الحقائق الأضيق نطاقاً، مما يمكن تسميتها" الحقائق المستخلصة من اختبار الفرضيات" "hypothesis- testing' Facts" .(Stinchcombe 1978: 5)

بيد إنه في بداية البحث يجب استمداد هذه المعلومات من تشكيلة واسعة النطاق جدا من المصادر العلمية. فهي قد تأتى من المقابلات Interviews، والأرشيفات "وتشمل السجلات والملفات والوثائق"، والصحف، والباركودات Bar Codes (أي: المعلومات المستفادة من مشتريات المبحوثين)، والمسجلة بنظام الباركود في قواعد بيانات المولات ومنافذ بيع المنتجات الاستهلاكية"، والسير الذاتية التي كتبها أصحابها عن حياتهم، ومواقع البيانات، والأحلام "التي رآها المبحوثون في نومهم"، والأفلام السينمائية، والقصائد، والموسيقى – أي إنها تأتى إلى حد كبير جداً من أي مصدر لديه ما يقوله عن الظاهرة التي أنت مهتم بها.

وأكرر القول بأنه ليس من الضروري أبداً وجوب جمع هذه المعلومات بأسلوب معتمد – وأعنى بذلك المعلومات المجموعة باستخدام أفضل مناهج البحث المتاحة. وهذه الملاحظة تنطبق على مناهج البحث الكمية كما تنطبق على مناهج البحث الكيفية.

إن تكن القاعدة رقم واحد لهذه المرحلة من الملاحظة تقول إن الأمور ليست

هي ما تبدوا عليه في الظاهر، فإن القاعدة رقم اثنان تقول إنك تستطيع استعمال أي بيانات أو معلومات من شأنها أن تساعدك على تجاوز ما عندك من أفكار وتصورات مسبقة. فكل شيء هنا مقبول! Anything goes!.

أما اكتساب المعلومات في هذه المرحلة المبكرة فيمثل مرحلة متميزة ومستقلة نسبياً في عملية التنظير. وسوف يأخذ حصولك على البيانات التي تحتاج إليها وقته. ومن المهم ألا تكون عجولاً لا تحتمل الصبر والأناة. كما يفيدك أيضاً **ألا** تبدأ عملية تحليل هذه المادة حتى تكون قد تعلمت قدرا كبيراً من المعارف والحقائق المتعلقة بالظاهرة التي أنت معنى بها.

في بداية العملية البحثية تتعرض لإغراء واضح تدعوك فيه نفسك إلى واحد من أمرين: إما أن تعتمد على الأفكار التي لديك من قبل، وإما أن تبدأ تحليل أي شيء تقوم بدراسته بأسرع ما يكون بعد أن تكون قد بدأت ملاحظة الأمور. ويفضي كلا هذين الأمرين إلى وقوع أخطاء ما. كما أن من المفيد في هذه المرحلة من العلم الاجتماعي، العمل بالقول المأثور عن الفيلسوف فيتجنشتاين Wittgenstein في كيفية التفلسف "أي: التنظير". حيث قال: "**لا تفكر ولكن انظر!**" "Don't think but look!" (Witgenstein 1953: 660). علماً بأنني أضفت من عندي علامات التأكيد، وهي الكلمات المكتوبة بحروف مائلة.

اختيار موضوع للملاحظة

المهمة الأولى حينما تريد إجراء البحث أن تختار موضوعاً ما. وتوفر الكتابات السابقة للعلم الاجتماعي أفكاراً عديدة تتعلق بكيفية اختيار الموضوع. مثال ذلك أن بإمكانك أن تختار شيئاً جذاباً، أو شيئاً يمثل مشكلة ما، وما أشبه ذلك. ونظراً لأنك لا تستطيع أن تقدم عملاً جيداً وتصوغ تساؤلاً جيداً للبحث إلا إن أحسنت اختيار الموضوع، فإن مسألة تحديد ما هو الموضوع الذي تركز عليه مسالة مهمة للغاية.

وفقاً لما يذهب إليه بعض كبار الباحثين، يتعين عليك أن تختار موضوعاً يكون **جذاباً** ويستثير حب الاستطلاع عندك. فإن هذا الصنيع يخلق فيك إدراكاً حدسياً، مثل الإدراك الحدسي الذي يخلقه فيك الاقتناع بالفكرة التي تقول: أن الصفة الأساسية للبحث الذي يحظى بتقديرنا هي أن يكون بحثاً نشعر بانجذابنا إليه/ أو بحثاً يثير اهتمامنا به.

جاء في مقالة كتبها الباحث موراى دافيز Murray Davis عنوانها "يا له من شيء جذاب!" "!That's Interesting" ما يؤكد أن ما يجعلنا نرى أن بعض الدراسات دراسات عظيمة/ أو رائعة هو أنها تستلفت أنظارنا باعتبارها دراسات جذابة/ أو مثيرة للاهتمام (Davis 1971). كما يقدم المؤلف نظرية تفسر سبب اعتبار بعض الأفكار أفكاراً جذابة، وسبب اعتبار الأفكار الأخرى غير جذابة.

يرى دافيز أن السبب في اعتبار أمرٍ ما أمراً جذاباً/ أو مثيراً للاهتمام أنه يتعارض مع ما نتوقع العثور عليه. ويقول في هذا المعنى. "جميع **النظريات** الجذابة، أو على الأقل: جميع النظريات الاجتماعية **الجذابة**، تمثل هجوما على ما يعيشه قراء هذه النظريات من حياة يأخذونها مأخذ التسليم ... فإن لم تتعارض "النظرية الجذابة" مع المعتقدات التي يسلم بها هؤلاء القراء، ولكنها تؤكد صحة واحدة فقط من هذه المعتقدات، فسوف يكون رد فعل القراء على ذلك أن يرفضوا الاعتراف بقيمة تلك النظرية في نفس الوقت الذي يقرون فيه بصحتها (Davis 1971: 311).

تحاول بعض النظريات الأخرى، خلافاً لنظرية دافيز، أن تفسر السبب الذي يجعل شيئاً ما يستلفت انتباهنا باعتباره شيئاً جذاباً/ أو مثيراً للاهتمام. وفقاً لما تذهب إليه إحدى هذه النظريات، فإن السبب الذي يجعلنا ننظر إلى شيء ما باعتباره جذاباً هو أنه يشبع حاسة / أو ملكة الاستطلاع لدينا. وهذه الحاسة، بدورها، ينظر إليها في أحيان كثيرة باعتبار أنها دافع غريزي، كدافع الجوع أو العطش مثلاً. ففي نفس الوقت الذي نستخدم فيه الطعام والشراب لإشباع هذين الدافعين، نشبع حاسة حب الاستطلاع لدينا عن طريق التماس المعرفة (انظر مثال ذلك Loewenstein 1994; Kang et al. 2009)

تذهب نظرية أخرى تتعلق بتحديد الموضوع الذي يتعين عليك اختياره، إلى أن على الباحث أن يعمل على **مشكلة ما**. وهذه الرؤية للأمور شائعة تماماً بين الباحثين، كما نادى بها كثير منهم، كتوماس كون Thomas Kuhn وهربرت سيمون Herbert Simon، مثلاً.

إن تسمية شيء ما مشكلة (أو أحجية a puzzle) يعنى أنه في الوقت الذي يستعصي فيه هذا الشيء على الحل المباشر له، فإن بالإمكان رغم ذلك رؤية حل له. من الأمور الهامة هنا درجة الجودة التي قد يكون بالإمكان الوصول إليها في حل مشكلة ما. ووفقاً لما يقوله تشومسكى Chomsky:

قد نميز "المشكلات" عن "الخفايا/ أو الأسرار الغامضة" "Mysteries"، فالأولى مسائل نبدوا أننا قادرون على صياغتها بأساليب تتيح لنا أن نباشر عملنا معها

باستخدام التحقيق العلمي الجاد، كما قد نكون قادرين على اكتساب درجة ما من درجات الفهم لحقيقتها، بينما تشتمل الثانية/ أو الأخيرة "وهي الخفايا / أو الأسرار الغامضة" على مسائل تبدو مستعصية على قدرتنا على الفهم والإدراك، وقد يرجع سبب ذلك إلى أننا نفتقد المؤهلات العقلية اللازمة للتعامل معها، كما هو حال الفأر مع متاهة الأعداد الأولية. (Chomsky 1991: 41).

إن ما يمثل مشكلة في نظر عالم ما يتم تعريفه من خلال العلم القياسي Normal Science، وفقاً لما ذهب إليه توماس كون (١٩٧٠). فعندما تتبع النموذج الفكري الراهن "الشائع بين العلماء والمفكرين في فترة زمنية ما"، سوف تنظر إلى موضوعات معينة باعتبار أنها مشكلات يتعين حلها. ومن شأن هذه الموضوعات أن يستفيض العلماء في بحثها واستقصائها بشغف وحمية. وبصورة مشابهة لما ذهب إليه كون، يصوغ هربرت سيمون فكرة عن "العالم كحلال للمشكلات"، مستشهداً فيها بالعنوان الذي عنون به إحدى مؤلفاته (Simon 1991b) أحياناً ما يضيف الباحثون الذين ينادون بوجوب اختيار العلماء للمشكلات التي يقررون دراستها، أنه قبل أن يكون بالإمكان حل مشكلة ما يتعين صياغتها بأسلوب خاص. يقول أحد هؤلاء الباحثين هنا: "إنه لقول مأثور معروف وبليغ: أن المشكلة المصوغة صياغة جيدة مشكلة تم حل نصفها" (Dewey 1938: 108).

يمكن أن يضاف إلى هذا القول المأثور أنه قبل أن تبدأ عملك مع مشكلة ما، يجب عليك أن تعثر على مشكلة ما. إذ يلاحظ أحياناً أن العثور على مشكلة ما لا يقتصر أمره على أنه يسبق مرحلة حل المشكلة فحسب، بل يعتبر – أيضاً – عملاً اشق بدرجة كبيرة. وفى هذا المعنى يقول ميرتون: "يتم إيجاز خبرة العلماء واختصارها تماماً في القول المأثور الذي مفاده أنه كثيراً ما يكون العثور على مشكلة ما وصياغتها أصعب كثيراً من حلها" (Merton 1959: ix).

توجد، أخيراً، رؤية ثالثة بشأن الطريقة التي ينبغي على العلماء اتباعها في اختيار الموضوع الذي يدرسونه. فوفقاً لما ذهب إليه تشارلز بيرس، مثلاً، يبدأ العالِم بملاحظة الأمور إلا إنه في لحظة ما **تصيبه الدهشة** من شيء ما يعثر عليه. وسبب هذه الدهشة راجع إلى أن هذا الأمر يتعارض مع ما يتوقع العالم أن يعثر عليه، مع الأخذ في الاعتبار حالة المعرفة في تخصصه العلمي (انظر أيضاً على سبيل المثال: (Dunbat and Klahr 2012: 706-7; Loribrozo 2012: 266).

من وجهة نظري، توجد حجج قوية تعزز إتباع كل واحد من هذه النماذج الثلاثة المتعلقة بالطريقة التي تتبعها في تقـــرير ما تدرسه وتنظر له: وهو أن يكـــون شـــيئاً

جذاباً، ومشكلة، وشيئاً يصيبك بالدهشة. كما يوجد أيضا شكل من أشكـــال التطـــابق الجزئي/ أو التداخل الجزئي overlap بين هذه الأشياء. مثال ذلك أن الشيء الجــذاب والشيء المدهــش هما نتيجة العثور على شيء آخر غير ما كان متوقعاً. كمـــا إنـــه حينما يصيبك شيء ما بالدهشة، تكون قد عثرت على مشكلة تحلها.

نظراً لأن وجهة النظر التي توجب عليك دراسة الشيء الذي يصيبك بالدهشة أو يفاجئك "بما لا تتوقعه" هي أقل المقاربات الثلاثة المذكورة شهرة بين الباحثين، فسوف أتناولها بشيء من التفصيل والتعمق في الدراسة. مثال ذلك، أنك عندما تبدأ عملك من منطلق وجهة نظر بيرس، وتحاول أن تترجمه في صورة إرشادات عملية أو قواعد ترتكز عليها طريقتك في مباشرة عملك، فسوف تتحصل على شيء يشبه ما يلي ذكره.

فأنت تبدأ البحث بملاحظة موضوع يشغل بالك/ أو يثير اهتمامك. ومع أن البحث عن الحقائق في هذه المرحلة يكون بحثا عاماً إلى حد بعيد، إلا إنه يجب – بالرغم من ذلك – أن يكون بحثا عميقاً لأن الهدف منه أن تتجاوز نطاق الحالة الراهنة للمعرفة. في لحظة تالية أثناء قيامك بالبحث ستجد شيئاً يثير دهشتك، أي شيئاً لا يتوافق مع الحالة الراهنة للمعرفة. هذا الشيء **هو الذي** يجب دراسته.

تتألف عملية الملاحظة، من منطلق المنظور الفكري لبيبرس، من مرحلتين: أولاهما مرحلة عامة ولكنها ثاقبة، وثانيتهما مرحلة تركز فيها على ما هو مدهش وأشد عمقاً. وبعبارة أخرى أقول: من المهم ألا تنتقي موضوعك النهائي إلا بعد أن تكون قد عثرت على أمر يدهشك. فإن اتبعت هذه القاعدة، فسوف تدرس أمراً قد يفضي إلى معرفة جديدة.

إلا أن مباشرة العمل بهذا الأسلوب يعنى أيضاً أنك مضطر، كما هو معهود ومتوقع، لأن تتخلى – إلى حد بعيد – عن العمل الذي سبق لك أن أنجزته قبل وصولك للحظة الدهشة. قد يكون من العسير تماماً أن تتخلى عن هذا العمل، إلا إنه أمر ضروري ستكون بعده حراً في التركيز حصرياً على ما تسبب في دهشتك. وقد أخبرني زميل لي، وهو يحدثني في هذا الأمر، فقال: "إنه شأن يشبه شعورك بأن قدميك وساقيك قطعوا وطرحوا بعيداً". إلا إنه أمر يتعين القيام به، لأن الموضوع الثاني/ أو الجديد هو الموضوع الذي سيأتي بمعظم ثمرات المعرفة "المرجوة".

العثور على موضوع جيد شيء هام، إلا إنه لا يكفي وحده. فأنت بحاجة أيضاً إلى الحقائق لتدرس هذا الموضوع – وهذه الحاجة تمثل مشكلة أخرى. وإذا استخدمنا تعبيرات الباحث روبرت ك. ميرتون، فإن ما يلزمك عمله حينئذ هو أن

تحدد مواقع وجود بعض المواد البحثية الاستراتيجية Strategic Research Material (واختصاراً SRM). وفى هذه الجزئية يقول ميرتون: "يقصد بالمواد البحثية الاستراتيجية المواد العلمية الإمبيريقية التي تقدم للظواهر المقرر تعليلها أو تفسيرها وصفاً كاشفاً يحقق لها ذلك القدر من الفائدة العملية، ويصوغها في تلك الصورة التي يسهل على الدراسين الوصول إليها، بحيث يؤدى هذا الوصف إلى إعلاء شأن ما بذل في دراستها من بحث استقصائي مثمر للمشكلات التي كانت قبل ذلك مستعصية على الفهم، وإعلاء شأن اكتشاف ما يجدُّ من مشكلات تحتاج إلى مزيد من التحقيق العلمي" (Merton 1987: 10-11).

تتشابه عملية الملاحظة ذات المرحلتين، والتي دعا إليها بيرس، مع الرأي الذي حاج عنه دوركايم بشأن الأفكار المسبقة/ أو المفاهيم والتصورات المسبقة. فأنت، في كلتي الحالتين، تبدأ عملك برؤية واحدة للأمور ويتعين عليك أن تنتظر، قبل القيام بعمل التحليل، إلى أن تشعر بأنك قد وصلت إلى مستوى أعمق (وفقاً لدوركايم) أو عثرت على موضوع جديد (وفقاً لبيرس).

موجز القول إن بالإمكان أن يتسبب في إجراء الباحث لبحثه ثلاثة أمور هي: أن يواجه الباحث مشكلة ما، أو أمراً يثير اهتمامه، أو أمرا يثير دهشته. أيا ما يكون الحال، وبصرف النظر عن الأمر الذي يتسبب في إجراء الباحث لبحثه، من المهم التأكيد على ثلاث مسائل. أولاها أن المرحلة الأولى/ أو المبدئية initial phase للملاحظة يجب تنفيذها بأسلوب يتيح للباحث الحرية البالغة في تحديد نطاق دراسته، وترتيب خطواته وإجراءاته، وتنسيق بياناته ومعلوماته. وثانية هذه المسائل أن التنظير يجب تأجيله لفترة ما. وثالثة المسائل أنه ليس من اللازم أن يكون الموضوع الذي قررت دراسته هو نفس الموضوع الذي بدأت، في أول الأمر، في تحليله، بل يكون هو الموضوع الذي يخطر على بالك/ أو يستلفت انتباهك، بعد مرور فترة من بداية البحث، فتعتبره الموضوع الذي يرجى من مواصلة العمل فيه أن تحقق الأمل المرجو منه "وهو الوصول إلى معارف جديدة مثلاً".

الوصف والملاحظة

مع أن الوصف Description والملاحظة Observation ليسا مفهومين مترادفين على الإطلاق، فإن الوصف يحتل مكانة هامة في مجال الملاحظة، كما يحتل لهذا السبب مكانة هامة في عملية التنظير. فالوصف مفيد جداً في هذه المرحلة، إذ يتيح لك أن تجمع الحقائق بدون أن تربطها ربطاً مباشراً بنظرية ما.

في كثير من العلوم الاجتماعية ينظر إلى الوصف باعتبار أنه أدنى رتبة من التفكير التحليلي، وأنه – على وجه العموم– شأن/ أو نشاط غير علمي وغير مرغوب فيه (انظر مثال ذلك Abbott 2001: 121-22). وينظر علماء الاقتصاد – بالذات – إلى الوصف نظرة دونية/ أو سلبية، وهو موضوع يعالجه الباحث أمارتيا سن Amartya Sen في مقالته بعنوان: "الوصف كاختيار" "Description as Choice" (Sen 1980)، ويرى سن Sen أن الوصف نشاط هام فضلاً عن أنه نشاط عسير التنفيذ. والسبب الرئيسي لذلك هو أن الوصف يشتمل – ضمنا– على اختيار ما هي التفاصيل التي يركز عليها الباحث وما هي التفاصيل التي يدعها جانباً.

ويقول سن Sen أن الغالب على الاتجاه المعهود لعلماء الاقتصاد إزاء الوصف أنه يفضي إلى "تشويش طبيعة الوصف باعتباره نشاطاً، وإلى ما لا لزوم له من إضعاف الركيزة الفكرية التي يقوم عليها الكثير من الأنشطة المشروعة والمفيدة في العلوم الاجتماعية" (Sen 1980: 368).

من بين الفلاسفة، ربما يكون فيتجنشتاين Wittgenstein هو الفيلسوف الذي كان أكثر الفلاسفة اهتماماً بالوصف (انظر على سبيل المثال: Gert 1997). فهو يقول إن ما يجب عليك فهمه بادئ ذي بدء أنه توجد أساليب مختلفة كثيرة لعمل وصف ما. فالتوصيفات "أي التقارير والكتابات الوصفية" أدوات لها استخدامات محددة"، كما أنه يوجد فارق بين وصفك، مثلاً، لتفاصيل حجرتك ووصفك لحالتك العقلية (Wittgenstein 1953: 290-91).

إن أنواع التوصيفات التي كان فيتجنشتاين نفسه مهتما بها كانت التوصيفات المتعلقة بالكلمات وكيف يستخدمها الأفراد، وفي أي المواقف، وبأي المقاصد والنتائج. وكان هذا الفيلسوف يعتقد أنه إذا توافرت الحساسية الفائقة لهذه القضايا (عند المفكرين)، فإن بالإمكان أن يحل عدد من المشكلات المفاهيمية الصعبة في الفلسفة.

مع أن اهتمام العالم الاجتماعي يختلف عن اهتمام فيتجنشتاين، فإن بإمكان المرء – رغم ذلك – أن يحذو حذوه ويبذل جهداً خاصاً في الملاحظة البالغة الدقة للأسلوب الذي به يستخدم الأفراد اللغة ولما يحاولون إنجازه بعملهم هذا. ذلك أن مباشرتك لعملك البحثي بهذا الأسلوب يتيح لك أن تتعمق في فهم أشد جوانب الحياة الاجتماعية إثارة للاهتمام وأكثرها تعقيداً.

إن وصف الأساليب التي بها تستخدم الكلمات لهو أمر جوهري لابد منه للوصول إلى فهم لدور المعنى في الحياة الاجتماعية. كما أن هذا الوصف سيصرف

انتباهك بعيداً عما هو مرئي فقط، وفي المصطلحات الفنية لعلم الأنثروبولوجيا، يفضي هذا الوصف إلى نوعين من الوصف أولهما "الوصف المكثف" (ذو التفاصيل الغزيرة) "Thick description"، والذي يقف في مواجهة النوع الثاني وهو "الوصف ذو التفاصيل القليلة "Thin description" (Geertz 2000).

حاج المفكرون الكانطيون الجدد بأن الواقع يتألف من مقدار لا نهائي من التفاصيل، وإلى أنه يتعين عليك أن تقوم باختيار واع في هذا الشأن إن أردت أن تكون قادراً على أن تقول أي شيء على الإطلاق. وقد كان هذا الموقف الفكري، أيضاً، هو موقف ماكس فيبر Max Weber، والذي يشير في كتاباته عن مناهج البحث إلى أنه "محال من حيث المبدأ" أن تُوصِّف كل ما يحدث من الوقائع والأمور (أنظر على سبيل المثال Weber 1975: 173).

هذا الموقف الفكري معترف به في وقتنا الحالي إلى حد بعيد. فلكي تخطو بعملية التنظير خطوة للأمام، أيا ما كانت الأحوال، فقد يكون احتواء التفاصيل على رسالة مختلفة نوعاً ما أمر أهم من غيره لتخطو بالتنظير هذه الخطوة المتقدمة. معنى هذا الكلام أنه كلما زادت التفاصيل التي تتحصل عليها، كلما تحسن وضعك البحثي الذي أنت فيه، خاصة حينما تريد أن تُنَظِّر بأسلوب إبداعي. ففي داخل التفاصيل – وحدها– ستعثر على البذور الأولى التي تنشأ منها النظرية الجديدة.

من المهم أيضاً أن تدرك أن الدافع النفسي الذي يجعلك تُنحِّي التفاصيل جانباً وتبدأ في التعميم يمثل إغراءاً يتوجب عليك مقاومته في مرحلة الملاحظة. فالمادة العلمية الغزيرة التفاصيل تكون مفيدة جداً لك حينما تحاول التنظير، والسبب في ذلك، مجدداً، أن هذه المادة العلمية تكون – بطبيعة الحال – غير مُنظَّرة. ومن بين التفاصيل توجد تفاصيل لها أهمية خاصة تسمى "التفاصيل الكاشفة" "Telling Details". "فالتفصيلة الكاشفة" هي التفصيلة التي تسهل فهم ظاهرة ما. (انظر على سبيل المثال Pinch and Swedberg 2012)

العمل الميداني والملاحظة

شأنه شأن الوصف، يتسم العمل الميداني بسمات تجعله مفيداً في الملاحظة أثناء الدراسة المسبقة. وقد كان الباحث إفرت سى. هيوز Everett C. Hughes، والذي ساعد على تقديم فكرة العمل الميداني لأول مرة في علم الاجتماع الحديث، كان على وعى تام بفوائد العمل الميداني في هذا الصدد. وقد شرح هذه الفوائد فيما يمكن اعتباره بيانه الرسمي عن طريقة إجراء البحث الاجتماعي، وهو المقال

المعنون "مكانة العمل الميداني في العلم الاجتماعي" "The Place of Field Work in Social Science" (Hughes 1984a).

وفقاً لما ورد بهذا المقال، يوجد – على وجه الخصوص – سمة للعمل الميداني تجعله مهما في هذا الشأن، وتجعله كذلك مفيداً جداً للأغراض الاستدلالية وتتمثل هذه السمة في أنه يتيح لك أن "ترى بنفسك" (Hughes 1984a: 497).

يبدو أن الفكرة التي توجب على الباحث أن يكون في موقع يمكنه من اختبار الأمور والتحقق منها بنفسه، يبدو أن هذه الفكرة واضحة بما فيه الكفاية، كما تبدو أمراً من شأن أي عالم اجتماعي أن يرغب في العمل به. وأيا ما تكون الأحوال، فإنه حينما ينظر المرء إلى تاريخ العلوم الاجتماعية، يجد أن فكرة العمل الميداني استغرقت زمناً طويلاً قبل أن يعترف بها في أوساط العلماء والباحثين. وقد كان علماء الأنثروبولوجيا هم أول العلماء الاجتماعيين الذين مارسوا العمل الميداني، كما أن علماء الاقتصاد في وقتنا الحالي "منهمكون في عملية اكتشاف معالمه.

في مجال علم الاجتماع، لم يحدث أبداً أن قام بعض المفكرين، مثل فيبر، وزيمل، ودوركايم، بإجراء أي عمل ميداني، كما أنهم لم يقوموا بإجراء مقابلات Interviews بأنفسهم. وذلك لأن التصور الحديث للمقابلة an interview – وهو إجراء من خلاله يتم تسجيل كل من الأسئلة والأجوبة بدقة وعناية– لم يكن قد حقق إنجازه الباهر في علم الاجتماع إلا بعد الحرب العالمية الأولى (Platt 2002).

أدخل العلم الميداني في علم الاجتماع في نفس ذلك الوقت تقريباً، وكان معظم الفضل في ذلك راجعاً لعلماء الاجتماع في الولايات المتحدة، ابتداءً من دبليو. أي. بى دي بواس W.E.B du Bois، ثم يعزى الفضل، بعد ذلك بفترة قصيرة، على المستوى الجمعي (الذي أضفي القوة والحجية على هذا الإنجاز الباهر) إلى أعضاء مدرسة شيكاغو. ووفقاً لما يذهب إليه الباحث الكبير روبرت بارك Robert Park، وهو رائد هذه المدرسة والمعلم الذي درس للباحث إفرت سى هيوز، فإن مما لا غنى للعلماء الاجتماعيين عنه أن ينخرطوا في الملاحظة المباشرة (التي تتعامل مع المصدر الأصلي لموضوع البحث، وليس مع ما يكتب عن هذا الموضوع من تقارير ودراسات).

ويتضح المعنى المراد من تعبير "الملاحظة المباشرة" من النص المقتبس التالي، وهو نص مشهور يوجز رسالة بارك، حيث يقول:

"انطلقوا أيها السادة الكرام، واجلسوا في قاعات الانتظار الموجودة في الفنادق الفاخرة المترفة، ثم اجلسوا على سلالم أبواب النزل الرخيصة المتهالكة البنيان،

واجلسوا على الأرائك الوثيرة في "استراحات" مدينة جولد كوست Gold coast ثم اجلسوا على طراحات الفقراء (أي: الحشايا المملوءة بالقش، والتي ينام عليها الفقراء) في الحياء الفقيرة، واجلسوا في "قاعة الأركسترا" "Orchiestra Hall"، ثم اجلسوا في مقاعد مسرح "ستار آند جارتر برلسك" "Star and Garter Burlesk" "الذي يقدم فقرات فكاهية ساخرة". موجز القول، انطلوقا أيها السادة الكرام واتخذوا مقاعدكم التي تجلسون عليها بسراويلكم المتربة وخوضوا في غمار البحث العلمي الواقعي" (Park in Bulmer 1984: 97).

يشير هيوز إلى أن من يقومون بأعمال الرصد والملاحظة لا يقتصرون على علماء الاجتماع وحدهم، بل يقوم بهذه الأعمال أيضاً المراسلون الصحفيون، وبإمكان علماء الاجتماع أن يتعلموا الكثير منهم (Hughes 1984a). وهو لا يذكر الممثلين الكوميديين ومؤلفي الروايات الطويلة والقصائد الشعرية، إلا إنهم يقومون أيضاً بتقديم ملاحظات ذكية لماحة. ولإعادة صياغة ما كتبه فيتجنشتاين في هذا الشأن أقول: توجد أساليب كثيرة للقيام بأعمال الرصد والملاحظة، ثم إن هذه الأساليب يجب إخضاعها للرصد والملاحظة.يقول هيوز ما مفاده: أنك حين تقوم بعمل من أعمال الملاحظة، فإن من المهم أن "تقصي نفسك بعيداً"، مما يعنى – تقريباً – أنه يجب عليك أن تضع نفسك في مواجهة الأفراد بأسلوب يجعل بإمكانك أن تقوم بملاحظات موضوعية، وذلك على العكس من مشاركتك لهم في حياتهم ونظرك إلى الأمور من منطلق رؤاهم وافكارهم.

كجزء من هذه العملية، يتعين أيضاً على الباحث الذي يقوم بالملاحظة أن يحول المعلومات التي أختارها إلى معرفة موضوعية عن الجماعات والمؤسسات. ويحدث هذا لتحويل حينما تصبح الملاحظة – بالفعل – ما يشير إليه هيوز باعتبار أنه "ملاحظة اجتماعية" (انظر على سبيل المثال Hughes 1984b: 317, 499; CF. Mills 1959:70).

في مناقشته لموضوع العمل الميداني يستخدم هيوز، أيضاً، تعبير observation 'on the hoof' – والذي يعنى الملاحظة التي لا يقدر على الانخراط فيها إلا العالم الاجتماعي الماهر. ويقول هيوز في هذا المعنى ما مفاده أنك حينما تقوم بأعمال الملاحظة بمهارة واحتراف فإنك ترى الأشياء في ضوء الأنماط الاجتماعية أو المؤسسات الاجتماعية. (Hughes 1984a: 504-5).

وفقاً للتعريف الذي يقدمه القاموس، فإن للتعبير المذكور – كذلك – معنى ثانيا، وهو معنى له إيحاءاته في هذا السياق، كما أنه كان – بلا شك – يروق

لهيوز – فهذا التعبير يعنى، هنا، أداءك لعمل ما في نفس الوقت الذي تؤدى فيه عملاً آخر.

غالباً ما يتبع الملاحظة، كنتيجة حتمية لها، ذلك النوع المزدوج من السلوك: حيث يبدو الباحث الملاحظ في صورة من يؤدى عملاً واحداً، في نفس الوقت الذي يكون فيه مشغولاً – في الواقع – بعملية الملاحظة. ويتسم السلوك المزدوج – أيضا – بالقدرة على إطلاق قواك الإبداعية؛ فأحياناً ما ينتهي بك الأمر إلى الإتيان بفكرة جديدة، وذلك عندما يكون ذهنك مشغولاً بمهمة أخرى.

في اتجاه عقلي مشابه، يذكر الباحث هوارد بيكر Howard Becker (والذي اتخذ هيوز أستاذاً له) كيف تعلَّم القيام بإجراء الملاحظة وهو صبي صغير السن في شيكاغو. إذ كان يقوم بهذه المهمة– أساساً – عن طرق ركوبه لمترو الأنفاق لساعات وساعات، مكتفياً بالنظر إلى ما يحدث من الأمور. بعد ذلك أن قام بنفس العمل، حيث احترف مهنة عازف لموسيقى الجاز.

مع أن جميع أنواع الحقائق قد تكون لها أهمية استدلالية (أي ذات صلة بالتعليم القائم على الاستكشاف والتجريب) في مرحلة الملاحظة، فإن البيانات الأولية التي من النوع المستخرج من خلال العمل الميداني تعد بيانات استثنائية في هذا الصدد. من أسباب ذلك أنك تعلم – على وجه الدقة– كيف تم إنتاج هذه البيانات، وثمة سبب آخر وهو أن هذه البيانات غير مُنَظَّرة، بمعنى أنها لم تتعرض للتصفية والتنقيح من خلال ذهن عالم آخر من العلماء الاجتماعيين. ولا تقتصر فائدة هذا الإجراء الأخير على أنه يسهل عليك تنظير هذه البيانات، بل يزيد أيضاً من احتمال عثورك لاحقاً على شيء جديد.

الإحصائيات والملاحظة

في بادئ الأمر قد يبدو أن الإحصائيات ستكون مفيدة أثناء الدراسة الرئيسية فقط، وذلك نظراً للأسلوب الدقيق والمنهجي الذي يجب أن تجرى به أي دراسة إحصائية. ومع ذلك، فليس هذا هو واقع الحال، كما قد تكون الإحصائيات جزءاً مما يعتمد عليه المُنظِّر أثناء الدراسة المسبقة. ويصدق هذا المعنى على الإحصائيات الوصفية كما يصدق على ما للإحصائيات من صور أخرى ذات مستوى رفيع من الدقة والإحاطة.

في أثناء المرحلة المبكرة للبحث، يمكن استخدام الإحصائيات في مجالين اثنين معاً، هما: مجال التفسيرات المبدئية Tentative explanations ومجال الملاحظة.

وتستخدم الإحصائيات بصورة روتينية في العلم الاجتماعي لأغراض تتعلق بالتعليل/ أو التفسير، إلا إنه وفقاً لما يذهب إليه الباحث جون جولدثورب John Goldthorpe، قد يكون لهذه الإحصائيات وظيفة قيمة تؤديها في مرحلة الملاحظة. وهو يقول في هذا المعنى: "إن من الأهمية بمكان وجوب التمييز الواضح بين استخدام التقنيات الإحصائية المتقدمة نسبياً في ... الأغراض المتعلقة بما يمكن تسميته بالتوصيف ذي المستوى الرفيع، من جهة، واستخدامها في الجهود التي يبذلها الباحث لاستخلاص العلاقات السببية مباشرة من تحليل البيانات، من جهة أخرى "Goldthorpe 2001:11".

إن ما ينادى به جولدثورب ليس مختلفاً للغاية عما ذهب إليه هيوز، كما هو واضح في نهاية الأمر. ففي المقالة التي كتبها هيوز بعنوان "مكانة العمل الميداني في العلم الاجتماعي" يقول بوجود أسلوبين لإظهار البعد الاجتماعي من خلال الملاحظة. أولهما أن يتاح لنا في المشهد باحث ماهر في الملاحظة. والأسلوب الاخر حيث يأخذ العالم الاجتماعي واقعة صغيرة ويتعمق في دراستها من خلال عدسة مكونة من عدد كبير من الوقائع (Hughes 1984a: 504).

وواضح أيضاً أنه في مرحلة الاكتشاف لا يتوجب عليك أن تستخدم الإحصائيات بالأسلوب الاحترافي والمنهجي الذي يجب عليك اتباعه في الدراسة الرئيسية. فبمقدورك، مثلاً، أن تتنقل بين الإحصائيات جيئة وذهاباً في خطوات سريعة لتجربة الاستفادة ببعضها في هذه المرحلة، وأن تستخدم العينات غير الممثلة non representative samples، وتكتفي في حالات أخرى بمحاولة الوصول إلى إدراك سليم لما يجرى من أمور. ذلك أن الغرض في هذه المرحلة هو توليد الأفكار، كما أن بإمكانك – فيها – أن تلجأ إلى الطرق المختصرة "التي توفر وقتك وجهدك".

ويجب عليك، من حيث المبدأ، أن تتفادى، في أثناء قيامك بعملية الملاحظة، الاستناد حصرياً على البيانات الكمية التي أنتجها الآخرون، هذا إن لم يكن ذلك الإجراء مستحيلاً أو قريباً من المستحيل (انظر على سبيل المثال Heltberg 2011). والسبب الرئيسي لهذا التحذير يرجع إلى أن تلك الإحصائيات، شأنها شان الملاحظات المحوسبة "أي: المبنية على برامج حاسوبية"، تمثل نوعاً من الحقائق المجردة التي يتعذر قراءتها في أحيان كثيرة (انظر على سبيل المثال Dreyfus 2009).

حينما تتعامل – كباحث – مع البيانات الكمية المتعلقة بالآخرين، فإنك لا تفرط في استخدام أي حاسة من حواسك الطبيعية، إلا حاسة الإبصار. وكنتيجة لذلك،

يكون مجمل الخبرة التي تكتسبها حينئذ خبرة ذهنية/ أو إدراكية للغاية، وكثيراً ما لا تترك هذه الخبرة للاوعي إلا حيزاً ضئيلاً لكي يدرك فيه بعض الأمور "الخافية". وقد يؤدى بك هذا الوضع إلى أن تقدم نمطا ضيقاً من أنماط التحليل، كما أنه يزيد من احتمالات إغفالك لبعض الأمور الجوهرية. بهذا المعنى، فإن البحث باستخدام الحاسوب لا يختلف كثيراً عن البحث الذي يقدمه الباحث باستخدام الكتب والمراجع، والذي كان هو المعيار المتبع في علم الاجتماع قبل ظهور البحث الميداني.

من مزايا قيامك بأعمال الملاحظة بنفسك أنك تستوعب – بذلك – قدراً كبيراً من الأفكار والفهوم التي ليست مفيدة – على وجه الخصوص – في هذا البحث، ولكنها تسمح لما هو مفيد من الأفكار بأن يصبح مرئياً بوضوح. تقترب بعض هذه المعلومات مما يسميه الباحث مايكل بولاني Michael Polanyi "المعرفة الضمنية" "Tacit Knowledge" – أعنى بذلك، المعرفة الضرورية لتنفيذ نشاط ما، ولكن عندما يكون الفاعلون (لهذا النشاط) عاجزين عن التعبير بوضوح عما يقومون به من عمل.

هذه القضية تلفت نظرنا لموضوع اللاوعي، وهو الموضوع الذي سبق لعلماء المعرفة أن استكشفوا معالمه منذ عقود كثيرة. فقد قاموا، ضمن ما قاموا به من أعمال أخرى، بوضع الخطط التفصيلية لتلك الأساليب الشديدة التعقيد التي تتبعها الكائنات البشرية في تسجيل الأصوات والمثيرات البصرية "في الذهن". وتمثل دراسة الذاكرة مجالاً آخر حقق فيه العلماء تقدماً يثير الانتباه، كما أن له أهمية بالغة في التنظير في مجال العلم الاجتماعي.

من الموضوعات غير الواضحة في وقتنا الحالي، وعلى وجه الخصوص، الموضوع الذي يتناول: كيف تتفاعل العناصر الاجتماعية مع العمليات الفسيولوجية المستخدمة في الإبصار، والسمع، والتذكر. ومع ذلك، يبدو أن معرفة هذه العمليات مهمة للوصول إلى فهم ما لحقيقة التعقيدات التي تتضمنها الملاحظة. ولذلك، فإن الفكرة القديمة التي كانت مألوفة في علم الاجتماع، والتي كانت توجب الفصل بين ما هو اجتماعي وما هو بيولوجي بصورة قاطعة، لم تعد مفيدة في وقتنا الحالي.

لهذا السبب، يكون من الأهمية بمكان أن يتابع الباحثون المهتمون بالتنظير ما يجرى من الأمور في علم الإدراك. وسيكون من المفيد – بصفة خاصة– للمنظرين لو أنهم عثروا على طريقة لترجمة الرؤى الثاقبة التي توصل إليها علم الإدراك إلى قواعد عملية يتبعونها في تحسين قدرتهم على الملاحظة. ينبغي أن نذكر، للمرة

الثانية، أن الأمر الأهم للمنظرين هو التوجيهات والقواعد العملية الخاصة بالطريقة التي يتعين عليك اتباعها في مباشرتك لعملك حين تقوم بالتنظير.

ماذا عن الاستبطان الذاتي/ أو التأمل الباطني؟ Introspection. (أي فحص المرء لأفكاره ومشاعره ودوافعه، وتأمله فيها وتحليله لها) هل آن الأوان لإعادة تقييم هذا الأسلوب في مباشرة العمل؟ لقد ظل الاستبطان الذاتي، حتى عهد قريب، محظوراً في العلوم الاجتماعية لمدة طويلة من الزمن، ويرجع السبب الرئيسي لهذا الحظر إلى أن الاستبطان الذاتي يجعل الباحثين يعتمدون على آرائهم الشخصية أكثر من اعتمادهم على الحقائق.

لا ريب أن رفض العلوم الاجتماعية للاستبطان الذاتي يمثل – حتى الان– قاعدة متينة في هذه العلوم. إلا إنه حين يتعلق الأمر بالتنظير، فإن المسألة تكون مختلفة إلى حد ما، كما أن القضية التي يتوجب مناقشتها حينئذ تتمثل في تحديد ما إذا كان بمقدور الاستبطان أن يفيد في تحقيق الأغراض الاستدلالية أم لا، وأنا أرى أن استخدام الاستبطان يجب أن يمثل اختياراً للمنظر. أو أقول، إن أردت المزيد من الدقة وإن أردت أيضاً أن أمدك بالسبب الذي جعلني أميل إلى هذا الرأي، أقول: **إن قيامك – بنفسك – بأعمال الملاحظة بصورة دقيقة،** وأداءك لهذه المهمة من أجل تحقيق أغراض استدلالية، يمثل أسلوباً متفرداً لاكتساب بعض الأفكار المتعلقة بالظاهرة التي أنت معنى بها.

خذ، على سبيل المثال، وصف بيرس لنفسه حين تطلَّع إلى لوحة زيتية للبحر رسمها أحد الفنانين المنتسبين للمدرسة الانطباعية/ أو التأثيرية. فقد قال: "عندما أحدق في هذه اللوحة اضبط نفسي وأنا أستنشق هواء البحر المشبع برائحة الملح، وقد رفعت خدىً عالياً ليتعرضا لنسيم البحر" (Peirce 1992b: 182). ولا ريب أن بإمكانك أن تسأل عما إذا كان بيرس محقاً، أم لا، حين قال إن هذا الأسلوب هو أسلوبه في التجاوب مع لوحة زيتية للبحر. وللوصول إلى إجابة سريعة ومؤقتة على هذا السؤال أقول – لم لا تقوم بملاحظة ردود افعالك الشخصية؟

يمكن، أيضاً، للاستبطان الذاتي المتمثل في صورة الملاحظة الذاتية (أي: ملاحظة المرء لنفسه في أفكارها، ونزعتها) أن يكون مفيداً في تقرير ماهي المعاني والنزعات النفسية التي يغلف بها الفاعلون سلوكهم. من المشكلات المتعلقة بالمعاني والنزعات النفسية أنه من العسير عليك أن تخترق رأس الشخص الذي تقوم بملاحظته. كما أن الغالب على المعاني والنزعات النفسية أن تتغير وتتلاشى. وأقول للمرة الثانية، من أساليب اجتناب هذه المشكلة أن تقوم بملاحظة نفسك

(للاطلاع على المزيد مما يتعلق بالأهمية المحورية للمعنى، انظر، على سبيل المثال: (Weber 1978) وفيما يتعلق بالأهمية المحورية للنزعة النفسية، انظر على سبيل المثال (Damasio 2003).

إلا إنه يوجد، بطبيعة الأمور، أسلوب أفضل للولوج إلى ذهن الفرد الذي تقوم بملاحظته باتباع طريقة معينة. وهذه الطريقة، وفقاً لما ذهبت إليه فيبر، تتم من خلال عملية الإحساس بأننا قادرون على الولوج بطريقة معينة إلى ذهن الشخص الآخر، علماً بأن هذا الإحساس يكون، كما هو معروف لنا جميعاً، إما إحساساً عقلانياً "قائماً على المنطق" أو إحساساً " مشبعاً بعاطفة الود" تجاه الغير (Weber 1978: 5)، فحينما يتصرف امرؤ ما بأسلوب عقلاني، يسهل نسبياً على الباحث المحلل أن يدرس ما يجرى في ذهن هذا الفاعل (Weber 1978: 4-7). فقد يكون أحدهم مشغولاً بمحاولة حل مسألة بسيطة من مسائل الحساب، ونكون في نفس الوقت مدركين لأسلوب التفكير الذي تتطلبه محاولة هذا الشخص لحل تلك المسالة.

وعندما يتعلق الأمر بعاطفة الود تجاه الغير، فإن الموقف يزداد تعقيداً. ذلك أنه يحدث في كل وقت وحين أننا "كلما ازددنا تأثراً بأمثال تلك الاستجابات العاطفية أو الانفعالية، كالقلق، والغضب، والطموح، والغيرة، والحب، والحماسة، والغرور، وحب الانتقام، والوفاء، والإخلاص، وسائر أنواع النزعات النفسية القوية، وكلما ازددنا تأثراً بما ينجم عن هذه الاستجابات الانفعالية من سلوك "لاعقلاني"/ أو "لا منقطي" "irrational conduct"، ازددنا إقبالاً على التعاطف مع الآخرين" (Weber 1978: 6). ولاحظ أن فيبر يذكرنا هنا بأن الإحساس بالآخرين مرتبط بملاحظة المرء لنفسه.

سبق للباحثين – في وقت مبكر من تاريخ العلوم النفسية – أن تعرضوا لموضوع الذاكرة من حيث صلتها بأشكال التقدم الذي حققها علم الإدراك، كما يجب عليهم في وقتنا الحاضر أن يقولوا شيئاً عن أهمية الذاكرة في مرحلة الدراسة المسبقة. فالذاكرة أمر لا غنى عنه في الأنشطة الراهنة، ذلك أنك لا تستطيع أن تفعل أي شيء على الإطلاق ما لم تكن قد قمت بالفحص الدقيق لما أنت بصدد الاشتغال به من عمل بمساعدة الذاكرة والخبرة "السابقة". وهذا معناه أن استكشاف معالم الذاكرة يجب أن يكون جزءاً من الملاحظة. ما الذي يتذكره الأفراد؛ وما الذي ينسونه؟ ما الذي يريد الأفراد أن يتذكروه؛ وما الذي يريدون أن يسنوه ،انظر على سبيل المثال (Wickelgren 2012)؟

مثلماً أن الملاحظة تعنى الاهتمام بالذاكرة، فإنها تعنى أيضاً الاهتمام بالتاريخ. وفقاً لما يذهب إليه الباحث "والسياسي الفرنسي ١٨٠٥-١٨٥٩" توكفيل Tocqueville الذي قام بإجراء قدر كبير من أعمال الملاحظة سائراً على قدميه حينما طاف مرتجلاً في جميع أنحاء الولايات المتحدة، فإننا – بأجمعنا – مرتبطون بالماضي من خلال خيوط غير مرئية (Tocqueville 2009) إذ أن التاريخ يصل ما يفعله الأفراد في الوقت الحاضر بما فعلوه في الماضي.

إن مقولة التاريخ تتجاوز نطاق الذاكرة تماماً، حتى لو كانت الذاكرة تستوعب التاريخ داخلها أيضاً. والمشكلة التي يواجهها الباحث المنظِّر، في أثناء مرحلة الملاحظة، هي أن عليه أن يدرك – بصورة ما– إلى أي مدى سيؤدى الاهتمام بالماضي إلى تسهيل اكتشاف حقائق ما يحدث في وقتنا هذا. وهذه المشكلة تمثل مبرراً للسبب الذي يجعل من المفيد "للباحث" أن يعرف شيئاً ما عن أسلوب المؤرخين في التنظير "لوقائع التاريخ" (انظر على سبيل المثال ,Bloch 1964) .Iggers et al. 2008

دور الدراسات المبكرة للعلم الاجتماعي والنظرية

ربما يكون بعض القراء قد أصبحوا في وقتنا الحالي هذا تواقون لمعرفة بعض الأمور، فيتساءلون عن دور الدراسات المبكرة (أي السابقة) التي أجراها العلماء الاجتماعيون على الموضوع الذي تقوم أنت بملاحظته؟ وماذا عن تدريبك الذي تلقيته وسنوات الخبرة التي عشتها؟ أليس هذان السؤالان مهمين، وأليسا يشحذان، ويوجهان، إحساسك بالملاحظة، خاصة الملاحظة الاجتماعية؟

الإجابة على هذين السؤالين كليهما هي "نعم" واضحة، إلا أنني أردت، أولا وقبل كل شيء، أن أؤكد أهمية محاولة الباحث للنظر إلى الأشياء في ضوء جديد. ولتحقيق هذا الأمر، يكون من المفيد للباحث أن يباشر عمله مستخدماً أساليب غير تقليدية، وأن يكون ذا روح منفتحة بأقصى ما في إمكانه ليستوعب الملاحظات الجديدة.

لكي تكتسب إدراكاً سديداً لأي موضوع جديد، يلزمك – بوضوح – أن تكون على علم وخبرة بالدراسات السابقة لهذا الموضوع. وثمة مبررات كثيرة وواضحة تفسر سبب أهمية توافر هذا العلم وتلك الخبرة لديك. فقد تحتوي هذه الدراسات السابقة على بيانات وثيقة الصلة بفهمك لموضوع دراستك. وقد تحتوي على مفاهيم ونظريات مفيدة. كما إنك، باستفادتك بهذه الدراسات وما تقدمه لك من نفع

ومساعدة، تستطيع أن تقرر ما هو معروف من الحقائق عن موضوع ما، وما هو غير معروف منها عن نفس الموضوع.

وأياً كانت الأحوال، فثمة تنبيه هذا مكانه المناسب. أعنى بذلك أن من السهولة بمكان أن تصبح متأثراً تأثراً شديداً للغاية بالبحوث الراهنة التي تتناول موضوعاً ما. وأن بإمكان هذا التأثر المفرط أن يكبح جماح قدرتك الإبداعية. لهذه الأسباب، يفيدك أن تحاول إيجاد أسلوب يحقق لك هدفين اثنين معاً، وهما: تنحية ما هو موجود حالياً من الدراسات السابقة جانباً **مع** قدرتك على الوصول إليها.

نظراً لأن هذه العبارة تبدو غامضة ومتناقضة مع نفسها، فاسمحوا لي أن أقدم مثالاً لأسلوب ناجح لتحقيق الهدفين المذكورين معاً. وقد سبق للباحث الفرنسي" توكفيل أن ابتكر هذا الأسلوب، حيث كان يتصف بالنزعة الابتكارية البالغة حين يتعلق الأمر بجمع البيانات وتحليلها (انظر على سبيل المثال (Swedberg 2009).

فعندما طاف توكفيل في جميع أنحاء الولايات المتحدة في سنتي ١٨٣١ – ١٨٣٢، جمع ما استطاع جمعه من المواد الأولية، بيد أنه تفادى – كذلك – قراءة الدراسات التي كتبها معاصروه عن الولايات المتحدة. والسبب في ذلك، كما قال هذا الباحث، هو أنه لم يكن يريد لهذه الدراسات أن تؤثر على رؤيته لهذه البلاد قبل أن يكون قد أتم تطويره لتحليله الشخصي لها.

ومع ذلك، فقد كان توكفيل يريد – أيضاً – أن يعرف ما كانت تحتوي عليه هذه الدراسات الأخرى من معلومات في هذه المرحلة "من دراسته". وكان حله لتلك المشكلة أن يسأل رفيق رحلته، جوستاف دي بومو Gustave de Beaumont، أن يقرأ تلك الدراسات ثم يخبره بما إذا كانت تحتوي على شيء ينبغي عليه "أي على توكفيل" أن يعرفه، أم لا.

حينما نقوم بتنفيذ بحوثنا، فإن معظمنا لا يتاح له مثل هذا الرفيق الكفء الذي يرافقه في سفره كما حدث لتوكفيل. بيد أنه قد توجد أساليب أخرى للتعامل مع ما هو موجود لدينا من الدراسات السابقة بحيث لا تعيق قدراتنا الإبداعية. من الواضح أنه يتعين على الباحث أن يستعرض هذه الدراسات من أولها إلى آخرها وأن يشير إليها في دراسته النهائية (ولكن) السؤال هو: متى ينبغي على الباحث أن يستعرض هذه الدراسات استعراضا شاملا يتسم بالدقة والاهتمام.

(أما) الدراسات التي تتناول الموضوع الذي أنت مهتم به، ولكنها مكتوبة بأيدي علماء من خارج نطاق تخصصك العلمي، فيمكن استعراضها/ أو مراجعتها بدون أن يلحق عملك كثير من الضرر في المرحلة المبكرة له، ويرجع سبب ذلك

إلى أن الغالب على تلك الدراسات أنها تمارس مهامها باستخدام مفاهيم مختلفة وتحاول فهم الأمور بأسلوب مختلف. وبإمكان هذا الوضع أن يحدث تأثيرا يبعث الطاقة في خيالك.

يوجد الكثير جدا من الدراسات التي أجراها العلماء الاجتماعيون الآخرون، ولكن ماذا عن الدور الذي يقوم به تدريبك كعالم اجتماعي، والدور الذي تقوم به معرفتك العامة بالعلم الاجتماعي، في تنفيذك لأعمال الملاحظة؟ الإجابة هي أن هذين الدورين كليهما لا غنى عنهما في العمل العلمي الجيد. أضف إلى ذلك أنهما يؤكدان صحة القول المأثور الذي مفاده أن العلماء المستعدين استعدادا جيدا، هم وحدهم الذين يكونون في وضع يمكنهم من التوصل إلى اكتشاف ما.

كلما ازداد تطويرك لما يسميه هيوز "بالعين السوسيولوجية" sociological eye، ازدادت قدرتك على فرز/ أو إفراد ما هو اجتماعي عن إحدى الظواهر (Hughes 1984b). كما أن نوع مناهج البحث التي اعتدت العمل بها سوف يؤثر – أيضا – على الأسلوب الذي تنظر به إلى إحدى الظواهر وتفهمها.

أما المسألة المتعلقة بوجوب تدربك بصورة جيدة، من أجل أن تحسن التنظير، فسوف عالجها لاحقا في هذا الكتاب. كما سوف نعالج موضوع العلاقة الوثيقة التي تربط بين "النظرية" و"منهج البحث" داخل العملية البحثية. قبل معالجة هاتين القضيتين، يهمنا – في سائر الأحوال– أن نعالج موضوعا مختلفا عن الموضوعات السابقة، وأعني به: مناقشة عملية التنظير بمعنى أكثر دقة وتحديدا، وهي مهمة سوف نقوم بها في الفصول التالية.

٣

الفصل الثالث
التسمية، والمفهوم، والتنميط

الفصل الثالث*

التسمية، والمفهوم، والتنميط

إن المنهجية الموثوق بها في التأمل وتقدير الأمور تشبه الرحلة الجوية التي تقوم بها إحدى الطائرات. فهي تبدأ من أرض الملاحظة المحددة، ثم تقوم بالتحليق في الهواء الشفاف الذي يرمز للجو الذي تتم فيه عملية التعميم المفترضة، ثم تهبط مرة ثانية إلى الأرض سعيا لإعادة تجديد الملاحظة، بحيث تصير ملاحظة دقيقة باستخدام التفسير العقلاني.

ألفريد نورث وايتهد، في كتابه وظيفة العقل

Alfred North Whitehead, The Function of Reason (1)

بمجرد انتهاء مرحلة الملاحظة الاجتماعية، يبدأ وقت العمل مع المادة الإمبيريقية، كما يبدأ وقت التنظير، بالمعنى الأكثر تحديدا ودقة لهذا المصطلح. وفي قائمة المصطلحات الواردة في هذا الكتاب، سيتم استكمال تشييد النظرية وتزويدها ببناء وبدن.

وفقا لما يذهب إليه بيرس، فإن المهمة التي ينبغي على الباحث الاشتغال بها حينئذ هي: "تلك العملية التي يفحص فيها العقل كل حقائق الحالة، ويستوعبها، ويهضمها، ويمعن النظر فيها، ويتمثلها، ويراها في أحلامه" (Peirce 1906: 4-5). كما يقول بيرس ما مفاده أن هذه العملية يجب أن تستمر إلى أن يصل الباحث إلى النهاية الفعلية لعملية التنظير، والتي تعني أنه أتى بتفسير ما/ أو ابتكر تفسيرا جديدا للحالة التي يدرسها.

لا ريب أن تأكيد بيرس على أهمية استيعابك للمادة (العلمية) وإعمال عقلك فيها أمر جوهري لابد منه، والهدف من ذلك أن تصل –فيما بعد– إلى معرفة هذه المادة بأسلوب شخصي فعلا (تتفرد به عن غيرك). إلا أنه يوجد، في الاتجاه المضاد لما يذهب إليه بيرس ويحاج به، يوجد قدر كبير من العمل الذي يتعين

---

* ترجم هذا الفصل الدكتور خالد عبد الفتاح عبد الله.

عليك القيام به بشأن التعامل مع المادة (العلمية الإمبيريقية المتوافرة لديك) قبل أن تكون قادرا على الانتقال إلى مرحلة التعليل/ أو التفسير.

أما ما يجب عليك أداؤه في هذا الوقت فهو هاتان المهمتان التاليتان، واللتان تساعدان على تشييد بناء النظرية، وأولاهما: أن تبتكر اسما للظاهرة التي تقوم بدراستها، وثانيهما أن تطور بعض المفاهيم التي من شأنها أن تساعد في تحليل الظاهرة، وربما يضاف إلى هاتين المهمتين أن تطور شكلا من أشكال التنميط. وسوف أقدم في الفصل التالي بعض الأساليب الإضافية لتشييد بناء النظرية، قبل أن يكون في إمكانك الانتقال إلى (مرحلة) التعليل/ أو التفسير. وتشتمل هذه الأساليب على بعض أشكال قياس التشبيه)*(analogies وبعض أشكال المجاز metaphors، وبعض النماذج patterns.

هذه الأساليب المختلفة في مباشرتك لعملك البحثي عندما تصل لمرحلة التنظير قد يتم تجميعها معا تحت عنوان رئيسي هو "الاستقراء" induction، والذي اعتاد الباحثون تعريفه بأنه القيام بالتعميم القائم على حالات معينة. مع ذلك، فإن هذا المصطلح محير للذهن ولا يفيدك كثيرا إن كنت تريد أن تتعلم كيف تُنظِّر. كما أن من الواضح أن ما يقوم به معظم العلماء من عمل عندما يقولون إنهم يستخدمون الاستقراء ببساطة هو أعقد كثيرا من مجرد التعميم القائم على الحقائق الخاصة والملاحظات الخاصة.

كما ينبغي الإشارة إلى أن كل واحد من هذه الأساليب المختلفة في التعامل مع المادة العلمية الإمبيريقية التي تأتي بعد مرحلة الملاحظة وتشكل القدر الأعظم من الدراسة المسبقة تقوم، إذا جاز التعبير، بأداء دورين اثنين أولهما: المضي قدما بعملية التنظير للوصول إلى نظرية مبدئية تتمحور حول التفسير. وهذا الدور مهم جدا.

والدور الثاني أقل وضوحا إلا أنه يماثل الدور الأول في أهميته لمهمة التنظير الناجح. ويتمثل الدور الثاني في المضي قدما بعملية التنظير من خلال الاستكشاف. ويمكن وصف هذا الدور بأنه "الوظيفة الاستدلالية" the heuristic function المكونة من الخطوات المختلفة التي تمثل جزءا من عملية التنظير.

يبلغ الدور الثاني من الأهمية درجة تجعل من الجدير صياغته في صورة

* هي أشكال الاستدلال المنطقي المبنية على فرضية تقول: إذا تشابه شيئان في بعض النواحي، فمن الراجح للغاية أن يتشابها في نواح أخرى. قاموس أطلس الحديث (المترجم).

قاعدة، هي: "**كل العناصر التي تمثل جزءا من عملية التنظير يجب استخدامها – أيضا – لتحقيق الأغراض الاستدلالية**". ذلك أن واجبك هنا لا يقتصر على مجرد تسمية الظاهرة لتحقيق خطوة التسمية، أو على تشييد مفهوم ما ليتوافر لك هذا المفهوم، وما إلى ذلك. فمحاولتك إيجاد اسم ملائم لظاهرة اجتماعية ما يمكنها أيضا أن تجعلك تكتشف جوانب لهذه الظاهرة ظلت حتى ذلك الوقت خافية عليك – وكذلك الأمر بالنسبة لما يمكن أن تقدمه لك محاولتك تشييد مفهوم ما، وهلم جرا.

لاحظ أنه في أثناء تبلور النظرية (أي تكشفها عن ملامحها) قد ترغب في العودة إلى مرحلة الملاحظة. ولا يقتصر سبب هذه الرغبة على أنك تريد التأكد مما كنت تشك فيه، بل يضاف إلى ذلك أنك قد تكون في ذلك الوقت مشغولا بالبحث عن شيء آخر مختلف أو عن بعض المعلومات الإضافية. فعملية التنظير، من حيث المبدأ، عملية مبدئية في مرحلة الدراسة المسبقة بمثل ما هي عملية مبدئية في الدراسة الرئيسية.

بصفة عامة، يمكنك القول بأن المرحلة التي تأتي بعد مرحلة الملاحظة الاجتماعية يجب أن يهيمن عليها التأمل وإعمال العقل. قد يبدو استخدام "لفظ التأمل" speculation أمرا غريبا وعتيق الطراز، كما أن من الصحيح أن التأمل نادر الاستخدام في العلم الاجتماعي في وقتنا الحاضر.

إلا أن للتأمل مكانته في العلوم، ومن ضمنها العلم الاجتماعي، وسبب ذلك أنه بدون التأمل لا يستطيع الباحثون أن يستخدموا (من النظريات) إلا القليل. ويمثل التأمل ذلك النوع من التفكير الذي من خلاله يمكن اكتشاف شيء لم يكن قد اكتشف من قبل. فهو يشير إلى ما يكمن خلف ما هو مفهوم حتى ذلك الوقت. موجز القول إن التأمل أمر لا غنى لك عنه إن كنت تريد أن تقول شيئا جديدا.

في تعريفه لمعنى التأمل، يؤكد يان هاكينج Ian Hacking على أهمية "عنصر التمثيل" the element of play الذي يدور داخله. فهو يقول: "باستعمالي لكلمة التأمل، بأنني أعني التمثيل العقلي لأمر له أهميته عندي، والتفكير في بعض الأفكار وإعادة بنائها حتى أصل –في الحد الأدنى– إلى تصور كيفي لبعض الملامح العامة للحياة" (Hacking 1983: 212-13).

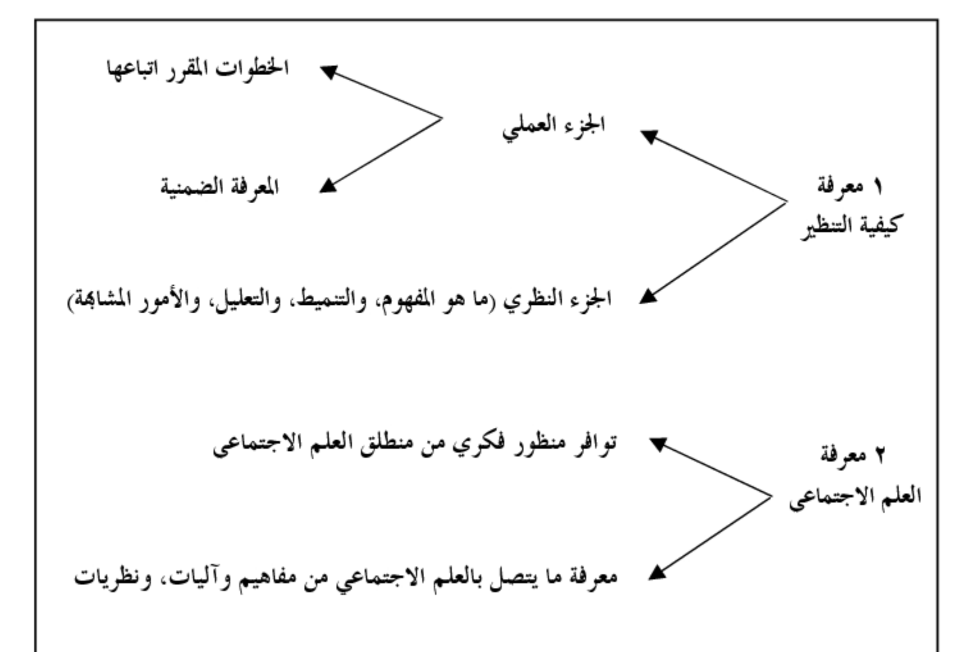
بيد أن التأمل أمر متعدد الوجوه وله جوانب أخرى كثيرة بجانب التمثيل (مثال ذلك، انظر Parisi 2012). وثمة عنصر آخر كثيرا ما يذكره الباحثون، وهو عنصر التخمين guessing (مثال ذلك، انظر Peirce 1929). وتشمل

الجوانب الأخرى (للتأمل) على كونه يتسم بوجود نوع ما مـــن نقــص النزعـــة العملية a lack of practicality، كما أن الباحث، وهو يقوم بمهمـــة المنظـــر – المتأمل theorizer-speculator، لا يهتم وقتها بالواقع ويدع أفكاره تحـــوم هنـــا وهناك بلا ضابط ولا رابط.

ويوجد –أيضا– في مجال علم الإدراك أعمال لها صلة بفهم حقيقة التأمل، وهو ما سنناقشه في الفصل التالي. إذ يتناول هذا الفصل الأساليب التي يستخدم بها الأفراد أشكال لقياس التشبيه analogies، والمجازات metaphors، والنماذج patterns وما يشبه تلك الأساليب حين يفكرون. في وقتنا الحالي، أصبح من الأمور المعترف بها تماما في مجال علم نفس الإدراك أن الكائنات البشرية لا تفكر بالأسلوب الشكلي/ أو الصوري الذي أيده الفلاسفة الغربيون، بدءا بأفلاطون وأرسطو وانتهاء بالفلسفة التحليلية الحديثة. فالتأمل، كما هو واضح، لا يبعد كثيرا عن الأسلوب الشائع في التفكير، بمثل ما أن التنظير نفسه لا يبعد كثيرا عن الفكر السائد في الحياة اليومية.

ومن خلال ما يقوم به الباحث من تجارب متكررة لتنفيذ سلسلة الإجراءات اللازمة لتشييد النظرية، يطور لنفسه نوعا من المهارة في التنظير. وقبل أن نتعمق في مزيد من التفاصيل المتعلقة بالخطوات المختلفة التي يجب على الباحث اتخاذها، يجب علينا –في كافة الأحوال– أن نكرر التنبيه إلى أنه ليس على الباحث – فحسب– أن يطور لنفسه نوعا من المهارة في كيفية التنظير (وهو موضوع الجزء الأول من هذا الكتاب)، بل عليه أيضا أن يقوم بنفس المهمة (فيطور لنفسه مهارة مماثلة) انطلاقا من منظور العلم الاجتماعي (وهو موضوع الجزء الثاني من هذا الكتاب).

ما يجب عليك معرفته من أجل التنظير في مجال العلم الاجتماعي



تعليق: لكي تنظر في مجال العلم الاجتماعي يلزمك أن تعرف التنظير باستخدام مصطلحات عملية، وأن يتوافر لديك معرفة نظرية ما بما يشكل المفهوم، والتعليل، والأمور المشابهة لذلك. ونظرا لأن الموضوع الذي نناقشه هو التنظير في العلم الاجتماعي، فيلزمك أيضا أن تكون قد اكتسبت أحد منظورات العلم الاجتماعي، وأن تتوافر لديك معرفة ما بمفاهيم العلم الاجتماعي، وآلياته، ونظرياته.

التسمية

بمجرد أن تكون ملاحظة الباحث لإحدى الظواهر قد وصلت إلى اللحظة التي يبدأ فيها تصوره السابق لها في الانهيار، تصبح التسمية مسألة خلاف ونقاش. ويشير لفظ dysnomia (أي: الخلل في التسمية) إلى الأشياء التي تسمى بغير أسمائها الصحيحة، وهذا الوصف هو بالتحديد ما يميز الموقف في هذه المرحلة بعينها. إذ يوجد فيها واقع جديد ولكن له اسم قديم.

فإن واصلت استخدام الاسم القديم، فسنتعرض لخطر تفلُّت الظاهرة الجديدة

من بين يديك (فيفوتك السيطرة عليها والتعامل معها). ذلك أن إعطاءك لشيء ما اسما جديدا يعني – في جوهر الأمر – إعطاءك إياه هوية جديدة. كما أن صنيعك هذا يسهل عليك تكوين صورة ذهنية لهذه الظاهرة. لهذا السبب جاءت أهمية **التسمية** naming في العلم الاجتماعي.

لاحظ أن ما يشار إليه في لغة الحياة اليومية بكلمة واحدة يتضح في نهاية الأمر أنه معقد جدا، وأن من الأفضل أن ينظر إليه باعتباره ظواهر عديدة. وهذا معناه أنه قد يكون لزاما وجود أسماء عديدة حتى تفهم ما يجري من الأمور.

توجد مقاربات مختلفة في التسمية في مجال العلم الاجتماعي. فبإمكانك، مثلا، أن تستخدم الكلمات الموجودة حاليا أو تخترع كلمات جديدة. ويذهب ماكس فيبر إلى أن الأفضل –غالبا– أن تستخدم الكلمات الموجودة حاليا. ويقول في ذلك: "إن لم يتوجب علينا صياغة كلمات جديدة تماما في كل مرة، أو اختراع رموز، كما هو شأن الكيميائيين أو شأن الفيلسوف أفنريوس Avenerius، فلابد أن نعطي كل ظاهرة لم تعط بعد لفظا خاصا بها أقرب الألفاظ وأوضحها تصويرا لها من بين ألفاظ اللغة التقليدية، وأن نكون حريصين تماما على **تعريفها** تعريفا لا لبس فيه ولا غموض" (Weber 2001: 63).

كمثال على هذا المعنى يذكر فيبر ما يسميه innerworldly asceticism (أي: الزهد الروحي في متع الحياة) في بعض أعماله. وهو يلفت النظر أيضا إلى أن معظم العلماء لا يحبون المصطلحات الجديدة، ما لم تكن هذه المصطلحات من صياغتهم هم أنفسهم.

يمكنك أن تخترع كلمات جديدة عن طريق استخدام اللاتينية أو الإغريقية مثلا، أو أن تحدث تحريفا في معنى كلمة ما من كلمات لغتك التي هي موجودة من قبل. من أمثلة ذلك كلمة akrasia (بمعنى الإفراط وتجاوز الحدود المرعية)، وكلمة colligation (أي: الترابط بين الرفقاء)، وكلمة quantomania (أي: الهوس بمفاهيم نظرية الكم). ومن المقاربات المختلفة قليلا عن هذا الاتجاه أن تعثر على لفظ مبهم أو مهجور وتقدمه بوصفه أحد ألفاظ/ أو مصطلحات العلم الاجتماعي. وهذه المقاربة الأخيرة شائعة تماما بين الباحثين، وذلك كما يشير إليه مصطلح الأنومي **anomi** (أي: اللامعيارية/ أو فقدان المعايير)، ومصطلح الكاريزما charisma، ومصطلح الهابيتوس habitus.

يمكنك – حسب – أن تأخذ كلمة موجودة حاليا وتكسوها/ أو تضفي عليها معنى جديدا، أو تأخذ كلمتين يستعملهما كل إنسان وتضمهما معا (في كلمة واحدة).

هذه الطريقة هي الأصل الذي نشأت منه مفاهيم اجتماعية شهيرة، مثل مفهوم "الصورة النمطية" stereotype، ومفهوم "الدور" role، ومفهوم "المسافة الاجتماعية" social distance.

كان بيرس نصيرا قويا لاستراتيجية استعمال كلمات جديدة عندما تستحدث مفهوما ما. فلا ينبغي للفلاسفة -في رأيه- أن يستعملوا ألفاظ الحياة اليومية، وسبب ذلك أن الألفاظ الفلسفية يجب أن تكون "متميزة ومختلفة عن الكلام الشائع" (Peirce 1998b: 265). ومن الشواهد المستمدة من أعمال بيرس نفسه، يمكن للمرء أن يذكر بعض المصطلحات مثل مصطلح retroduction بمعنى الاسترجاع/ أو الاستعادة ومصطلح interpretant بمعنى المفسر/ أو المؤول، ومصطلح phaneroscopy بمعنى علم فحص المادة المرئية.

كان بيرس، عموما، يخشى انتشار المصطلحات الفلسفية بين الناس، وهو أمر يرى أنه سيفضي -لا محالة- إلى تشويه معانيها. وكان من أساليب مواجهة بيرس لهذا الوضع، والذي شارك فيه بيرس بنفسه، أن استحدث مصطلحات "تفتقد الجاذبية تماما للدرجة التب تمنع المفكرين الذين لا يتحرون الدقة من الانجذاب لاستعمالها (Ketner 19981: 343).

هذا هو الأصل الذي نشأ منه بعض مصطلحات بيرس، والتي منها مثلا مصطلح pragmaticism أي: البراجماتيسية. إذ أن بيرس لم يكن يحب كثيرا ما فعله ويليام جيمس William James وآخرون بالبرجماتية Pragmatism، وكان لجوء بيرس إلى استحداث مصطلح البراجماتيسية واحدا من الأساليب التي اتبعها في وضع حد فاصل بين رؤيته الشخصية ورؤى المفكرين الآخرين. فهل كان تصرفه هذا استراتيجية ناجحة؟ يبدو أن هذا التصرف لم يكن يمثل استراتيجية ناجحة للغاية، لأن بيرس معروف في وقتنا الحاضر كواحد من مؤسسي البراجماتية.

كان بيرس – أيضا – يعتقد أنه باختيارك لاسم جديد تكون في وضع يمكنك من التحكم في معناه بأفضل مما لو اقتصرت على اختيار مصطلح موجود في الوقت الحاضر. قد يكون هذا هو واقع الحال إلى حد ما، حتى لو بدا أن الغالب على سائر مصطلحات العلم الاجتماعي أنها تفقد بعضا من طزاجتها/ أو جدتها وبعضا من معانيها الأصلية بعد فترة من الزمن.

وصحيح أيضا أن من الخطأ إدخال عدد كبير للغاية من المصطلحات الجديدة في مقالة أو كتاب. ذلك أن القارئ سرعان ما يفقد صبره إن أُدخِل للمرة الأولى – في هذه المقالة أو ذلك الكتاب – عدد كبير للغاية من المصطلحات الجديدة. وإني

لأحاج بأن الأمر المهم هنا هو أن تلفت الانتباه إلى ما هو جديد في عملك، لا أن تخلق مجموعة مصطلحات جديدة بأكملها.

باستخدامنا للغة الشائعة عند اختيار المصطلح، يصير من الأسهل علينا – أيضا – أن نتواصل مع الجمهور العام. فهذا التصرف "يجعل بالإمكان أن يصير الأفراد الذين ندرس أحوالهم من قرائنا في المستقبل"، علما بأن هذه العبارة المقتبسة وردت في واحدة من المقالات النادرة خصصت لمعالجة مسألة التسمية في علم الاجتماع (Hughes and Hughes 1952: 132).

ينبغي أن يضاف إلى ما قد قيل حتى الآن أن بإمكانك أن تستعرض –على وجه السرعة– عددا من الأسماء الجديدة المحتملة في ذهنك، على ألا يكون عملك هذا مجرد محاولة للعثور على اسم مناسب، بل لنكتشف –أيضا– شيئا جديدا يتعلق بالظاهرة التي أنت مهتم بها. وهذه هي الوظيفة الاستدلالية (القائمة على التجريب والاستكشاف) التي ذكرناها سابقا، وهي مطبقة هنا على عملية التسمية. ولكل اسم مجموعة من المعاني والارتباطات (الذهنية)، وقد يكون من الأمور الممتعة استكشاف معالم تلك المعاني والارتباطات الذهنية.

المفهوم

إن كلا من الاستخدام البارع للمفاهيم الراهنة، واستحداث المفاهيم الجديدة، يمثلان جزئين جوهريين من عملية التنظير. كما أنهما نشاطان ينخرط الأفراد فيهما في سائر الأوقات، وبصورة تلقائية تقريبا. وهما، من الناحية الحيثية، يمثلان قدرا كبيرا من الوجود الإنساني، بمثل ما أن التفكير – عموما – يمثل قدرا كبيرا منه. ثم أكرر القول بأن من المهم (للباحث) أن يتعلم كيف يستخدم هذه القدرة العامة ويطـــورها إلى مدى أبعد بأسلوب واع مقصود لتحقيق التنظير في مجال العلم الاجتماعي.

من الأهمية بمكان استخدام المفاهيم واستحداثها في كثر من مراحل عملية التنظير – كما يحدث مثلا حين يشيد الباحث نوعا من التنميط أو حين يولف عناصر تفسير ما يجمعها معا في كيان واحد. بيد أن هذا الأمر يحتل موقعا هاما للغاية في هذه العملية حين تحاول استكشاف تفاصيل الظاهرة التي أنت معني بها، وهذه الجزئية هي ما سوف نناقشه حالا.

بمجرد انتهاء مرحلة الرصد والملاحظة، وبعد تسمية الظاهرة باسم ما، يجب

– في كثير من الأحيان – تحويل هذا الاسم إلى مفهوم. وقد يحتاج الأمر – كذلك – إلى بعض المفاهيم الإضافية لكي يسيطر الباحث على الظاهرة التي يدرسها.

تحويل ظاهرة ما إلى مفهوم يعني، أولا، جعلها أكثر منطقية. فبدلا من أن يستخدم الباحث كلمة على نحو تلقائي تقريبا، يبذل محاولة – في هذه اللحظة – لإمعان النظر فيها ومحاولة تقرير ما هو جوهري بالنسبة لها. مثال ذلك، أن بيرس يصف المفهوم بأنه "المضمون المنطقي لكلمة ما أو لفكرة ما" (Peirce 1998a: 332).

يمكن إدخال عنصر منطقي في تحليل ظاهرة ما أن يتخذ أشكالا كثيرة، كأن يجعل الظاهرة أكثر تجريدا ويزيل عنها العناصر العرضية (أي الطارئة أو غير الجوهرية). ويمكن القيام بهذه المهمة خطوة وراء خطوة. كما أن بإمكان كل خطوة أن توفر للباحث زاوية مختلفة ينظر منها إلى الموضوع.

من الأساليب الأخرى للمضي قدما في (خطوات عملية) تشييد معالم مفهوم ما، أن يستحدث له الباحث تعريفا ما، علما بأن فكرة **المفهوم** وثيقة الصلة بفكرة **التعريف**. ففي مرحلة ما من مراحل معالجة مفهوم راهن أو استحداث مفهوم جديد، يكون من المهم – غالبا – تعريف هذا المفهوم.

وهذا لا يعني أن جميع المفاهيم يجب تعريفها بالضرورة، علما بأن التصلب في هذه المسألة قد يفضي بنا إلى البعد عن الصواب. "فكلمة السبب cause –مثلا– لا يمكن وضع تعريف لها، إلا أنها رغم ذلك كلمة لا يستغني عنها معظم العلماء" وفقا لما يقوله ريمون بودون Raymond Boudon (1995: 561). "وهكذا فإنه ليس في الإمكان تعريف كثير من الكلمات، مع أنها لا تزال تستخدم بصورة طبيعية في اللغة العلمية".

توجد أنماط مختلفة للتعريفات، وفي مرحلة مبكرة من مراحل التنظير، قد يكون وجود تعريف ملائم أفيد شيء للباحث. فكثيرا ما يوصي المنظِّر بأن يستحدث تعريفه الخاص به عن طريق ذكره لما يعنيه من هذا اللفظ/ أو المصطلح (ويسمى هذا النوع بالتعريف الوصفي) بدلا من أن يحاول إقرار الاستخدام الحالي لمصطلح ما (وهو أمر قد يكون مفيدا لتحقيق أغراض أخرى). كما يمكن التأكيد على أن التعريف يجب أن يكون ذا طابع كاشف –أعني بذلك وجوب تحديده للملابسات والظروف التي في ظلها يكون تعريفا معتمدا.

إن مجرد ذكر الباحث لما يتعين تعريفه (أي الشيء المعرف) وللطريقة التي يتم تعريفه بها، يمكن أن يؤدي إلى أفكار جديدة. والتعريفات –أيضا– مفيدة لأسباب تتعلق بالوضوح والدقة (للاطلاع على مقدمة عن موضوع التعريفات، على

سبيل المثال، انظر: Robinson 1950). ومن التعريفات المفيدة في هذا الخصوص، ما يمكن للمرء أن يذكره من التعريفات التي تترافق مع تقديم فيبر للمفاهيم الأساسية لعلم الاجتماع في الفصل الأول من كتابه بعنوان "الاقتصاد والمجتمع" (Weber 1978).

من المهم أن يتفطن الباحث إلى وجود خطوات عديدة لعملية استخدام مفهوم جديد. فبدء هذه العملية باستحداث تعريف ما، لا يكون –في الغالب– هو الأسلوب الأفضل في مباشرة الأمور، ويرجع ذلك لأسباب كثيرة. منها أن الفكرة التي تستوفي عرضها – في الغالب – وتختمها بذكر مفهوم لها، فإنها تصبح فكرة خاطئة بمجرد أن تضع تعريفا لهذا المفهوم (انظر على سبيل المثال Geertz 2006: 3-5).

والفكرة التي يمكنك، بطريقة ما، أن تضع لها تعريفا دقيقا، تكون هي الأخرى فكرة خاطئة. فحين يوضع تعريف لكلمة ما، وكما يشير إلى ذلك فيتجنشتاين Wittgentien، تنتقل المشكلة – أساسا – إلى الكلمات الأخرى (أي أن الكلمات الأخرى الواردة في التعريف ستحتاج هي الأخرى للتعريف).

والأهم من ذلك، أن الاندفاع في استحداث تعريف ما قد يكون اندفاعا في إصدار حكم على شيء. وسبب ذلك أن أي مفهوم، شأنه شأن أي تفسير/ أو تعليل، من النادر أن يستطيع الباحث صياغته في بداية العملية البحثية. إذ ليس في الإمكان –غالبا– استحداث مفهوم ما قبل أن يكون البحث قد جرى مجراه.

قد يكون من المفيد طرح شاهد على هذا الكلام. ففي كتابه بعنوان "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" " The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism" يبدأ فيبر بوصف تفصيلي لروح الرأسمالية، وليس لمفهوم الرأسمالية. وهذا إجراء مقصود من جانبه، كما أنه يخبر القارئ بأنه لا يستطيع أن يبدأ البحث والاستقصاء "بتعريف للمفاهيم" (Weber 1930: 48).

وفقا لما يذهب إليه فيبر، يجب عليك أن تبدأ البحث "بوصف مؤقت"، كما أن "مثل هذا الوصف يعتبر ... أمرا لا غنى لك عنه كي تفهم حقيقة موضوع الاستقصاء فهما واضحا ... (وعلى النقيض من ذلك) فإن المفهوم النهائي والدقيق لا يمكن أن يتخذ مكانا له في بداية الاستقصاء، بل يجب أن يأتي في النهاية" (Weber 1930: 47).

قبل أن يستقر قرارك على مفهوم ما، يمكنك أن تسمح لخيالك بالانطلاق حراً، هادفاً من ذلك إلى ابتكار بعض الأفكار الإبداعية (انظر على سبيل المثال Weber

(94 :1946. ولكن بمجرد استيفاء هذا العمل، يتوجب عليك أن تجعل تحليلك محكماً غايةً الإحكام، ومن أجل هذا الهدف، فأنت تحتاج للمفاهيم الذهنية.

فالمفهوم، وهو ما يشير إليه فيبر ايضاً، يمثل واحدة من الأدوات الرئيسية التي تستخدمها المعارف العلمية كلها (Weber 1946:151). فهو يتيح لك المضي قدماً في طريق البحث. وهو يقوم بهذه المهمة من خلال قدرته "**على أن يرسخ (في وعيك) المعرفة بما هو جوهري**" (Weber 1975. 213).

في إحدى كتاباته يصف فيبر "قصة" اكتشاف المفهوم، فيقول:

"إن الحماس الشديد الذي يتسم به كتاب "الجمهورية" "The Republic" لأفلاطون، يجب أن يفسَّر، في التحليل الأخير له، بناءً على الحادثة الواقعية التي اكتُشف فيها المفهوم الذهني، بطريقة مقصودة واعية للمرة الأولى، وباعتبار أنه واحد من الأدوات الهامة للمعرفة العلمية كلها".

وقد سبق لسقراط أن اكتشف معنى "المفهوم" "concept" داخل ما يحمله هذا اللفظ من معنى حسي. ولم يكن سقراط هو الإنسان الوحيد الذي اكتشف معنى "المفهوم" في هذا العالم. فالمرء يعثر في الهند على بدايات منطق مشابه تماماً لمنطق أرسطو، إلا إننا لا نجد في أي مكان آخر، سوى كتاب "الجمهورية" لأفلاطون، هذا التفطن لأهمية المفهوم. (Weber 1946: 41).

في المقطع التالي من هذا التاريخ الموجز لفكرة "المفهوم"، يصف فيبر كيف ظهرت في الفلسفة الإغريقية المبكرة تلك الفكرة التي ترى أنك إن استطعت أن تعثر – فحسب – على المفهوم الصحيح/ أو الصورة الذهنية الصحيحة لظاهرة ما، فستكون مشكلة العثور على معناها الصحيح قد حلت. قُدِّر لهذه الفكرة أن يكون لها تأثير عميق على الفكر الغربي، كما أن النزعة الفكرية للبحث عن المفهوم الحقيقي الوحيد، والذي يمكن أن توجد به كافة التجليات المختلفة الموجودة في واقع ظاهرة ما، أقول: إن هذه النزعة الفكرية لاتزال تستحوذ على اهتمامات العلم الاجتماعي.

ومما كتبه فيبر في هذا المعنى قوله:

"في اليونان القديمة، ظهرت للمرة الأولى وسيلة سهلة التناول (أي: المفهوم) والتي بها يستطيع المرء أن يخدع شخصاً ما بحيث لا يمكن لهذا الشخص أن يؤول أمره إلا بالاعتراف بواحد من هذين الأمرين: فإما أن يعترف بأنه لا يعلم شيئاً "عن هذا المفهوم"، وإما أن يعترف بأن هذا المفهوم ولا شيء غيره هو الحقيقة، أي الحقيقة **الأبدية** eternal truth التي لا يمكن أن تتلاشى أبداً ما تتلاشى تصرفات

العميان (في كهف أفلاطون). تلك الفكرة كانت بمثابة المعرفة الرائعة التي تجلت لأذهان أتباع سقراط فبدأوا يتفطنون لها للمرة الأولى في حياتهم. **من هذا المنطلق، بدا أن الأمور تسير وفقاً لما يلي: بمجرد أن يعثر المرء على مفهوم سليم "لصورة" الأشخاص الجذابين the Beautiful، أو الأخيار "the good" أو الشجاعة، أو النفس مثلاً - أو لأي شيء كان - فإنه يستطيع حينئذ أن يدرك معناه الحقيقي.** (Weber 1946: 141)، علما بأن علامات التأكيد من عندي).

يمكن العثور على معظم الجزء المتبقي مما يتوجب على فيبر أن يقوله بشأن الأسلوب المتبع لاستخدام المفاهيم الذهنية في العلم الاجتماعي، أقول: يمكن العثور على ذلك في مناقشته لموضوع "النمط المثالي" 'the ideal type'، وهو مصطلح التقطه من أحد رفاقه ثم أضفي عليه ما أختاره هو له من معنى خاص.

غالباً ما يناقش فيبر موضوع "النمط المثالي" انطلاقاً من منظور يستند إلى فلسفة العلم، وكثيراً ما يكون ما يقوله فيبر عن هذا الموضوع عصيا على فهم القارئ له وإدراكه (على سبيل المثال، انظر Bruun 2007). وفيما يلي "من هذا الفصل"، لن أبذل محاولة في تفسير كلام فيبر عن هذا الموضوع، بل سأركز - بدلاً من ذلك - على مهمة أخرى- أعنى بذلك: التوضيح التام للنتائج العملية لاستخدام الأنماط المثالية حين تقوم بالتنظير، وفقاً لما يذهب إليه فيبر.

يقول فيبر ما مفاده أن "النموذج المثالي" عبارة عن مفهوم تم استحداثه على يد العالم الاجتماعي ومن أجل هذا العالم. ويمكننا وصف هذا النموذج بأنه "تركيبة عقلية/ أو "تركيبة ذهنية" "a mental construct" أو قل "صورة ذهنية" "mental picture" (وبالألمانية Gedanken Bild) وهذا معناه، ضمن معان أخرى، أن هذا النموذج المثالي ليس هو نفس الواقع "أي: ليس مطابقاً للواقع نفسه"، وأنه لا يستطيع - لهذا السبب - أن يعبر عن الواقع كله. فهذا المفهوم - في حقيقته - تم استحداثه على يد العالم الاجتماعي من خلال توليفة مكونة من عمليتين ذهنيتين هما: عملية تجميع ما هو معروف من المعلومات عن إحدى الظواهر، وعلمية إبراز السمات الأساسية لهذه الظاهرة بأسلوب تحليلي (Weber 1946: 90: 93).

للنمط المثالي عدد من الوظائف العملية التي يؤديها، ومنها أن يوفر الوضوح والدقة في استعمال المصطلحات. ونظراً لأن الواقع ثرى "بالتفاصيل" ومتناقض بصورة لا نهائية، فإن من المهم أن يكون النمط المثالي له واضحاً ومحكما "أي: مترابط منطقيا مع نفسه". إذا استوفي نمط مثالي هذه المعايير، فإنه يكون مفيداً لك

حين تقوم بعملية التنظير، ويكون مفيداً بصفة خاصة – حين تقوم بعرض النتائج التي توصل لها البحث.

أيا ما كان الأمر، فإن أهم وظيفة للنمط المثالي مختلفة عما ذكرناه من وظائفها، وإن اختلاف هذه الصفة عن غيرها هو – بالتحديد – ما يجعلها ملائمة– بعينها– ملاءمة تامة للتنظير أثناء مرحلة الدراسة المسبقة. وأعني بهذه الوظيفة أن يكون النمط المثالي ذا طابع استدلالي Heuristic (أي: قائم على التجربة والاستكشاف).

ويكرر فيبر القول بأن النمط المثالي يعتبر "أداة استدلالية" "Heuristic tool"، وهذا معناه أنه يجب استخدام النمط المثالي – أساساً – لاكتشاف جوانب جديدة لظاهرة ما (انظر على سبيل المثال (Weber 2012: 116, 132) فالنمط المثالي "أداة" وليس هدفاً" (Weber 2012: 126).

يمكن للنمط المثالي أن يكون ذا طابع استدلالي بأساليب عديدة. من هذه الأساليب أنه يساعد الباحث على ابتكار الفرضيات hypotheses. وفي هذا المعنى يقول فيبر إن النمط المثالي "ليس فرضية" ولكنه يوفر للباحث التوجيه والإرشاد للوصول إلى بناء تركيبة ذهنية/ أو صورة ذهنية للفرضيات (Weber 1949: 90).

أما الأسلوب الوحيد الذي يمكن به للنمط المثالي أن يكون ذا طابع استدلالي، وهو الأسلوب الذي أشعر شخصياً أنه أنفع الأساليب، فهو الأسلوب التالي. يقول فيبر إن من أغراض النمط المثالي أن "يقوم بدور المرفأ الذي تلجأ إليه قبل أن تتعلم كيف تبحر بسفينتك في بحر الحقائق الإمبيريقية الواسع الأرجاء" (Weber 1949: 104). وهذا معناه، فيما أتصور، أنه حين تبدأ دراسة ظاهرة معقدة، فمن المفيد جداً أن يتوافر لك نمط مثالي لها في متناول يدك. وبمجرد وصولك للحظة التي تدرك فيها الاتجاه الذي يتعين عليك النظر فيه "إلى الظاهرة"، يكون الوقت قد حان لتبدأ الخطوة رقم اثنان. وتتمثل هذه الخطوة في التركيز على ما بين النمط المثالي والواقع العملي من فوارق واختلافات بارزة (إن وجدت)، ثم محاولة تفسير سبب وجود هذه الفوارق والاختلافات. في هذه المرحلة يكون النمط المثالي الأولى (أي: الذي بدأت به عملك) قد استوفي أداء مهمته وأصبح بإمكانك تجاهله.

مثال ذلك، أنك إن كنت تريد دراسة نظام الإقطاع في اليابان، فقد تبدأ هذا البحث باستخدام نمط مثالي من نظام الإقطاع الغربي "أي الأوروبي"، أو باستحداث نمط مثالي "من عندك" بدلاً من نمط الإقطاع الأوروبي، في حالة عدم وجود مثل هذا النمط المثالي. حينئذ، ستكون قادراً – بمساعدة النمط المثالي – على أن تركز

انتباهك على جوانب معينة في التاريخ الياباني، حال تجاهلك لجوانب أخرى، وبهذا الأسلوب تتوصل إلى الطريقة التي تخصك في مواصلة البحث. وعندما تكتشف وجود اختلافات بارزة بين مفهوم نظام الإقطاع الغربي والحقيقة الواقعية للإقطاع الياباني، فيستوجب عليك حينئذ أن تقدم تفسيراً لوجود هذه الاختلافات يستند إلى المعطيات الإمبيريقية لبحثك، وقد يتوجب عليك أيضاً أن تستحدث مفهوماً جديداً، وربما يكون هذا المفهوم خاصا بنظام الإقطاع الياباني فإن لم يحدث ذلك، فبإمكانك أن تحتفظ بالنمط المثالي الأصلي.

ذهب الباحث هربرت بلومر Herbert Blumer إلى رأى مفاده أن وظيفة مفاهيم العلم الاجتماعي كلها هي أن تقوم "بتفطين" العالم الاجتماعي للثراء الإمبيريقى للواقع، ولهذا الرأي صلة معينة بما يقوله فيبر (Blumer 1954). ويؤدى **المفهوم الذي يفطن ذهن الباحث** Sensitizing Concept (للثراء الإمبيريقى للواقع) إلى مساعدته على رؤية امور جديدة عن طرق شحذه لحواسه ومداركه. إذا، فالمفهوم الذهني ليس **مفهوما نهائيا** definitive concept، كما إنه لا يوجد مثل هذا المفهوم في العلم الاجتماعي، وفقاً لما يذهب إليه بلومر.

دعنا الآن من موضوع النمط المثالي ولنعد إلى مشكلة كيف تستحدث مفهوماً ذهنياً في المقام الأول. إن ما أريد مناقشته أولاً هو الوضع الذي ينشأ فيه مفهوم من مفاهيم العلم الاجتماعي انطلاقاً من أحد المصطلحات الموجودة بالفعل وبطريقة تصادفية غير مقصودة. في هذه الحالة، والتي هي حالة شائعة، كثيراً ما يكون معنى هذا المفهوم الذهني متقلباً وغير دقيق.

كمثال على ذلك، سأستخدم كلمة "mobbing"، والتي هي في وقتنا الحالي مصطلح مقبول من مصطلحات العلم الاجتماعي (Ageval 2008). كان أول استخدام لهذه الكلمة سنة ١٩٦٩ من جانب طبيب سويدي حاصل على الدكتوراه أصابه الانزعاج الذي سببه له ما تعرض ابن له بالتبني من تحرش وأذى تحملهما – مضطراً – بدون شكوى. في حديثه عن الـــ "mobbing" (والذي من معانيه الهجوم العدواني)، قام هذا الطبيب بعقد مقارنة واضحة (لهذا المصطلح الجديد) مع نظرية الباحث كونارد Konard عن النزعة العدوانية الوراثية في بعض الحيوانات، وعن الطريقة التي بها توجه مجموعة من الحيوانات، أحياناً، أعمال عنف تهاجم بها واحداً من أعضائها.

تناغمت هذه الكلمة مع (اهتمامات) الناس في السويد. وعندما بدأ مصطلح "mobbing" يتواثب هنا وهناك في وسائل الاتصال اتسع معناه ليستوعب عدداً من

الظواهر الأخرى. مثال ذلك أن هذا المصطلح أُعطى معنى قانونياً، كما أعطى تأويلاً نفسياً. وقد أعطى هذا المعنى الأخير من خلال كتاب ملائم لعامة الشعب كتبه عالم النفس دان أولويس Dan Olweus وظهر في سنة ١٩٧٣، كما أن هذا الكتاب نقل معنى مصطلح "mobbing" (الدال على الهجوم العدواني) من ساحة الجماعة إلى ساحة الفرد، ومن النزعة العدوانية عند بعض الحيوانات إلى السلوك البشرى.

في حين أن عالم النفس أولويس Olweus كان مشغول البال – أساساً – بالأطفال حينما كان يتكلم عن الـــ "mobbing" (بمعنى الهجوم العدواني)، فإن عالم نفس سويديا آخر قام، بعد عشر سنوات، بتوسيع معناه مرة أخرى ليستوعب دلالات أكثر مما سبق. في هذه المرة، كان الفاعلون من البالغين وكان الموقع (الذي شهد هذه الظاهرة) هو مكان العمل العادي، حيث يحاول بعض الأفراد إزاحة/ أو إقصاء واحد من زملائهم الموظفين بالقوة، أو إيذاءه واستفزازه بطريقة مختلفة. في وقتنا الحالي، يشتمل مصطلح العلم الاجتماعي 'mobbing' – أيضاً – على هذا النمط الأخير من السلوك. وبعبارة أخرى أقول: إن المعنى الراهن لهذا المصطلح يمثل – بدرجة أو بأخرى – حاصل جمع ما في تاريخه من أحداث تصادفية.

بيد أن بالإمكان أيضاً أن تظهر مفاهيم العلم الاجتماعي للوجود بأسلوب فيه قدر أكبر من التروي وإعمال العقل. من الشواهد الشائعة إلى حد بعيد على هذا الأسلوب أن يتم تحويل مصطلح مستخدم في العلم الاجتماعي إلى مفهوم شامل كامل Full-fledged concept في مرحلة لاحقة. وقد نسمى هذه المصطلحات، وفقاً لما يذهب إليه الباحث روبرت ك. ميرتون Robert K. Merton، **مفاهيم أولية** Proto-Concepts. كما أن هذا الباحث وصف كيف تختلف هذه المفاهيم الأولية عن المفاهيم الكاملة بأسلوب حافل بالشرح والتوضيح.

فكلمة proto تعنى الشكل الأكثر تبكيراً لشيء ما، لذلك (وكما يقول ميرتون)، فإن كلمة proto-concept تعنى: فكرة مبكرة، وأولية، وخصوصية، ويغلب عليها عدم الوضوح" (Merton 1984: 267). وعلى النقيض من ذلك، "فإن المفهوم عبارة عن فكرة عامة يمكنها، إذا مُيزت عن غيرها، وصيغت صياغة ذات طابع تعميمي بشكل ملحوظ، يمكنها أن تقوم بتوجيه وإرشاد الباحثين على نحو فعال في سبر أغوار ظواهر تبدو في ظاهرها مختلفة عن بعضها". يقول ميرتون: "بينما تؤدى المفاهيم الأولية إلى حدوث انقطاعات مبكرة في مسيرة التطور العلمي"، فإن المفاهيم التامة في تطورها (أي: المفاهيم الشاملة الكاملة) "تؤدى إلى تحقيق أشكال

التواصل "في مسيرة التطور العلمي" بما تقوم به من توجيه أنظارنا نحو الاهتمام بأوجه التشابه القائمة بين ظواهر منفصلة عن بعضها انفصالاً تاماً بشكل ملحوظ" (Merton 1984: 267).

كمثال على الطريقة التي بها يمكن تحويل مفهوم أولى ما إلى مفهوم شامل كامل، يمكننا الاستشهاد بفكرة "الآلية الاجتماعية/ أو الميكانيزم الاجتماعي. فمصطلح social mechanism يمكن العثور عليه في عدد من المؤلفات المبكرة للعلماء الاجتماعيين إلا إنه لم تجر مناقشته كثيراً في تلك المؤلفات، ولم يحول إلى شيء يشبه المفهوم النظري الشامل الكامل. وهذا التحويل لم يحدث إلا منذ عهد قريب جداً (انظر على سبيل المثال Hedstrom and Swedberg 1997).

وإليك مثالاً آخر على مفهوم أولى يرجى له أن يخوض عملية التحول إلى مفهوم شامل كامل، ألا وهو مفهوم التنظير. ففي مجال علم الاجتماع، ظهرت كلمة "التنظير" "Theorizing" حوالي سنة ١٩٠٠، إلا إنها، وفقاً لبحث أجرى عليها في الموقع العلمي الشبكي JSTOR، كان لزاماً عليها أن تنتظر لمدة تزيد عن قرن من الزمان لتقدم بوصفها مفهوما شاملاً كاملاً من مفاهيم العلم الاجتماعي (Small 1896: 306; Svedberg 2012).

ليس واضحاً نوع العمليات الإدراكية التي من خلالها يتم تركيب (عناصر) المفهوم، ولا الطريقة التي وفقاً لها يقوم الباحث بمباشرة عملية تركيب (عناصر) مفهوم ما بأسلوب واع مقصود. أرجو أن نعرف المزيد في المستقبل، وذلك بفضل علم الإدراك. في نفس الوقت، وبصورة مؤقتة، يمكنني أن أحاج بأنك حين تنتقل من ملاحظة شيء ما إلى تحويله إلى مفهوم ما، فإن من الممكن أن تباشر هذا الأمر بأسلوبين على الأقل: أولهما أن **تجرد** Abstract، وثانيهما أن **تعمم** Generalize.

حينما تجرد، فإنك تزيل التفاصيل، أو تستخدم نوعاً من المجاز، أو تترقى صاعداً في مدارج تفكيرك وتحاول أن تستحدث مستويات مختلفة للتجريد. وعلى النقيض من ذلك، يحدث عندما تقوم بالتعميم أنك تتحرك – أساساً – نحو أجناب الظاهرة. وأنت تقوم بهذا الإجراء عن طريق إدماجك ظواهر أخرى، وعثورك على أمور مشتركة بين الظاهرة التي تدرسها وهذه الظواهر.

من علامات كون المرء عالماً اجتماعياً واسع الخيال، وفقاً لما يذهب إليه رايت ميلز C. Wright Mills، اتصافه – تحديداً – "بالقدرة على التحرك المتكرر صعوداً وهبوطاً بين مستويات التجريد" (Mills 1959: 34). وكان إيفرت سي.

هيوز Everett C. Hughes يعنى شيئاً ما شبيها بهذا المعنى عندما قال إن من الواجب على العالم الاجتماعي – أيضاً – أن يكون قادراً على رؤية "التشابه الموجود في داخل قوقعة التنوع "أو: التباين" Variety (Hughes 1984a: 503)

إن صعودك وهبوطك على سلم التجريد، بجانب قدرتك على توسيع نطاق مفهوم ما من خلال التعميم، لهو أمر يمكنك تعلمه من خلال التدريب. وهو– أيضاً – نشاط يتفوق فيه أفراد معينون. من بين الفلاسفة، أرى أن كيركجارد Kierkegaard فيلسوف فذ لا يتفوق عليه أحد حين يتعلق الأمر بالسهولة التي بها يصوغ المفاهيم الجديدة ويعالج مستوياتها المختلفة. فالقراءة التي تعمق داخل بعض كتبه، والتي تعد مؤلفات متوهجة بالعبقرية، ومنها كتابه بعنوان "التكرار"، 'Repetition'، وكتابه بعنوان "العصر الحالي" 'The present Age'، أقول: إن هذه القراءة المتعمقة لكتبه لا تقتصر على كونها تنير العقل وتثريه بالمعرفة، بل هي– أيضاً – قوية جداً في إلهامها لك حين تحاول استحداث مفهوم ما.

من الممكن أيضاً أن تقع في الخطأ بطرق مختلفة حينما تكون مشغولاً بالصعود والهبوط على سلم الملاحظة، وهو أمر ناقشه – بصفة خاصة– الباحث جيوفانى سارتورى Giovanni Sartori وعدد من علماء السياسة المتأثرين بأعماله (انظر على سبل المثال (Sartori 1970; Gollier and Gearing 2009). ويمكننا العثور على وجهة نظر مفيدة جدا لأمثال تلك الأفكار المتعلقة "**بتوسيع نطاق المفاهيم**" Conceptual Stretching، **وارتحال المفاهيم** 'Conceptual Traveling، وما يشبهها من أفكار أخرى، أقول: يمكننا العثور على وجهة النظر المذكورة في أعمال الباحث جارى جورتز Gary Goertz (انظر على سبيل المثال كتابه الصادر سنة ٢٠٠٦).

وفقاً لما يذهب إليه الباحث جورتز، يمكنك أن توسع نطاق مفهوم ما عن طرق تقليصك لعدد السمات المحورية المرتبطة به، ويمكنك – عكس ذلك– أن تضيق نطاق هذا المفهوم بأن تضيف سمات أخرى ترتبط به. وقد يقوم مثال محسوس على هذا المعنى بتسهيل فهم دعوى جورتز. فأنت تستطيع أن تعرف مفهوم كلمة "الفلاحين" 'Peasants' بأسلوب عام جدا، كأن تقول عنهم مثلاً أنهم "الزراع الريفيون" "Rural Cultivators"(١). ويمكنك حينئذ أن تخصص "هذا التعريف" فتضيف إليه عبارة: أنهم يعيشون في "**القرى الفلاحية**" "Peasant villages" (٢)؛ وبأنهم يبدون "**مستويات مرتفعة من الخضوع الاجتماعي القروي**" (٣)؛ وبأنهم "**يسيطرون على الأرض الزراعية/ أو يملكونها**" (٤) (Goertz 2006. 73).

يشير جورتز أيضاً إلى أن نظريات مختلفة تستخدم توليفات مختلفة من السمات المذكورة في تحليلاتها (لمفهوم) الفلاحين. مثال ذلك أن أنصار اتجاه الاقتصاد الأخلاقي Moral Economy يميلون إلى تعريف الفلاحين بأنهم "الزراع الريفيون (١) الذين يعيشون في قرى فلاحية (٢) ويبدون مستويات مرتفعة من عدم الخضوع الاجتماعي (٣) ومن المحتمل أن يرغب الماركسيون في أن يضيفوا إلى تعريف الفلاحين أنهم – إلى جانب ما سبق ذكره – يسيطرون على الأرض الزراعية أو يملكونها (٤).

من المسائل التي يحرص جورتز جداً على لفت النظر إليها أنه: بناء على الطريقة التي يعرف بها المفهوم، سينتهي الباحث إلى (اختيار) مجموعات مختلفة. وقد عبر ميرتون عن نفس الفكرة، إلا إنه أشار أيضاً إلى ما تعنيه هذه الفكرة بالنسبة للملاحظة، فقال: "المفاهيم" في هذه الحالة، تشكل عناصر التعريفات (أو عناصر التوجيهات الخاصة) بما يجب ملاحظته" (Merton 1945: 465).

انطلاقاً من رؤية تنظيرية، يعنى هذا الكلام أنك قد تريد أن تتلاعب بالتعريفات المختلفة وترى ما يحدث عندما تفعل ذلك. وهذا التصرف يمثل – أيضاً – واحداً من الأسباب التي تفسر لماذا يكون العنصر المتكرر جزءاً من التنظير المبكر. إذ إنك تبدأ بملاحظة الأشياء، وبعد ذلك تنتقل إلى صياغة المفهوم، وبعد القيام بهذه المهمة، قد يتعين عليك أن تعود للملاحظة إن كان المفهوم الذي صنعته يجعلك تحتاج إلى مزيد من البيانات لتكتشف حقائق الأمور.

توجد أيضاً أساليب مختلفة لمباشرة العمل حينما تريد أن تُفعّل مفهوما ما، وهنا يذهب جورتز إلى أنه يجب عليك دائماً أن تحاول تقليص المسافة التي بين التعريف الخاص بمفهوم ما وتفعيل هذا المفهوم. والأمر الذي لم يتكلم عنه جورتز، ولكنه قد يكون كامناً في طوايا مقاربته، وهو أنك بتلاعبك بالأساليب المختلفة التي بها تفعل مفهوما ما، قد تكتشف أيضاً بعض الجوانب الجديدة لإحدى الظواهر.

والواقع أن جورتز، في مؤلفه الهام عن تشييد عناصر المفاهيم، يهتم اهتماماً شديداً للغاية بالأسلوب الذي به تقوم بخلق مفاهيم جديدة تماماً، أو قل بصورة أكثر تعميماً، إنه يهتم بالأسلوب الذي به تقوم بمعالجة المفاهيم في سياق الاكتشاف. وهذا الوضع محبط للنفس إلى حد ما لأن من الواضح أن جورتز يطمح إلى استيعاب كافة الجوانب الرئيسية لاستخدام المفاهيم.

لا يعنى هذا الكلام أن المؤلف المذكور لجورتز ليس مفدياً فيما يتصل بالأسلوب الذي يجب استخدامه في معالجة المفاهيم، وذلك في سياق الاكتشاف. بل

العكس هو الصحيح، فالمعرفة الجيدة بمؤلفه هذا أمر جوهري بالنسبة لفهم ما يحدث أثناء هذه العملية.

من خلال استعمالك لقدر محدود من الحيلة والتلاعب، يكون بالإمكان أيضاً أن تحول أفكار جورتز العميقة إلى اتجاه استدلالي. خذ، مثالاً على ذلك، إصراره على أنك حين تحاول رسم خريطة تفصيلية لمعنى مفهوم ما، فإنه يجب عليك أيضاً أن تقرر ما هو اللفظ المناقض لاسم هذا المفهوم. فحين تدرس موضوع الحرب أو موضوع الثورة، يلزمك أن تحدد ملامح ما تعنيه كلمة اللاحرب وكلمة اللاثورة. وحين تحاول إبراز ملامح التعبير المناقض لأمر ما، فقد تنتهي إلى اكتشاف بعض الأفكار الجديدة والمثيرة للاهتمام. عن طرق مباشرتك العمل بهذا الأسلوب، فإنك تتحرك بسهولة داخل منطقة جديدة ومثيرة للاهتمام.

حتى هذه اللحظة من هذا النقاش، كان غالب كلامي متعلقاً باستحداث مفاهيم جديدة، إلا أن الأمر الأكثر شيوعاً حينما تُنظِّر هو أن تستخدم المفاهيم الراهنة، أو تستخدم توليفة من المفاهيم الجديدة والقديمة. فبإمكانك أن تستخدم إما المفاهيم الراهنة، وبدون تغييرها مطلقاً، وإما أن تتمكن من تعديلها شيئاً قليلاً، وهو الأمر الذي يشبه ما يفعله فيبر في أحيان كثيرة. وبإمكانك أيضاً أن تستخدم المفاهيم الراهنة باعتبار أنها مادة خام لبناء مفاهيم جديدة، وهو أمر تذكرنا به بعض المصطلحات (المصوغة بهذه الطريقة) ومنها مصطلح "الصراع الطبقي" "class struggle" ومصطلح "التناقض الناجم عن المكانة الاجتماعية" / أو "تناقض المكانة الاجتماعية" "status contradiction"، ومصطلح "المؤسسة الجشعة" "greedy institution".

إن استخدامك البارع لمفاهيم العلم الاجتماعي الراهنة يفترض مسبقاً أنك تعرف من قبل قليلاً من المفاهيم معرفة تامة، بحيث يكون لديك حينئذ شيء تعتمد عليه وتستخدمه في تلاعبك بالمفاهيم. تتصف بعض المؤلفات باحتوائها على ثروة هائلة من المفاهيم المثيرة للانتباه؛ وبناء على ذلك يكون من المفيد لك أن تلم بقدر ما من معرفتها والدراية بها (انظر كذلك الفصل الثامن).

من مؤلفات علم الاجتماع الحافلة بالمفاهيم كتاب المفكر فيبر بعنوان "الاقتصاد والمجتمع" "Economy and Society" (Weber 1978). ويصدق هذا الوصف – خصوصاً – على الفصل الأول منه، والذي يشتمل على المفاهيم التي اعتبرها مؤلف الكتاب المفاهيم الأساسية لعلم الاجتماع (الفصل الأول، وعنوانه "المفاهيم الأساسية لعلم الاجتماع" "Basic Sociological Concepts" (وباللغة الألمانية:

(Sozologische Grundbegtiffe). يقوم فيبر بالتعريف الدقيق لكل واحد من هذه المفاهيم، ويحاول أيضاً أن يجمعها معاً، إما في مجموعات، وإما بربطها بمفهومه المحوري للفعل الاجتماعي.

مع أن من المحتمل أن يوافق المرء أو لا يوافق على الأسلوب الذي به يعرف فيبر هذه المفاهيم الأساسية، فإن هذا الفصل لا يزال مفيداً جداً لأي إنسان يريد أن يتوافر لديه عدد من مفاهيم العلم الاجتماعي المحكمة الجاهزة للاستخدام. ويمكنك ايضاً أن تضيف إلى رصيدك من المفاهيم عن طريق البحث في الفصول الثلاثة التالية من كتاب "الاقتصاد والمجتمع" (الفصل الثاني بعنوان: "التصنيفات السوسيولوجية للحياة الاقتصادية "؛ والفصل الثالث بعنوان "أنماط الهيمنة المشروعة"؛ والفصل الرابع بعنوان "جماعات المكانة والطبقات").

كما أن الكتابات السوسيولوجية لجورج زيمل George Simmel حافلة بالمفاهيم المفيدة، إلا أن هذه المفاهيم تتسم بطابع حدسي وفني أكثر مما عليه حال مفاهيم فيبر. ونادراً ما يعرف زيمل أحد المفاهيم، كما أنه لا يحاول ربط مفاهيمه بعضها ببعض. وقد يهبط هذا الصنيع بقيمتها انطلاقاً من وجهة نظر ما، إلا أن هذا الأمر يسهل عليك أيضاً أن تستولى عليها وتجعلها ضمن مفاهيمك الخاصة بك.

كان زيمل على وعى كبير بهذه الصفة الخاصة التي تتسم بها مفاهيمه، كما أنه تعهدها بالصقل والتهذيب فعلاً. شاهد ذلك أنه قبل وفاته بوقت قريب كتب في مفكرته اليومية أن أفكاره لا تختلف كثيراً عن المال الذي ترثه، والذي يمكنك أن تستخدمه في عمل أي شيء تريده، فقال: "سوف تكون تركتي "الفكرية" شيئاً شبيهاً بالنقود التي توزع على عدد كبير من الورثة، حيث يحول كل واحد منهم نصيبه منها إلى مصدر ربح يتوافق مع طبيعته، كما أن هذا الربح لن يكشف بعد ذلك عن أنه مستمد من تركتي" (Simmel 1919: 121).

يضاف إلى ذلك أن كتابات زيمل توضح وجهة النظر التي تقول إن من المفيد لك ألا تقتصر على العلم والدراية بالمؤلفات التي تحتوي على عدد من المفاهيم التي صيغت بدقة وعناية، بل ينبغي لك أيضاً أن تكون حسن الاطلاع على التراث الفكري للعلم الاجتماعي، وهو التراث الحافل بالأفكار. فبعض المؤلفات، والتي منها مثلاً كتاب "ثروة الأمم" "The Wealth of Nations" (للمفكر الاقتصادي الإسكتلندي آدم سميث – ١٧٢٣ – ١٧٩٠)، وكتاب "الأمير" لميكافيللى (رجل الدولة بإمارة فلورنسا، إيطاليا ١٤٩٦–١٥٢٧)، تحتوي على الكثير من الأفكار التي يمكن تحويلها بسهولة إلى مفاهيم حديثة للعلم الاجتماعي.

من بين المؤلفات المعاصرة في علم الاجتماع، والتي تحتوي على مفاهيم كثيرة مثيرة للانتباه، وجدت أن كتب المؤلفين المذكورين فيما بعد كتب مفيدة بصفة خاصة، وهم روبرت كيه. ميرتون Robert K. Merton، وإرفينج جوفمان Erving Goffman، وإفرت سي. هيوز Everett C. Hughes. فكتب ميرتون تحتوي على عدد من المفاهيم أكثر بكثير ما يعلمه معظم علماء الاجتماع، كما أن هذه المفاهيم قد صيغت بعناية وإتقان، كما هو الحال مع مفاهيم المفكر فيبر. وعلى النقيض من ذلك، فإن كتب هيوز وجوفمان أقرب شبها بكتب زيمل: فهي مفرطة في سمتها الإيحائية، كما أنه يسهل عليك أن تجعلها من مفاهيمك الخاصة بك.

إن للأمر الذي يجعل من العسير مناقشة طبيعة واستخدام مفاهيم العلم الاجتماعي بأسلوب أكثر إقناعاً مما اتبعناه حتى الآن في هذا الفصل، أقول: إن لهذا الأمر صلة وثيقة بالمكانة الغامضة التي يشغلها المفهوم في العلم الحديث. إن الأمر الذي أشير إليه يتمثل في تلك البحوث الهامة التي نفذت على أيدي علماء الإدراك منذ عقود قليلة مضت، والتي بمقتضاها تكون وجهة النظر الكلاسيكية للمفهوم وجهة نظر مخطئة (انظر على سبيل المثال "Smith and Medin 1981, Murphy 2002).

يقصد هنا بعبارة "**وجهة النظر الكلاسيكية للمفهوم**" تلك النظرية التي ترجع نشأتها إلى العصور القديمة لحضارة الإغريق، والتي اشتهرت بدفاع أرسطو عنها، والتي ترى أن المفهوم يغطى "أي: يشمل/ أو يستوعب" فئة معينة من الأشياء، كما أن له حدوداً واضحة تميزه عن غيره. أحياناً ما يقال أيضاً عن وجهة النظر هذه أنها "تعريف وجودي" "Essentialist definition" للمفهوم، وأنها تعنى أن بالإمكان إحصاء عدد الشروط الضرورية والمناسبة لأي مفهوم (انظر على سبيل المثال: Goertz 2006).

تتمثل مُشكلة هذه المقاربة في أن الأفراد لا يستخدمون المفاهيم بهذا الأسلوب، وذلك وفقاً لما يذهب إليه علماء الإدراك. بدلاً من ذلك، قد يستخدم الأفراد المفاهيم باعتبار أنها نوع من المقاييس، وهو ما يعنى أنهم يرون أن ظاهرة ما تعتبر جزءاً لا يتجزأ من مفهوم ما، وأن غيرها من الظواهر أقل اتصافاً بهذه الصفة (وهي وجهة النظر المسماة وجهة نظر النموذج الأولى (prototype). مثال ذلك أن طائر (أبو الحناء يعتبر واحداً من الطيور أكثر مما يعتبر بطريقاً مائياً Penguin أو نعامة.

كما أن المفاهيم الذهنية للأفراد تتركز أحياناً حول أمثلة حسية ملموسة، وبأسلوب مضاد لوجهة النظر الكلاسيكية. فلو أنك تربيت في طفولتك في بيت

يشاركك فيه كلب حراسة ورعى من النوع المسمى "جرمان" "German"، فمن الراجح إلى حد كبير أن يكون هذا النوع من الكلاب هو الكلب النموذجي في نظرك (وهو الرأي الذي تقول به وجهة النظر المزعومة والمستندة إلى مفهوم "النموذج/ أو المثال": Example view:) وباختصار شديد أقول: إن علم الإدراك يقول بوجود درجة صغيرة من درجات الغموض، مع قصور في الاستمرارية، في الأسلوب الذي يستخدم الناس به المفاهيم في حيواتهم اليومية.

لم يبذل المفكرون إلا جهداً يسيراً في كشف الغموض عن العواقب المترتبة على تلك الرؤية الجديدة للمفاهيم فيما يتصل بتشكيل المفاهيم في العلم الاجتماعي (للاطلاع على مرجع يمثل حالة استثنائية في هذا الشأن، انظر على سبيل المثال (Collier and Mahon 1993). على أية حال، فإن من الواضح أن المرء سيتوصل إلى نوع جديد من مفاهيم العلم الاجتماعي إن اتبع وجهة النظر اللاكلاسيكية (انظر على سبيل المثال Goertz 2006; cf. Ragin 2000).

يذهب جورتز إلى أن بالإمكان، في ظل ظروف معينة، الاستفادة من استخدام المفاهيم اللاكلاسيكية في العلم الاجتماعي أو ما يسميه "المفاهيم ذات التشابه العائلي" "Family resemblance concepts"، متبعاً في ذلك آراء المفكر فيتجنشتاين Wittgenstein. فهو "أي: جورتز" يُعرف هذه المفاهيم "الأخيرة" بأنها مفاهيم تستوفي بعض الشروط الضرورية ولكنها لا تستوفي الشروط الكافية "لما ينبغي أن يكون عليه تعريف المفاهيم الذهنية". شاهد ذلك، أنه كثيراً ما يعرف العلماء الاجتماعيون "**دولة الرفاهية**" "Welfare state" بأنها الدولة التي تستوفي عدداً ما من الشروط/ أو الظروف، وليس كلها. فقد تعرف دولة الرفاهية بأنها دولة توفر، مثلاً، بندين من البنود الثلاثة الآتية: معاشات الشيخوخة، والتأمين الصحي، وتعويضات البطالة.

وفقاً لرؤيتي للأمور، فإن من المؤكد فائدته أن تعلم أن بإمكانك استخدام نوعين من المفاهيم: (١) تلك المفاهيم التي تستوفي كلاً من الشروط الضرورية **بجانب** الشروط الكافية (وهو ما تقول به الرؤية الكلاسيكية)؛ (٢) وتلك المفاهيم التي تستوفي بعض الشروط الضرورية وليس الشروط الكافية (وهو ما تقول به وجهة النظر المستندة إلى المفاهيم ذات التشابه العائلي). على اية حال، فإن الأمر الذي ليس واضحاً تماماً هو أن النمط الأخير من المفاهيم يعبر بدقة عما هو جديد ومختلف بشكل جذري فيما يمكن العثور عليه من رؤية للمفاهيم في كتابات المفكر فيتجنشتاين وفي علم الإدراك.

يمكنك – بطبيعة الأمر – أن تحتج بأهمية ثباتك على موقفك من تأييد الرؤية القديمة للمفاهيم الذهنية في العلم الاجتماعي، حتى لو كان الواقع أن الناس في حيواتهم اليومية يستخدمون المفاهيم بأسلوب مختلف. وسيكون السبب الذي يجعلك تتصرف بهذه الطريقة راجعاً إلى أنه، حين تستخدم رؤية علم الإدراك للمفاهيم الذهنية، يتعذر عليك جداً أن تستوفي المعايير "التي تشترطها تلك الرؤية"، كمعيار الوضوح Clarity، ومعيار الترتيب المنظم لأجزاء المفهوم الذهني Economy، وانتفاء الغموض lack of ambiguity.

كمثال على الأسلوب التقليدي في تعريف المفهوم الذهني، يمكن للمرء أن يستشهد بمفهوم "**الفعل الاجتماعي**" "Social Action" عند فيبر في كتابه بعنوان "الاقتصاد والمجتمع" Economy and Society. فمصطلح "**الفعل**" "action" معرف بأنه: السلوك الذي به أضفي الفاعل معنى "على الفعل"، ومصطلح "Social" "أي: اجتماعي" موضوع هنا لأن الفعل موجه لسلوك الاخرين (Weber 1978: 4). أو ربما نستخدم مثالاً آخر، ونختاره في هذه المرة من كتاب الباحثة ثدا سكوكبول Theda Skocpol بعنوان "الدول والثورات الاجتماعية" "States and Social Revolution". وفقاً لهذا الكتاب، "فإن الثورات الاجتماعية تعني التحولات السريعة، والأساسية، التي تحدث في أوضاع مجتمع ما وفي بنائه الطبقي، كما ترافقها وتشارك في تنفيذها أشكال الرفض والتمرد ذات الأساس الطبقي والمنبثقة من قاع المجتمع" (Skocpol 1979: 4-5).

بصرف النظر عن الطريقة التي بها يحكم حكماً فاصلاً في هذه القضية "وهي قضية تعريف المفاهيم الذهنية"، فإن من الموثوق به أن الرؤية الجديدة للمفاهيم في علم الإدراك تحكم بالبطلان تماماً على ذلك الرأي الذي يقول إن بإمكانك أن تقوم، بطريقة ما، باستقطاب التفسير الصحيح للمفهوم من خلال الأساليب التي يستخدم بها هذا المفهوم. ومن الواضح أن هذا التصرف غير ممكن، وذلك وفقاً لما برهن على صحته المفكر فيتجنشتاين قبل غيره من المفكرين.

ويشرح فيتجنشتاين هذه الرؤية "الجديدة للمفاهيم في علم الإدراك" بما يفيد أنها تشبه إلى حد بعيد جداً تلك الطريقة التي نستخدمها أحياناً ونحن نحاول تعليم الأطفال معاني الكلمات (Wittgenstein 1953). فنحن نشير إلى شيء ما، وليكن هذا الشيء تفاحة "Apple"، ثم ننطق كلمة "تُفاحة" "Apple". وقد قام فيتجنشتاين بإحداث نوع من التعادل "أي: التوازن والمقابلة" بين هذه الرؤية المتعلقة بالتصور الذهني للأشياء، من جهة، ونظريته الخاصة بالمباريات اللغوية Language

games، من جهة أخرى فمعنى أي كلمة، أو أي مفهوم ذهني، يعتمد على الأساليب التي تُستخدم بها هذه الكلمة، أو هذا المفهوم، أو قل بصورة أدق، أن هذا المعنى يعتمد على المباريات اللغوية التي تُعدُّ هذه الكلمة، أو هذا المفهوم، جزءاً من أجزائها.

خُذ لذلك مثلاً كلمة "democracy": أي: الديموقراطية. فحين يتناقش شخصان من الأفراد العاديين في موضوع "الديموقراطية" يكون لهذه الكلمة معنى ما عندهما، وإذا نوقش هذا الموضوع باعتبار أن الديموقراطية جزء من الدستور، فسيكون لهذه الكلمة معنى ثان، وإذا نوقش هذا الموضوع باعتبار أن الديموقراطية جُزء من تحليل يقوم به العلم الاجتماعي، فسيكون لهذه الكلمة معنى ثالث. أو خذ مثالاً آخر، كملة "love"، والتي يمكن أن يكون لها نفس معنى كلمة agape: أي: الحب الخالي من الأغراض/ أو: الإيثار وحب الخير للغير، وهو شعور تحس به تجاه كلبك، أو قد يكون معناها: "حصولك على نتيجة "صفر" في إحدى مباريات التنس – فكل هذه المعاني تأتى وفقاً للسياق الذي ترد فيه هذه الكلمة، وللطريقة التي تُستخدم بها.

من الأمثلة الأخرى للمباريات اللغوية، والتي استقيناها من كتاب "استقصاءات فلسفية" "Philosophical Investigations، ما يلي:

- إصدار الأوامر والامتثال لها.
- توصيف المظهر الخارجي لشيء ما، أو إعطاء قياساته.
- تركيب شيء ما من واقع صورة مرسومة له (أي: شكل مرسوم).
- كتابة تقرير عن حادثة ما.
- التخمين المتعلق بحادثة ما "أي التفكير الاستنتاجي فيها بناء على دليل راجح وليس قاطعاً".
- صياغة واختبار فرضية ما.
- عرض نتائج تجربة ما في صورة جداول ورسوم بيانية.

بناء على ما توضحه هذه القائمة، فإن كل مباراة لغوية تستلزم أن يكون لها ما يخصها من معنى محدد للكلمات والعبارات "المستخدمة فيها"، وهو أمر يعني أن على المنظر أن يكون شديد الحساسية للسياق، حتى يستطيع فهم معنى أي كلمة.

إن ما يوجد في علم الإدراك حالياً من صورة للطبيعة المضطربة للمفهوم الذهني قد تساعد أيضاً في تفسير سبب الصعوبة الشديدة في تثبيت معاني مفاهيم العلم الاجتماعي وفي الحفاظ عليها في صورة مستقرة نهائياً. فالأمر لا يقتصر

على أن العالم يتغير، بل وتتغير معه معاني الكلمات. كما أن العلماء الاجتماعيين سوف يستخدمون المفاهيم بالأسلوب اللاكلاسيكي حينما يتكلمون، وحينما يكتبون، وحينما يفكرون.

إن القضية التي يُشار إليها في المراجع بأنها قضية "توضيح المفاهيم" "Clarification of concepts"، كانت ولاتزال تستحوذ على قدر كبير من اهتمام الباحثين على امتداد السنين في مجال العلم الاجتماعي. شاهد ذلك أن لجاناً شكلت لتحقيق هذا الهدف في مجال العلم السياسي، وعلم الاجتماع، وما يشابههما من العلوم. وقامت هذه اللجان، وكما هو متوقع منها، بنشر بيانات عن الأسلوب الذي ينبغي اتباعه في تعريف مفاهيم معينة، ويبدو أنه لم يتحقق من الإنجازات في هذا المجال إلا شيء قليل، سوى ما قامت به اللجان المذكورة من عمل.

لا ينبغي أن ينظر إلى هذا الوضع – بالضرورة – على أنه حجة تناهض تشكيل هذا النمط من اللجان. إلا أن من الضروري تغيير المهمة التي تؤديها هذه اللجان. فالأمر الذي نحتاج إليه بصفة خاصة هو توضيح المفاهيم الذي يتصف بمزيد من الاهتمام بالأمور الجوهرية – أعني بذلك أن نبذل محاولات تتسم بروح المفكر فيتجنشتاين بهدف التوضيح التام للمشكلات المختلفة التي كثيراً ما يتسبب في ظهورها استخدام المفاهيم في بحوث العلم الاجتماعي (Wittgenstein 1953).

كما سبق الإشارة إليه من قبل، فإن مفاهيم العلم الاجتماعي الجديدة قد تفقد معانيها الأصلية بعد فترة من الزمن – وهو شكل آخر من أشكال التعقيد يجب علينا أن نتذكره ولا ننساه. وقد يكون هذا الوضع راجعاً إلى أسباب عديدة فقد ينشأ مثلاً بسبب انتشار مفاهيم العلم الاجتماعي داخل "تعبيرات" اللغة المشتركة بين الناس، وعبر الصحف، والتليفزيون. وما إلى ذلك من وسائل الاتصال. كشاهد على هذا التصور، يمكن للمرء أن يذكر بعض المفاهيم التي منها مفهوم "الكاريزما" "Charisma"* ومفهوم "السرنديبية" "Serendipity"** (انظر على سبيل المثال Merton and Wolfe 1995).

من الطرق الأخرى التي قد تفقد بها مفاهيم العلم الاجتماعي الجديدة معانيها الأصلية أن يتم ذلك من خلال الأسلوب الذي تستخدم به على يد علماء اجتماعيين آخرين، من غير العلماء الذين اخترعوها في مبدأ الأمر. كان بيرس مشغول البال–

* أي الجاذبية الشخصية التي يتمتع بها بعض القادة والمشاهير والزعماء، والتي يستطيعون بها إثارة حماس الجماهير (المترجم).

** أي: التمتع بحسن الحظ الذي يجعل المرء يعثر على الأشياء الثمينة ويمر بظروف سعيدة بالدفة ومن غير سعي منه إليها (المترجم).

خصوصاً – بهذه القضية، كما أستحدث لمعالجتها نوعاً من "أخلاقيات المصطلحات" "Ethics of terminology" (Peirce 1998 b, cf. Ocblet 1981). وكان يرس يحاج بأن العالم الذي يستخدم أحد المفاهيم بأي طريقة أخرى تختلف عن طريقة استخدامه بمعناه الأصلي إنما يرتكب خطيئة مخزية في حق العالم الذي اخترع هذا الرمز وفي حق العلم، كما إنه يصبح من واجب العلماء الآخرين أن يتعاملوا مع هذا التصرف باحتقار وغضب شديد" (Peirce 1998 b: 265). وحتى وقتنا هذا، لم يحاول أحد أن يطبق أفكار بيرس هذه.

إن الطبيعة المضطربة للمفهوم تؤثر أيضاً على المحاولات التي تبذل لتفعيله. فبالنسبة لمفهوم تمت صياغته وفقاً لوجهة النظر الكلاسيكية، فقد لا يتوافر له في المستقبل من الفرص المناسبة لتطبيق المعايير المختلفة عليه إلا قدر أقل من الفرص المتاحة لمفهوم "آخر" "غير كلاسيكي" من نوع المفاهيم ذات التشابه العائلي.

لذلك، يتعذر أن يقال المزيد من الكلام عن هذه القضية الخاصة، حتى لو بدا الأمر كأن النتيجة التي تحدثها وجهة النظر الجديدة للمفهوم سوف تؤثر على تفعيله أيضاً بطرق أخرى.

إلا أن موضوع تفعيل المفهوم يثير بعض القضايا الأخرى كذلك، وهي قضايا من المهم أن نذكرها. تتعلق إحدى هذه القضايا بالأسلوب الذي به يتم ربط معايير التفعيل بأحد المفاهيم أولاً وقبل كل شيء. وإنه لجدير بالملاحظة، مثلاً، أن الفكرة التي تذهب إلى أن بالإمكان تفعيل المفهوم في كافة الأحوال تعد فكرة جديدة نسبياً في العلم الاجتماعي (انظر على سبيل المثال Adler 1947). وتتعلق قضية أخرى بمقاربات التفعيل المختلفة، والتي يمكن العثور عليها في الدراسات الكمية والدراسات الكيفية.

وكثيراً ما تكون هاتان القضيتان مرتبطتين ببعضهما، كما هو واقع الحال. حيث يغلب على العلماء الاجتماعيين الكيفيين الاهتمام بالمفاهيم في حد ذاتها/ أو كما هي عليه، بجانب الاهتمام بالأسلوب الذي به يتم ربط هذه المفاهيم بالبيانات. وعلى النقيض من ذلك، يقضى العلماء الاجتماعيون الكميون وقتاً أقل كثيراً مع المفاهيم، كما أن الأمور التي تشغل بالهم – بصفة خاصة– هي المؤشرات Indicators وعلاقتها بالمتغيرات Variables (أنظر على سبيل المثال Abbott 1997).

يمكن العثور على مناقشة مثيرة للانتباه تعالج هذين الاتجاهين المختلفين في كتاب حديث كتبه الباحث جيرى جورتز Gary Goertz وجيمس ماهونى James Mahoney عن الثقافتين اللتين نشأتا حول الدراسات الكيفية والدراسات الكمية في

مجال العلم الاجتماعي. وهما يكتبان في كتابهما بعنوان "حكاية ثقـافتين" "A Tale of Two Cultures" قائلين: "بالنسبة للعلماء الكيفيين، تعد العلاقة التي بين المفهوم والبيانات علاقـة متـصلة بدلالـة الألفـاظ Semantics، أي متـصلة بـالمعنى 'Meaning'. فهؤلاء العلماء يستكشفون "معالم / أو خفايا" الطريقة التي بها يمكـن استخدام البيانات للتعبير عن معنى مفهوم ما. وعلى النقيض من ذلك، يرى العلماء الكميون أن العلاقة التي بين المتغيـر والمؤشـر تتعلـق بـنظم **قيـاس المتغيـر** Measurement of the variable. وينصب اهتمام العلماء المذكورين على كيفيـة استخدام المؤشرات في تحقيق أفضل قياس "أي أفضل حكم تفصيلي دقيـق يمكـن حسابه كميا" لأي مفهوم ضمني (Goertz, Mahoney 2012: 140)."

وهذا معناه، في الواقع أن العلماء الكميين يميلون للتهوين من شأن الدور الذي تقوم به المفاهيم، وهو الدور الذي يؤكدون أنه يتساوى "فـي هـوان شـأنه" مـع الأسلوب الذي به يتم تفعيل هذه المفاهيم. وهذا الوضع لا يفيدك كثيراً حينما تحاول صياغة نظرية ما.

التنميط

كجزء من عملية استحداث نظرية مبدئية مستوفية الأركان بمـساعدة المـادة "المعلوماتية" الإمبيريقية، فإنك في هذه اللحظة قد تستخدم شكلاً من اشكال التنمـيط Typology أو قل "التصنيف" "classification"، وهذه التنميطات/ أو التـصنيفات، شأنها شأن المفاهيم تماماً، يمكن بناؤها بشكل عمدي مقصود بمساعدة لبنات بنـاء معينة.

تنتمي التنميطات والتصنيفات لنفس العائلة؛ حال كون التنميطات مؤلفـة مـن فئات أقل في عددها من عدد فئات التصنيفات. كما أن الغالب على التـصنيف أنـه يحاول أن يكون كاملاً وأن يستوعب كافة الحالات. وفي الوقت الذي تبدأ فيه بنـاء تنميط ما عن طريق تفحصك لحالات قليلة العدد، وتوسيع نطاقها بعد ذلك ليـشمل كافة الحالات، هادفاً من ذلك إلى معرفة ما إذا كان هذا التنميط مناسباً ومعقولاً، أم لا، فإنك تتصرف – غالباً – بشكل مختلف عندما تريد بناء تصنيف ما. ففي هـذه الحالة تبدأ بالمجموعة الكلية "الشاملة لكافة وحدات العينـة المدروسـة" وتحـاول تقسيمها إلى فئات متنوعة.

وتستخدم التصنيفات، أكثر من التنميطات، في إدخال النظام والترتيـب علـى المادة المعلوماتية الإمبيريقية في مرحلة مبكرة. كما أن التصنيف الجيد يمتلك بنيـة

داخلية Internal Structure، وذلك إذا قورن بالقائمة List التي لا تتألف إلا من عدد من المفردات Items "أي: الوحدات/ أو البنود" المرتبة بحيث تكون المفردة منها تأتى بعد مفردة أخرى.

بطبيعة الأمور، قد يكون من المفيد جداً – في بعض الأحيان – ألا تتوافر لك بنية ما "أى: ألا يتوافر لك تصنيف له بنية"، وأن تكتفي بوضع قائمة بعدد من المفردات، إذ أن بإمكان القائمة أن تكون مفيدة في حد ذاتها:

فهي تذكرك بسائر المفردات التي لها نوع خاص، أو تذكرك بالترتيب الدقيق لها، أو ما اشبه ذلك. والقوائم واستخداماتها أعقد مما يمكنك أن تتوقعه، وهو أمر يوضحه لك رجوعك إلى وجهة نظر المفكر فيتجنشتاين في المباريات اللغوية.

يمكن استخدام التصنيف في مرحلة مبكرة من مراحل البحث ثم ينحى جانباً، وذلك بمجرد أن تتوافر لك رؤية أفضل لما يجرى من أمور. ويتماشى هذا الكلام مع أفكار فيبر Weber التي يذهُب فيها إلى أن بالإمكان أن تستخدم النمط المثالي كمرفأ "للأمان"، بحيث تلجأ إليه قبل أن تستكمل تعلمك الملاحة في بحر الوقائع الإمبيريقية.

بيد أن بإمكان التصنيف – ايضاً – أن يكون ذا طابع هيوريستيكى. وفي هذا المعنى يقول أحد علماء الأحياء، ممن ساعدوا في تطوير مقاربة جديدة في مجال تصنيف الكائنات العضوية:

"من المؤكد أن التصنيفات التي تُقدم توصيفاً للعلاقات القائمة بين الأشياء الموجودة في الطبيعة تتسبب في توليد الفرضيات. والواقع أن المبرر العلمي الرئيسي لإنشاء التصنيفات هو أنها ذات طابع هيوريستيكى (بالمعنى التقليدي لهذا المصطلح والذي يعنى "الاهتمام بإثارة اهتمام الباحث كوسيلة لتطوير الاستقصاءات")، كما أنها تؤدى إلى الإفصاح عن إحدى الفرضيات التي يمكن بعدئذ اختبارها. ويثير التصنيف تساؤلات عن كيف نشأ هذا الترتيب/ أو النظام الملحوظ، كما أن المرء، وهو يبحث منظومة ذات قوى داخلية وعلاقات سريعة الزوال، يستطيع أن يطرح حكماً تقديرياً عن مدى استدامة بقاء هذه البنية "أي: المنظومة". (Sokol 1974: 1117)."

مع أن التصنيف قد يكون مفيداً من نواح مختلفة، فإنه لا يمثل خاتمة المطاف في عملية التنظير. إذ يظل على الباحث أن ينجز قدر كبيراً من العمل بمجرد أن يقدم تصنيفاً ما لمفردات بحثه.

ومن المهم بصفة خاصة ألا يُخلَط بين **التصنيف** Classification **والتفسير** Explanation. فالمرجع العلمي الذي صنفه عالم النباتات لينوس مثل – في بداية الأمر – شكلاً من أشكال التقدم رحب به العلماء، فقد أدخل النظام والترتيب على ما كان في ذلك الوقت يمثل وضعاً مربكاً في دراسة النباتات. إلا إنه سرعان ما أصبح النظام الذي وضعه العالم لينوس "في تصنيف النباتات" عقبة تحول دون تحقيق المزيد من التقدم، إذ كان هذا النظام قائماً على شغف بالغ بالمنطق والتصنيف أكثر من قيامه على البحث العلمي (انظر على سبيل المثال Mayr 1982: 171-80). وكما أن من الواجب أن يصاغ المفهوم صياغة مثالية بحيث يكون من السهولة ربطه بإحدى النظريات المستوفاة الأركان، فإن هذا المعنى يصدق على التصنيف. ومن أساليب التصرف في هذا الشأن، ومن أجل تقديم تصنيف من هذا النوع، أن يتم استكشاف معالم مسلماته النظرية "التي يقوم على أساسها" واستكشاف ارتباطاته الذهنية أيضاً. إذ يوجد خلف معظم التصنيفات مجموعة من المسلمات، كما أن هذه المسلمات، حين توجد في تصنيف مفيد فعلاً، تندمج مع بعضها في صحبة الأجزاء الأخرى للنظرية على مستوى أكثر عمقاً.

يتألف التصنيف "الترتيبي للرموز والمفردات" من اثنين أو أكثر من الأنماط. شاهد ذلك أن العلم الاجتماعي حافل "بما يسمى "المفاهيم المزدوجة / أو الثنائية" "Paired concepts" ومنها مثلاً مفهوم "المجتمع المحلي والمجتمع" "Gemeinschaft- Gesellshaft" (عند تونيز Tonnies)، ومفهوم "الأسد – والثعالب" "Lion foxes" (للمفكر باريتو Pareto)، ومفهوم "الكوزموبوليتاني– في مقابل المحلي" "Cosmopolitan-local" (للمفكر ميرتون Merton، وما أشبه ذلك من المفاهيم. وتتمثل القيمة الرئيسية لهذا النمط من المفاهيم المزدوجة/ أو الثنائية في أنها تتيح للباحث أن يقدم شرحاً واضحاً لنمطين فرعيين لإحدى الظواهر. وفي حالات كثيرة تكون وظيفة المفاهيم المزدوجة – أيضاً – وظيفة ذات طابع هيوريستيكى: فهي "أي: المفاهيم المزدوجة" تحدد الاتجاه العام للبحث، إلا إنها تسمح للباحث أن يقرر – على وجه الدقة – ما هو المسار المحدد الذي ينبغي عليه أن يسير فيه.

حاول العلماء السياسيون أن يميزوا الملامح الدقيقة للبنات بناء التصنيف، وفي مراجعة حديثة العهد لكتاب يتماشى مع هذه الأفكار يقول مؤلفوه: "إن التنميط الجيد ... يقتضي – بالضرورة – تمييز الملامح الدقيقة للمفهوم الكبير / أو الشامل Overarching concept الذي يقوم الباحث بقياسه، كما يقتضي تنظيم المتغيرات

المدونة في الصفوف والأعمدة، وإنشاء أنماط الخلايا "أي: أنماط الخانات" (Collier et al. 2008: 167). ويضيف المؤلفون إلى قولهم هذا أن التنميطات الجديدة لابد لها – أيضاً – من أن تكون متنافيه مع بعضها Mutually exclusive "أي: إذا قبل أحدها رفض ما سواه، بحيث لا يمكن قبول نمطين معاً في نفس الوقت".

وقد يساعدنا جدول مكون من صفين وعامودين على فهم ظاهرة ما، وذلك عن طريق توفيره لأربعة أنماط فرعية. وقد سبق لكثير من العلماء الاجتماعيين أن لاحظوا الفائدة الكبيرة التي يحققها هذا الجدول. شاهد ذلك أن العالم الاجتماعي آرثر ستينشكومب Arthur Stinchcombe قال في بعض أعماله: "إن الجدول ذا الخانات الأربعة، والذي ترد فيه الأنماط في صورة مفردات/ أو بنود entries مدونة داخل تلك الخانات، يعتبر أداة قياسية للتنظير في مجال العلوم الاجتماعية (Stinchcombe 1968:46).

من الأسباب الأخرى التي تكمن وراء كون الجداول الرباعية الخانات/ أو ذات الصفين والعامودين مفيدة في البحث، بل وتزداد فائدتها إذا كان عدد خاناتها كبيراً، أنها تدعوك لتملأ سائر هذه الخانات. فإن قمت بهذا العمل، أمكنك أن تتنبه إلى أن بعض الحالات نادرة جداً إلا إنها مهمة، في نفس الوقت الذي يتعين فيه أن تكون بعض الحالات الأخرى أكثر شيوعاً مما هي عليه "في الخانات المذكورة"، كما يمكنك أن تتنبه إلى ما يشبه ذلك من الأمور.

من واقع ما قد قيل حتى هذه اللحظة يتضح أن بالإمكان استخدام التنميط لأسباب هيوريستيكية، حتى بالرغم من أن مناقشات العلم الاجتماعي لأشكال التنميط لا تؤكد – غالباً – على أهمية هذا الاستخدام (للاطلاع على حالة استثنائية، انظر على سبيل المثال Bailey 1973). وفقاً لأحد الآراء الشائعة، فإن من المهم التأكيد على عدم استخدام التنميط إلا إذا كان بالإمكان تبريره استناداً إلى خلفيات إمبيريقية "أي: أسس واقعية". فإن لم يوجد مبرر للاعتقاد بأن ظاهرتين، أو عدة ظواهر، تختلف كل واحدة منها عن الأخرى اختلافاً كافياً بناءً على خلفيات إمبيريقية، فيجب ألا يعتبر هذا التنميط تنميطاً مشروعاً "أي: صحيحاً ومطابقاً للقواعد المتعارف عليها في هذا المجال" (انظر على سبيل المثال Lazarsfeld 1962).

إلا إن هذا الوضع، وأقول ذلك للمرة الثانية، يمثل نوعاً من سوء الفهم للطريقة التي ينبغي أن يتبعها الباحث في عمله في مرحلة الاستكشاف في مقابل عمله في مرحلة التبرير. ففي المرحلة الأولى، وقبل وصول الباحث إلى النتائج،

يجب أن يكون التفكير والتأمل المنطقي هو القاعدة. ثم إن مهمة التأمـــل والتفكيـــر المنطقي ليست هي التمسك البالغ الشدة بالخلفية المذكورة. بل تتمثل مهمتـــه فـــي العودة إلى التعبير المجازي الذي طرحه المفكر وايتهد Whitehead عن الطـــائرة، والمذكور في مستهل هذا الفصل، حيث يقوم هذا التأمل المنطقي بالتحليق عالياً في الهواء وتمكيننا من رؤية الأمور التي ما كان لنا أن نقدر على رؤيتها أبدا بغير هذه الطريقة.

٤

الفصل الرابع
التشابه، والاستعارة، والأنماط

الفصل الرابع*
التشابه، والاستعارة، والأنماط

"هناك فصيلان من الذين تناولوا العلوم؛ أهل التجريب، وأهل الاعتقاد. أهل التجريب أشبه بالنمل؛ يجمعون ويستخدمون فحسب. وأهل العقل أشبه بالعناكب، تغزل نسيجها من ذاتها. أم النحلة فتتخذ طريقاً وسطاً بين الاثنين: تستخلص مادة من أزهار البستان والحقل، غير أنها تحولها وتهضمها بقدراتها الخاصة".
فرنسيس بيكون، في كتابه الأورجانون الجديد.
Francis Bacon, The New Organon (1)

كيف ينتج الباحث الاجتماعي العسل "الحلو المذاق"، الذي أشار إليه "بيكون" Bacon في كتابه "الأورجانون الجديد The New Organon؟ والإجابة على هذا السؤال تكون: أنه على الباحث الاجتماعي ألا يكون جيداً فقط في الملاحظة، وتسمية الظاهرة، وصياغة المفاهيم والأنماط، ولكن يجب أن يكون قادراً أيضاً على تحليل الظاهرة بشكل جيد، ولهذا يجب أن يمتلك الباحث الاجتماعي بعض المهارات الأخرى.

خلال هذا الفصل سوف نناقش ثلاث مهارات، هي على النحو التالي: استخدام التشابه، العمل مع الاستعارات، وبناء الأنماط وتحليلها. وتعد هذه المهارات الثلاث أعم في طبيعتها من تلك التي تمت مناقشتها حتى الآن، ويمكن أن تكون مفيدة أيضاً في الكثير من النقاط خلال عملية التنظير. على سبيل المثال: يمكن أن نستخدم كل هذه المهارات الثلاث عند القيام بالملاحظة، وعند محاولة التوصل إلى تفسير.

ومن المهم أن يوضح الباحث مهاراته في بناء الأنماط، والتوصل إلى التشابه والاستعارات المفيدة، يجب عليه أيضاً التأكيد على أنه من الممكن خلال مرحلة الاكتشاف، استخدام هذه المهارات للأغراض الاستدلالية، ويمكن استخدام التشابه وهكذا من أجل فهم شيء ضمني، على الرغم من أنه حتى الآن لم يصل إلى عملية التحليل.

---

* ترجم هذا الفصل الدكتور خالد كاظم أبو دوح.

واستخدام التشابه والاستعارات وإدراك الأنماط وبنائها، يمثل أيضاً ثلاث طرق في التفكير، تختلف عن طريقة الاستدلال الكلاسيكية. ومن جوانب قوتها؛ أنها قادرة على التقدم بطرق لا يبلغها المنطق الشكلي. وهناك نقطة قوى ثانية، وهي أنها مفيدة في التوصل إلى أساليب جديدة لتناول الموضوعات والأشياء، وتكون مفيدة بشكل خاص، عندما تستخدم مع الاستدلال المنهجي.

ولقد استخدمت عديد من العلوم والمعارف التشبيهات والاستعارات وبناء الأنماط، ومن هذه العلوم (علم الآثار، الأحياء، الاقتصاد، القانون). ويعني هذا، أن هناك تراثاً وخبرات يمكن للمنظر أن يعتمد عليها، وكما في الكثير من موضوعات التنظير الإبداعي، هذه المادة والخبرات ليست معروفة على النحو الواسع، ولا يتم مناقشتها كثيراً، ولذلك يوجد الكثير الذي يجب أن نقوم به، قبل أن يصبح التنظير في العلوم الاجتماعية في شكله الجيد.

والعلوم المعرفية؛ هي التي أظهرت اهتماماً كبيراً بدراسة التشبيهات والاستعارات والأنماط. وإحدى استبصارات هذه العلوم، أن هذه الموضوعات تمثل جزءاً من الطريقة التي يفكر بها الناس، أو يفكر من خلالها البشر بشكل طبيعي. أي أن هذه حقيقة، سوف تؤثر بشكل طبيعي على مدى سهولة استخدام هذه المهارات الثلاث من أجل نشاط خاص مثال التنظير في العلوم الاجتماعية. وفي كونها جزء من مجموعة المهارات المعرفية الخاصة بالبشر، تكون شبيهة بالمهارات التي تمت مناقشتها في الفصول السابقة، مثال التسمية، واستخدام المفاهيم...الخ. ويجب تكييفها بشكل واعي مع الأغراض المحددة للبحث والتنظير في العلوم الاجتماعية.

ويوجد في العلوم المعرفية قدراً من الخلاف البسيط حول طبيعة التشبيهات والاستعارات والأنماط، على سبيل المثال: يوضح بعض العلماء أن التشبيهات تمثل مفتاح أسلوب تفكير البشر. ويوجد هنا قليل من الاهتمام والحوار حول كيفية تعريف التشبيهات والاستعارات والأنماط.

ولكل هذه الأسباب سوف أهتم بتفسير كل واحدة من هذه المهارات بشكل موسع. على سبيل المثال: عند مناقشة الأنماط، سوف أناقش استخدام الأشكال والرسوم الهندسية.

التشابه Analogy

يمكن أن يتم استخدام التشابه بطرق مختلفة في العلم. (انظر على سبيل المثال: Gentner 1982; Nersessian 2008) فعلى سبيل المثال يمكن استخدامه

بطريقة بسيطة -إلى حد ما- من خلال تحويل معني ظاهرة معينة إلى معني ظاهرة أخرى من أجل الوصول إلى فهم أفضل للأخيرة، بمعني آخر، توضيح معني ظاهرة ما من خلال تشبيهها بظاهرة أخرى. على سبيل المثال، من الممكن الربط بين مجموعة من التشبيهات معاً لحل المشكلة، أو لفهم الظاهرة. وبينما تكون كلتا الطريقتين مفيدتين، إلا أنه من المحتمل أن تكون الأخيرة، مناسبة بشكل أفضل للتعامل مع المشكلات الصعبة.

ويذكرنا استخدام التشابه بطريقة بسيطة، بمعناه الأصلي والذي يعود إلى مصطلح Proportion في الإغريقية واللاتينية، والذي يشير إلى التناسب. وكمثال: يمكن للفرد خلال خبرته اليومية أن يقوم بتفسير شيئاً ما من خلال الإشارة إلى شيئاً آخر. فعلى سبيل المثال: لكي نفهم الأزمة المالية، يتم تناول الكساد كمثال ومؤشر عليها. ولفهم طريقة عمل الدولة، يمكن الإشارة إلى طريقة عمل الأسرة أو التربية الأسرية وأساليبها، وهكذا.

وفي شكله الأكثر تعقيداً، يساعد التشابه في إنتاج فهم جديد، ويؤدي إلى ذلك بشكل آلي، وهنا إما أن يتم استخدام التشابه بشكل متكرر كسلسلة من التشابهات، أو يتم استخدام التشابه بأسلوب يقوم على ما وراء المقارنة البسيطة بين ظاهرتين. ولقد استخدم "جيمس كلاك ماكسويل" James Clark Maxwel، التشابه بكلتا الطريقتين، وسوف نعود إلى طريقته فيما بعد.

ولقد ناقشت العديد من كلاسيكيات علم الاجتماع استخدام التشابه، وكان ذلك بشكل تعليمي مفيد. على سبيل المثال "ماكس فيبر" Max Weber، كان مهتماً جيداً بدور التشابه في العلم الاجتماعي، وكان يعلق في الغالب على استخدامها من قبل مختلف العلماء، ولقد حاول تتبع تاريخ استخدام التشابه في عدد من العلوم.

وطبقاً لماكس فيبر فإن أساس استخدام التشابه، يرجع إلى موضوع السحر (Weber 1978: 407). فإذا قمت بعمل A وتلي ذلك B، فإن فعل شيئاً ما شبه A سوف يؤدي إلى شيئاً ما شبه B.

وأشار "فيبر" إلى أنه تم استخدام التشابه لفترة طويلة في الفكر القانوني. فإدراج حالة مادية تحت قاعدة قانونية ما، كان يفهم في وقت مبكر بأنه يوفر الحل. وأيضاً استخدام التشابه في القانون، ألهم رجال القانون بفكرة القياس المنطقي، وبهذه الطريقة ساعد في إدخال الاستدلال الشكلي في الفلسفة.

ويكتب "فيبر" بشكل أساسي عن التشابه في مؤلفاته حول المنهج وعلم اجتماع

الدين، وعلم اجتماع القانون. (انظر على سبيل المثال: Weber 1975; 1978: 787, 978)، وبأسلوبه المعتاد، يلخص بداية تاريخ التشابه في بضعة سطور:

"للتشابه تأثير وحضور دائم، ليس فقط في أشكال التعبير الديني، ولكن ظهر تأثيره أيضاً في التفكير القانوني، حيث معالجة الوقائع الماضية بصياغات قانونية تجريبية، وكذلك التركيبات القياسية للمفاهيم، عبر التصنيف العقلي، والتي حلت محل التفكير التشابهي تدريجياً، والذي ظهر من خلال الرمزيات والرشد والسحر، الذي تكون بنيته تشبيهية بشكل كامل" (Weber 1978: 407).

وبفضل "فيبر" أصبح لدينا معرفة بتاريخ التشابه، وأصبحنا نعرف أيضاً أنه استخدم في الحوارات المرتبطة بكلا من السحر والقانون. وكان "دوركايم" يميل إلى النظر إلى التشابه بطريقة تبدو متسقة بشكل أكبر مع الرأي الجاري عن التشابه في المعرفة العلمية.

وطبقاً لدوركايم، يستخدم الأفراد والعلماء التشابه لإنتاج المعرفة الجديدة. وصاغ "دوركايم" في إحدى محاضراته رؤيته حول التشابه على النحو التالي:

"لا يمكن أن ننسي أن التشابه أداة ثمينة للمعرفة والبحث العلمي، والعقل لا يستطيع إبداع فكرة جديدة من لا شيء. وإذا اكتشفنا كائناً جديداً تماماً، بدون أن يكون متشابه مع بقية العالم، فقد يكون مستحيل أن يدركه العقل، فقط يمكن تمثيله على ضوء شيء آخر يعرفه العقل بالفعل. وما نطلق عليه فكرة جديدة في الواقع ليس إلا فكرة قديمة تعاملنا معها وعالجناها من أجل تكييفها بقدر الإمكان بدقة مع الموضوع الخاص الذي تعبر عنه" (Durkheim 1978: 55–56).

وعندما كتب "دوركايم" ذلك كان يتناول بالدرجة الأساسية، استخدام التشابه للأغراض الخاصة بالكشف عن مجريات الأمور. وفي واحد من مؤلفاته بعد ذلك، تناول أيضاً استخدام التشابه، عندما يريد الفرد أن يبرهن على حالة تجريبية معينة، فمن الممكن استخدام التشابه لهذا الغرض أيضاً، ولكن قيمته سوف تكون محدودة.

"وإذا لم يكن التشابه أسلوباً للشرح والإثبات بالمعني الحقيقي للكلمة، يكون مع ذلك أسلوباً للإيضاح والتحقق الثانوي، والذي يمكن استخدامه على نحو معين، ومن المهم دائماً أن نرى ما إذا كان القانون اللازم لنظام معين من الحقائق، مع ما يلزم من تعديل، غير موجود ليطبق في مكان آخر" (Durkheim 1974: 1).

وهناك أيضاً "زيمل" Simmel، وهو عالم اجتماع كلاسيكي، قد حدد دوراً هاماً للتشابه في بعض مؤلفاته في علم الاجتماع، ففي إحدى مقالاته أشار إلى أنه

عندما تبتكر علم جديد، يكون من المفيد جداً النظر في التشابهات بين هـذا العلـم الجديد والعلوم الأخرى الموجودة بالفعل (Simmel 1959).

وهناك اختلاف بين رأي "زيمل" عن التشابه، ورأي "دور كايم"، فبينما كـان لدى "دوركايم" اتجاه إلى دعم الاستخدام البسيط للتشابه، فضل "زيمـل" الاسـتخدام الأكثر تعقيداً. وأشار في ذلك إلى أن الهدف من اسـتخدام التـشابه لـيس مجـرد المقارنة بين ظاهرتين بهدف تحويل معني ظاهرة إلى معني ظاهرة أخرى، ولكـن المقارنة بين ظاهرتين بهدف اكتشاف وإبداع شيئاً ما جديد بالنسبة لكلتا الظاهرتين.

وفي عبارة ليست واضحة بشكل كبير، سواء في أصلها باللغة الألمانية أو في الترجمة الخاصة بها، يكتب "زيمل":

"تقديم طريقة جديدة للنظر في الحقائق، يجب أن يوضح الأشـكال والجوانـب المتنوعة لذلك الأسلوب، من خلال اللجوء إلى التشابهات المأخوذة مـن مجـالات الدراسة. ومع ذلك تعد هذه العملية (التي ربما لم تكتمل)، هي الآليـة التـي مـن خلالها يصبح المبدأ الجديد مدركاً ومحدداً بشكل واضـح" (Simmel 1959: 336; emphasis added).

وما يبدو أن "زيمل" يحاول الوصول إليه، هو أنك يجب أن تتقـدم بمـرحلتين لكي تستخدم التشابه بفاعلية، فيجب أن تنفذ في البداية تشبيه بسيط بين الظـاهرتين، وبعد ذلك يجب أن تضغط وتحاول التخلص بقدر الإمكان مـن الاختلافـات بـين الظاهرتين، في مقابل العمل على إبراز ما هو مشترك بينهما.

ومصطلح "زيمل" بالنسبة لما تشترك فيه هاتين الظاهرتين هو "الشكل" Form، والمهمة الرئيسية لعلم الاجتماع كانت في رأيه بحث وتوضيح "الأشكال الاجتماعية" Social Forms. ويمكن هنا إعادة صياغة طريقة "زيمل" من خلال التقدم عبر لغة "ديان فوجان" Diane Vaughan، والتي كانت هي نفسها داعمة لفكرة التشابه فـي علم الاجتماع: "أنت تريد أن تذهب في البحث من التشابهات إلى "الزيميلات" نسبة إلى "زيمل" (Vaughan 1998; cf. Vaughan 2014).

وقبل أن نترك "كلاسيكيات علم الاجتماع" يمكن الإشارة إلى رأي "فيبر" عـن أن التشابهات يمكن استخدامها ليس فقط لإنتاج الأفكار الجديدة، ولكن لمنعها أيضاً. وهذا الرأي يجد دعماً واسعاً في الدراسات الخاصة بالتشابهات في العلوم القانونية. على سبيل المثال: في "مقدمة للعلوم القانونية"، ذكر "إدوارد ليفي" Edward Levi، أن الأسلوب الأكثر شيوعاً للسير في القانون، هو أن يكون لديك المنطق والأسباب لكل حالة، ويتم تنفيذ ذلك من خلال عملية تتضمن ثلاث خطوات، كما يلي: نلاحظ

التشابه بين حالتين، بعد ذلك يتم الإعلان عن القاعدة القانونية الموجودة في الحالة الأولي، ثم يتم تطبيق التشابه واختباره عبر تطبيق القاعدة القانونية على الحالة الثانية (Levi 1949: 2).

ولا يرجع العمل بهذه الطريقة إلى أن القانون يظل ثابتاً طبقاً لـ"ليفي"، ولكنه يتحرك إلى الأمام ويتغير، ولكن بشكل بطيء جداً، حيث أن القانون يتجنب القفزات. وما يجعل "التغير بطيء" عبر استخدام التشابهات، هو أنه يوجد عدد كبير من التشابهات يمكن الاختيار من بينها، ولا يوجد سبب معين لتفضيل تشبيه عن آخر. وعندما يكون البناء على عدة قوانين في حالة واحدة، يوجد ما يطلق عليه "ليفي" "التشابهات المتنافسة" Competing Analogies (Levi 1949: 5).

وعند مناقشة الجانب السلبي للتشابهات، على الأقل في إطار علاقتها بالاكتشاف، يجب على الفرد أن يذكر حقيقة أن التشابه يمكن أن يكون خاطئ. ومن الطرق التي يمكن من خلالها إلقاء الضوء وإبراز التشابه الخاطئ في العلوم الاجتماعية، هي مواجهته بالحقائق، وذلك يمكن تنفيذه مؤقتاً في الدراسة التمهيدية، ويعد ذلك بأسلوب كاف وبأدوات منهجية متعددة في إطار الدراسة الرئيسية.

ولقد وضع "نت ويكسيل"[*] Knnt Wicksell، أحد مؤسسي الاقتصاد الحديث، استراتيجية لكيفية تناول التشابه الخاطئ بطريقة واضحة:

"بمجرد أن نكتشف التشابه بين ظاهرتين، نقوم بالشك في هذه الصلة، ونفترض مؤقتاً أنهما تكونان متشابهتين في نواحي أخرى. وهذه الطريقة من التصرف، لا تحتوي على مكانة عالية في المنطق الصوري، إلا أنها الطريقة الوحيدة التي تحت تصرفنا، وهي في العادة خادعة، ولذلك تسمي "التشابه الخاطئ". ولا يمكن التعرف على الفرق بين التشابه الخاطئ والحقيقي كبديهية، ولكن نتعرف عليها طبقاً لدليل الخبرة". (Wicksell 1958: 57–58)

وكما وضحنا فيما سبق، أن العلوم المعرفية هي التي أظهرت الاهتمام الأكبر بالتشابه، وفي الغالب يتم استخدام المصطلحات التالية في تحليلاتها. من خلال التشابه يمكن أن نرسم "خريطة" Map لما يسمي "المصدر" "Source" نحو "الهدف" Target، أو ما نريد فهمه بشكل أفضل، وبفعل ذلك أنت "تنقل" Transfer المعني من الأول إلى الأخير.

---

* جوستاف نت ويكسيل (١٨٥١–١٩٢٦م)، خبير وعالم اقتصادي نمساوي، ومن رواد مدرسة ستوكهولم، وأثرت أفكاره على عدد من المدارس الاقتصادية، مثال المدرسة الكينزية، ويعد المؤسس للمدرسة الحديثة للاقتصاديين السويديين، والتي ضمت عدد كبير من علماء الاقتصاد المرموقين. (المترجم).

ويمكن أن نشير من خلال التشابهات إلى النواحي المختلفة لظاهرتين: ملامحهما السطحية، بنيتهما وأنظمتهما (For example, Gentner 2003; Gentner and Smith 2013). والتشابهات التي تشير إلى الملامح السطحية للظواهر، تعتبر في الغالب بسيطة، بينما تلك التي تشير إلى البنية والنظم، ينظر إليها باعتبارها أكثر تعقيداً وفائدة.

وفي عمل "نانسي نيرسيسيان" Nancy Nersessian، الذي يجمع بين العلم المعرفي وتاريخ العلم بطريقة رائعة، تم توضيح أن الكثير من الاكتشافات العلمية الهامة، جاءت نتيجة التفكير التشابهي (Nersessian 2008). ومثالها الرئيسي يكون محاولة "ماكسويل"(*) Maxwell، الذي ابتكر عدد من المعادلات الهامة المرتبطة بالمجال الإلكترومغناطيسي، من خلال عدد من التشابهات التي استمدها من خلال الرياضيات. وهو عندما فعل ذلك كانت أداته الرئيسية هي التشابه.

ولقد كان "ماكسويل" مهتماً جداً بالتشابهات، وكثيراً ما قام بالتعليق عليها، ولقد وضع ما أسماه "نظرية التشابه المادي" Theory of Physical Analogy، والتي يمكن تلخيص سماتها الرئيسية على النحو التالي:

أولاً: التشابه الجيد يتناول العلاقات.

ثانياً: وهذه السمة تركز عليها "نانسي نيرسيان" ومؤداها أنه يجب على العالم أو الباحث أن يقوم بهذه العملية بشكل تدريجي، ويستخدم التشابهات المتعددة في حل المشكلة.

ثالثاً: يجب أن يكون الهدف شيئاً ما يكمن خلف مقارنة الهدف بالمصدر، وهو ما يطلق عليه "ماكسويل" الشكل Form.

وطبقاً لماكسويل فإن السمة الأولي للتشابه الجيد، هي أن يقارن الباحث العلاقات بين مجموعة من الحقائق، بالعلاقات بين مجموعة ثانية من الحقائق:

"على الرغم من أن ثنائيات الأشياء، قد تختلف بشكل واسع عن بعضها البعض، إلا أن العلاقة في ثنائي ما قد تكون هي نفسها في ثنائي آخر. وحسب وجهة النظر العلمية فإن العلاقة هي أهم شيء يجب أن نعرفه، ومعرفة شيئاً قد يقودنا في طريق طويل إلى معرفة الآخر" (Maxwell 1884:354).

والسمة الثانية في نظرية "ماكسويل" مؤداها: أنك يجب ألا تستخدم تشبيه واحد فقط، عندما تحاول حل مشكلة، ولكن يجب أن تعتمد على عدد من التشابهات،

* جيمس كلارك ماكسويل (١٨٣١-١٨٧٩م)، عالم فيزياء اسكتلندي شهير، أبدع عدد من المعادلات الهامة التي تفسر ظهور الموجات الكهرومغناطيسية. (المترجم).

ومصطلح "نيرسيسيان" لهذه التشابهات الوسيطة، هو التشابهات التجسيرية" bridging analogies. أنت في البداية تقوم ببناء تشابه يتناول جزءاً من المشكلة، وقد يأخذك ذلك إلى حل جزء منها، ثم بعد ذلك تركب أو تؤسس تشابه آخر، يجعلك أقرب من الحل وهكذا.

والسمة الثالثة هي فكرة أن الحل لن يكون موجوداً عبر مقارنة المصدر والهدف، ولكن يجب البحث عنه في مكان ما. وباتخاذ "ماكسويل" لهذا الموقف أصبح قريب من رأي "زيمل" وأقل قربا من توجه "دوركايم". وما تبحث عنه طبقاً لماكسويل هو ما تشترك فيه الظاهرتان، أو كما قال: من خلال التشابه يتم الكشف عن حقيقة واحدة من خلال تعبيرين" (Maxwell 1884: 348).

الاستعارة

تعتبر الاستعارة في الغالب نوعاً من القياس أو التشبيه، وبالتالي لا يوجد سبب لمناقشتها بشكل منفصل عن التشابه. ويبدو هذا هو الرأي السائد في العلم المعرفي أيضاً، إلا أن هناك بعض المناقشات حول بعض قضايا الاستعارة، ومع أهمية الاستعارات في العلم، بما في ذلك العلوم الاجتماعية، يكون من المفيد تخصيص مناقشة منفصلة لها.

ومصطلح الاستعارة من المصطلحات الدارجة والمتداولة عبر لغة حياتنا اليومية، سواء في العلوم أو الفنون. ولهذا المصطلح قوة كبيرة، والدليل على ذلك الاستعارة الخاصة بالمخ ككمبيوتر، وهذه الاستعارة، نرى بوجه عام أنها ساعدت على ظهور العلوم المعرفية، ورؤية العقل في ضوء معالجة المعلومات والتشفير والتخزين والاسترجاع –ساعدت على فتح مجموعة جديدة من موضوعات البحث. (انظر على سبيل المثال: Gardner 1987).

ويشير المعنى الأصلي لكلمة استعارة إلى مصطلح Transfer في اللغة اللاتينية، ويعني تحويل، ويمثل هذا المعنى جزءاً من تعريف "أرسطو" الشهير في كتابه السياسة: حيث أشار إلى أن الاستعارة تتشكل من إعطاء الشيء اسم يخص شيئاً آخر، وهذا التحويل يكون من نوع إلى نوع آخر، أو على أساس القياس. .(Aristotle 2001: 1457 b 6–9)

وطبقاً لأرسطو؛ فإن الاستعارة تكون مفيدة بشكل خاص للشعراء، لأن لديهم القدرة على جعل الجملة مفعمة بالحياة ومدهشة بالنسبة للقارئ، وجعل الشيء منظوراً، وتلهمهم بالأفكار الجديدة (Aristotle 1984: 2,1410 b).

والطريقة التي تعمل بها الاستعارة، عبارة عن نوع من المقارنة، وحسب أرسطو، الاستعارة هي عملية استنباط تشابه ما من خلال الحدس: الاستعارة الجيدة تتضمن إدراك حدسي للتشابه بين الأشياء التي تبدو مختلفة عن بعضها (Aristotle 2001: 1459 a 3–8).

وبالإضافة إلى الحدس لإنتاج استعارة جيدة، يجب على الباحث أن يكون قادراً على التخمين. وعلى نحو أدق، التخمين يكون ضروري لربط الأشياء معاً، والتي لا تبدو أنها تنتمي إلى بعضها البعض:

"في الفلسفة هناك حاجة إلى القدرة على التأمل والتخمين، لملاحظة التشابه، حتى بين الأشياء البعيدة عن بعضها البعض (أي ليس بينها صلة متبادلة)" (Aristotle 1991: 1412a).

وخلال القرن العشرين، حدث تطور هائل في تحليل الاستعارة، وذلك من خلال التحول من التركيز على الاستعارة ككلمة واحدة، إلى النظر إليها كجزء من خطاب. وبالتالي أصبح تأثير ومعني الاستعارة مشتقاً من التقاء كلمتين، هما بالأساس جزءاً من خطابين مختلفين (Richards 1935).

وتطورت هذه الفكرة على يد الفيلسوف "ماكس بلاك" Max Black الذي وضح أن الاستعارة ليست مجرد نقل المعني أو تحويله من كلمة إلى أخرى (وجهة نظر الاستبدال) (Black 1962: 25–47). وإنما هي نتيجة مجموعتين متفاعلتين من المعني (وجهة النظر التفاعلية).

وعندما تتفاعل كلمتان، يصبح بينهما ارتباط وتشابك، طبقاً لوجهة نظر "بلاك". ولتوضيح ذلك، أشار إلى تعبير "الإنسان ذئب"، وقال أن مثل هذا التعبير يجعلنا نرى الكائنات البشرية من رؤى جديدة، ليس من خلال أن سمات الذئب وخصائصه، قد تم نقلها إلى الإنسان، لكن بدلاً من ذلك، فإن الاستعارة تسمح لنا بفرز وإعادة تجميع بعض السمات التي يمكن ربطها ببعض البشر. وطبقاً لبلاك، فإن استعارة "الذئب" تكبح أو تقلل من بعض التفاصيل، وتؤكد وتدعم بعض التفاصيل الأخرى، باختصار هي تنظم رؤيتنا حول الإنسان (Black 1962: 41).

أن تكون جيد وماهر في إبداع الاستعارات واستخدامها، فهذه مهارة مفيدة جداً للمنظر، لأنها تساعد في إنتاج الأفكار الجديدة، مثلما يقول "أرسطو". ويبدو أنها تفعل ذلك بطرق عديدة.

منها أولاً: المقارنة العادية بين الشيء الذي تهتم به وشيء آخر. ويدفع "بلاك"

هذه الناحية من الاستعارة جانباً، ويعتبرها غير مفيدة، لأنها لا تنتج شيئاً جديداً. ("وجهة نظر الاستبدال"). ولكن في الواقع قد يكون رأي "بلاك" هذا خاطئ، فمثلاً مقارنة العقل بالكمبيوتر، ساعدت على ظهور العلوم المعرفية. وربما كانت هي نفسها خاصية الاستعارة هذه –المقارنة العادية– هي التي كانت في ذهن "دوركايم" عندما ذكر أنه: "بالنسبة لعالم الاجتماع، أصبحت البيولوجيا كنز حقيقي، ممتلئ بالرؤى والفروض" (Durkheim 1978: 55–56).

ويبدو من هذا كله، أن الاستعارة – مثلها مثل التشابه – يمكن أن تلهم الباحث أو المنظر بشيء ما، يعتبر في الأصل جديداً، وتذهب إلى ما وراء المقارنة العادية. ويشير "بلاك" في تفسيره لتعبير "الإنسان ذئب"، إلى ارتباط الكلمات ببعضها البعض، ويوضح أن هذه العملية متضمنة في عملية إبداع المعاني الجديدة، وسوف تتم مناقشة هذه الفكرة في فصل لاحق.

وقبل ترك موضوع دور الاستعارة في العلوم الاجتماعية، يمكن تناول الرأي الذي يشير إلى أن العلوم السياسية، أصبحت فقيرة بمحاولتها التخلص من استخدام الاستعارات، من أجل أن تصبح علمية بشكل أكبر. (انظر: Zashin and Chapman 1974؛ وكذلك بالنسبة للاقتصاد، انظر على سبيل المثال: McCloskey 1986; Klamer and Leonard 2004).

ومع القوة الإرشادية للاستعارة، يبدو أن المناقشة قد تكون صحيحة بشكل جيد، وما يجب أن نركز عليه هنا، هو الخلط والتباين بين ما يكون ملائم في سياق الاكتشاف، وما يكون ملائم في سياق التبرير. والاستعارة مثل التشابه كلاهما هام بدرجة أساسية بالنسبة لسياق الاكتشاف، وليس لسياق التبرير.

النمط

مثلما أن البشر –على ما يبدو– ولدوا مزودين بالقدرة على التفكير من خلال استخدام التشابهات والاستعارات، يكونوا قادرين على بناء الأنماط واستخدامها (انظر على سبيل المثال: Sacks 2012). ومثلما تستطيع تنمية مهاراتك من خلال استخدام التشابهات والاستعارات، يبدو أن نفس الشيء يمكن أن يحدث بالنسبة لتعلم بناء الأنماط، سواء كانت بصرية أو غير بصرية.

في الغالب، يستخدم علماء الاجتماع مصطلح "نمط" لوصف ما اكتشفوه ويحتاج إلى المزيد من التحليل. ومن المعروف أن الأنماط تكون جزءاً من النظام

الاجتماعي والبنية الاجتماعية وهكذا. وعالم الاجتماع الماهر، يعرف كيفية الكشف عن الأنماط من خلال المعلومات الإحصائية.

وعلى الرغم من شيوع استخدام الأنماط، إلا أنه بُذل القليل من الجهد للنظر إليها بشكل أدق وتعريفها وتحويلها إلى مفهوم اجتماعي، أو تحويلها إلى مفهوم أساسي في العلوم الاجتماعية، وبدلاً من ذلك يتم استخدامه – أي النمط – كنوع من المصطلحات المساعدة وليست الأساسية، وأنه مفهوم مسلم بمعناه ولا يحتاج لتعريف.

والآن ما هو النمط؟ هذا السؤال ليس من السهل الإجابة عليه. يبدو أن النمط يتضمن أولاً التكرار وليس الجدة –أي أن نفس الشيء يحدث مراراً وتكراراً– وذلك يبدو صحيحاً فقط عند نقطة معينة، لأن "النمط يجب أن يظهر للوجود"، إلا أنه قد يتغير. ومع ذلك يريد عالم الاجتماع بالدرجة الأولي أن يفهم ما الذي يدفع إلى التكرار، أي معرفة القواعد الحاكمة أو التي تقف وراء النمط الناتج.

ثانياً: النمط يتسم بالشمولية والارتقاء. فالأفعال التي تنتج عن القواعد، قد تؤدي إلى شيئاً آخر. وهذا الشيء الآخر يمكن أن ينشئ عن نمط فرعي، يكون متشابه ذاتياً، ويتبلور من خلال تكرار نفس القواعد. إلا أنه من الممكن أيضاً أن يكون شيئاً ما يختلف جذرياً، مثال: عندما يتكون المجتمع عبر تفاعلات الأفراد، حسب قول "دوركايم" أو عندما تنشأ الحياة ذاتها من خلال التحفيز الذاتي (انظر على سبيل المثال: Padgett and Powell 2012).

ولقد قارن "زيمل" بين مفهوم الشكل الاجتماعي ومفهوم الشكل الهندسي، وقال: مثلما أن الدائرة لا تكون موجودة في الواقع، كذلك الشكل الاجتماعي Social Form –مصطلحه الخاص بالنمط الاجتماعي– وهو هنا يؤكد على الطبيعة غير الواقعية للأشكال الاجتماعية. وفي العادة استمد "زيمل" تحليلاته وتوضيحاته من خلال هذه الأشكال الاجتماعية –مثال "مفهوم الغريب" (انظر على سبيل المثال: Zerubavel 2007).

والقدرة على تمييز الأنماط وبنائها من خلال الأشياء، هي جزءاً من الأدوات الإرشادية والتوجيهية التي يحتاجها عالم الاجتماع، ومثلها مثل التشابهات والاستعارات، تسمح الأنماط لعالم الاجتماع بملاحظة الأشياء الجديدة ومعالجتها وتحليلها.

ولقد أشار أحد علماء الرياضيات، إلى أن استخدام الأنماط كأسلوب للبحث، يناسب عالم الاجتماع أيضاً:

"لأن الإدراك البشري لا يكون كاملاً، مثلما الحال في الأنماط الرياضية، فالناس يحتاجون إلى الأنماط، كوسيلة للتعبير الإبداعي عبر الزمان والمكان، ومثل هذه الأنماط تصبح أدوات وأساليب لبحث العالم الفردي أو الشخصي والعالم الاجتماعي. وكلمة "نموذج" تعتبر اسماً وفعلاً، وهي كفعل تكون أسلوباً نشيطاً لفهم العالم، عملية بواسطتها نفهم ونعمل على تنظيم المعلومات العشوائية التي يقدمها لنا العالم أو الحياة الاجتماعية" (Stewart 1998: 11; cf. Jefferies 2012: 125).

ومن المهم توضيح أنه إذا كنت عالم اجتماع، فإن عملية أن تكتشف نمطاً أو تقوم بتنميط شيء ما، لا تعني أن تكون قادراً على فهم ما في هذا الشكل أو النمط فقط، بل يجب أن تكون قادراً على فهم الكثير مما يحدث في المجتمع برمته، لأن كل ما يحدث قد يتبلور في شكل أنماط متعددة، وهذه في الغالب عملية من خطوتين.

في البداية، يجب عليك أن تفند وتفتت نمط موجود بالفعل، وبعد ذلك تعيد جمع الأجزاء في نمط جديد، وهذا الأمر صعب التنفيذ. وهذه العملية تقترب مما أطلق عليه "دوركايم" "الأفكار المسبقة".

ولكن كيف تقوم بذلك؟ وكيف ترفض النمط الذي يفهمه كل فرد وتجد نمطاً آخر؟ "بنويت مانديبلبرون" Benoit Manddbrot، والذي كان صاحب موهبة خارقة للطبيعة في الكشف عن الأنماط البصرية، حيث كان يراها الآخرون لا شيء، يقول إن الإجابة يمكن أن تكون موجودة في كل ملاحظة دقيقة ومتكررة، ويكتب في مذكراته:

"وتساءل "الزميل" بصوت عالي: ما الذي جعلني أنجح حيث فشل الباحثون الآخرون؟، وإجابتي كانت تتلخص –مرة واحدة– في القصة التي كنت أرويها عن حياتي العلمية: عندما أبحث، انظر وانظر وانظر، ثم ألعب مع الصور. فنظرة واحدة إلى صورة، تكون مثل قراءة أداة علمية، لذلك نظرة واحدة لم تكن كافية أبداً" (Mandelbrot 2012: 258).

وبناء الأنماط "التنميط" يعني أن تكون قادراً على تجاهل أي معلومة تم جمعها كجزء من الملاحظة، والقدرة على تركيب واستدعاء ما هو أساسي من مجمل المعلومات التجريبية، لكي تدخل بها إلى هذه المرحلة. وعلى الرغم من عدم وضوح – أحياناً – كيف أن القدرة على التركيب ترتبط بالقدرة على تحديد الأنماط، إلا أنه من المفيد جداً بالنسبة للمنظر أن يعرف كيفية التركيب. ولأنه نادراً

ما يتم الإشارة إلى أهمية هذه القدرة والمهارة في بحوث العلوم الاجتماعية، فإنها تستحق بعض التحليل.

وفكرة أن الناس لديهم القدرة على التركيب، تذكرني بمفهوم "كانط" الشهير عن "الحكم على الأشياء"، خاصة "الحكم التركيبي"، وفي كتابه الشهير "نقد ملكة الحكم" وأعماله الأخرى، قدم "كانط" مفهومه عن "الحكم" Judgement، والذي يشير إلى قدرة العقل البشري على تنظيم المادة عقلياً. وفيما يسمي "الحكم التركيبي" يقول "كانط"، أنك تنظم عقلياً ما هو تجريبي بطبيعته. بينما في الحكم التحليلي[*]، أنت تنمي وتنظم ما يحتويه المفهوم بالفعل (Kant 1998: 130–33).

ومنذ أيام "كانط" تغير معني مصطلح "تركيبي" Synthetic قليلاً، مثلما تغير معني "تحليلي" Analytic، ومع ذلك يمكن الإشارة إلى أن فكرة وأسلوب "التركيب" مفيدة جداً في عملية التنظير، وفي إدراك الأنماط ومعرفتها.

وهناك مثال على ذلك، وهو عندما تقوم بعمل ملاحظات خلال الدراسة التمهيدية، فإن ذلك يؤدي في العادة إلى الوصول إلى كم كبير من المعلومات، التي يبدو جزء منها غير مهم أو غير مرغوب فيه، وتكون مهمة التركيب هنا، هي ترتيب المادة بطريقة إبداعية محددة، وبالتالي التقليل من كم البيانات التي تواجهنا في الكثير من السياقات التجريبية.

وقد يبدو بالنسبة للبعض عدم وضوح ما يحدث في عملية التركيب، وعلى الرغم من أن ملاحظة ظاهرة معينة يستغرق وقتاً طويلاً، إلا أن التركيب يمكن أن يحدث بشكل سريع جداً، مثال تكوين الأنماط. الخلاصة هنا أن التركيب قد يكون جزءاً من قدرة الشخص الفطرية.

ويوجد بعض من التراث في العلوم المعرفية، ينظر إلى سرعة الحكم – أو التركيب – على الحقائق الجديدة، ويطلق عليه التشريح، وأنه ليس الخبراء فقط هم القادرين على إصدار الأحكام بسرعة، كما أنه من المحتمل إذا استغرقوا المزيد من الوقت لإصدار أحكامهم على شيئاً ما، فالأخطاء سوف تزيد.

وتساعد الأشكال والجداول والخرائط والأنواع الأخرى من الصور البصرية على تحديد الأنماط، كما سبق وأن ذكرنا، وبينما السبب التقليدي لاستخدام الأشكال والجداول في المقالات والدراسات الصغيرة يكون معروفاً –عرض المادة التجريبية

---

* يرتبط الحكم التحليلي بالرياضيات، وهو لا يضيف جديداً أو لا يخبرنا بالجديد، أما الحكم التركيبي فهو يرتبط بالظواهر الطبيعية والاجتماعية، ويخبرنا بالجديد، ويضيف للواقع معان لم تكن موجودة. (المترجم).

والتحليلات بشكل بصري فعال وجذاب- لكن القليل هو ما يقال عن استخدامها في مرحلة الاكتشاف. ولكنها بالأساس تقوم بنفس وظيفة التركيب – أي أنها تساعد في التقليل من تعقيدات البيانات وتسهل عملية الإيضاح.

وينظر إلى الخرائط Maps كأداة هامة للعلوم الاجتماعية منذ وقت طويل. على سبيل المثال في مدرسة "شيكاغو"، كان ينظر إلى معرفة عمل الخرائط، كمهارة لا يمكن الاستغناء عنه بالنسبة لعالم الاجتماع، وتحتوي المؤلفات الحديثة على العروض الخرائطية، مثال "نظام المعلومات الجرافيكية"، ومفهوم الخرائط العقلية (انظر على سبيل المثال: Milgram 1976).

كما يمكن استخدام الرسومات أيضاً للتعبير عن الموضوع الذي تتم مناقشته، بالاعتماد على الأسهم والدوائر، أو غير ذلك من الرموز والأشكال الأكثر تركيباً، وهناك نوعاً من الرسومات والأشكال التي تكون مفيدة بشكل خاص للأغراض التوضيحية، مثال ذلك الأشكال الهندسية Diagram (انظر على سبيل المثال: Nersessian 2008: 158–72).

وهناك سبب هام للاهتمام الذي خصصناه للشكل الهندسي وهو أنه يسمح للباحث، بأن يعمل عبر مناقشته لموضوع ما من خلال مساعدة الصور، وليس بشكل معرفي فقط. (for example, Larkin and Simon 1987). كذلك يساعد الشكل الهندسي في فهم المناقشات والموضوعات الأكثر صعوبة، ويجعلها سهلة جداً، مثلما توضح أشكال "فاينمان" Feynman الهندسية. وباختصار، يسهل الشكل الهندسي عمليات التفكير. ويبدو أيضاً أن بعض الناس يفضلون التفكير بمساعدة الأشكال الهندسية.

وبالنسبة للأهداف التوضيحية والإرشادية، يمكن أن تجرب أيضاً رسم "مخطط مسار" في مرحلة مبكرة من البحث، وعبر إجراء بسيط، هو تمثيل المتغيرات بالعقد، واستخدام الأسهم، لتوصيل العقد بعضها ببعض، يمكن لك اكتشاف العلاقات والتشابكات بين المتغيرات. (for example, Firebaugh 2008: 15)

ولقد أكد "تشارلز بيرس" Cherles S. Pierce على أهمية استخدام الأشكال الهندسية، وكان يراها على أنها مفيدة جداً في تنمية الأفكار الجديدة، وفي واحد من مؤلفاته يقول:

"يتم استخدام الأشكال الهندسية بشكل مستمر في المنطق، منذ عهد "أرسطو"، ولا يمكن تنفيذ عمليات التفكير بدونها، ويحتوي الجبر على المعادلات والتي تكون

عبارة عن نوع من الأشكال الهندسية. ولماذا هذه الأشكال الهندسية؟ إنها مـن أجـل تنفيذ التجارب، ونتائج هذه التجارب في الغالب تكون مدهشة" (Peirce 2010: 24).

ويميل الشكل الهندسي إلى التفكير الإرشادي، من حيث أنك لا تعـرف، أيـن سوف تنتهي، عندما تبدأ في بناء شكل هندسي وتعمل خلاله، ويجب هنا أن تكـون لديك الثقة في أنه في مكان ما في طريقك، سوف تجد ما تبحث عنه. وبهذا المعني يتشابه الشكل الهندسي مع الأنماط. إلا أن ذلك لا يمنع أن النمط يتـضمن بعـض الملامح التي لا تكون موجودة في الشكل الهندسي. وهذا موضـوع سـوف تـتم مناقشته في الفصل التالي، والذي يخصص للمرحلة الأخيرة مـن بنـاء النظريـة: "الوصول إلى التفسير".

٥

الفصل الخامس
الوصول إلى تفسير

الفصل الخامس (*)
الوصول إلى تفسير

"الاستنباط (أو التفسير)، هو نوع الاستدلال الوحيد، الذي يزودنا بالأفكار الجديدة، النــوع الوحيد وفقاً لهذا المعني يكون "تركيبي".
تشارلز بيرس، في مقالته بعنوان "التفكير".
Charles S. Peirce, “Reasoning”(1)

يدور محور هذا الفصل حول كيفية التوصل إلــى التفــسير، ولــيس طبيعــة التفسير. والموضوع الأخير يعتبر ذو أهمية كبيرة، ويمتد إلــى مــا وراء العلــوم الاجتماعية، ودارت حوله دراسات كبيرة وصعبة، تستحق دراستها بــذاتها. إلا أن هذا الفصل يركز على كيفية التوصل إلى تفسير جيد من الناحيــة العمليــة ومــن منظور الباحث أو الشخص الذي يجرى التحليل، لأن القليل من الأشــخاص مــن يناقشون ذلك في أغلب الأحوال.

ويمثل التفسير الهدف الطبيعي للتنظير، وهو يكمل عملية بناء النظريــة، ويعني هذا أن التفسير؛ جزء خاص جداً من عملية التنظير، وبالنــسبة لبيــرس وآخرون، القيمة الحقيقية للنظرية، تكمن في جودة التفسيرات التي تقدمها حول موضوع ما.

ونتيجة لذلك، يكون من المهم التقدم للأمام عندما يقوم شخص بالتنظير خلال الدراسة التمهيدية، وعدم التوقف قبل التوصل إلى تفسير مؤقت، ويجب أن يكون هذا التفسير صلب بقدر الإمكان، حتى يصبح جزءاً من تصميم البحث، ويكــون الأساس للفروض، التي سوف يتم اختبار صحتها في الدراسة الرئيــسية، ومــن الشائع العمل أيضاً عبر عدد من التفسيرات الممكنة، قبل التوصل إلــى تفــسير واحد صحيح ومناسب.

وبعد ذلك، يجب الإشارة إلى أنه في بعض الحالات، يجب النظر إلى عمليــة التنظير، على أنها ناجحة حتى لو فشلت في التوصل إلــى تفــسير، ففــي بعــض

---

* ترجم هذا الفصل خالد كاظم أبو دوح.

الأحيان مجرد رؤية تحديد الظاهرة بشكل واضح، يمثل خطوة هامة إلـــى الأمـــام، ونفس الشيء يكون صحيحاً مع التوصل إلى مفهوم جديد إلى آخره.

إضافة لذلك، من الممكن أن يكون الكشف عن بعض الظواهر أصـــعب مـــن تفسيرها. ومن أمثلة هذه الظواهر "الكاريزما، والشذوذ". وفي كل حالة مـــن هـــذه الحالات، توجد اليوم الكثير من الدراســـات والبحـــوث الـــضخمة، والكثيـــر مـــن التفسيرات المتنافسة، إلا أن الصعوبة كانت تكمن في تحديد وفهم هذه الظواهر في المقام الأول.

ومن المهم، توضيح أن التفسير يتألف من جـــزئين: أولاً: مـــا الـــذي يجـــب تفسيره؟ ثانياً: كيف يمكن تفسيره؟ ومن الممكن أن يضل الفرد في بعض الأحيـــان، ويزعم أن التفسير يكون قاصراً على ثانياً فقط، ولكن ذلك ليس هو الحال، فبـــدون أولاً لن يوجد هناك إمكانية لتحقيق ثانياً.

وعند هذه النقطة، يجب تذكير القارئ أن ما تتم الإشارة إليه في اللغة اليوميـــة باسم واحد، يتحول في الغالب ليغطي عدة ظواهر، عندما تتم دراسته بعناية ودقـــة. (الفصل الثالث). ويعمل الإدراك المسبق "أو التصور المسبق" بهذا المعنى وكأنـــه مصطلح المظلة، وهذا يعني أيضاً أنه يجب اختيار إحدى هذه الظـــواهر وفرزهـــا وتحديدها للتفسير، مع تجاهل كل الظواهر الأخرى.

والظاهرة التي تحتاج إلى التفسير، يجب بنائها وتركيبها من البيانات التي يـــتم جمعها من الملاحظة، مع استبعاد البيانات غير المناسبة. ومثال علـــى ذلـــك مـــن ماكس فيبر، الذي أشار: عندما تسقط صخرة وتنشطر إلى أجزاء، فـــإن الأجـــزاء المكسورة تنتشر في كثير من الاتجاهات. ودراسة مكان كل واحدة من هذه الأجزاء وماهية شكلها، ليس ذو أهمية. ولكن بدلاً من ذلك، يجب عليك أن تركب بعناية ما يجب تفسيره، وفي هذه الحالة يجب أن يكون التركيز على المسار العام للقوة التـــي تسببت في ذلك. (Weber 2012: 42–43)

والمهم بالنسبة للعالم الاجتماعي هـــو التوصـــل إلـــى تفـــسيرات للظـــواهر الاجتماعية، ولا يعني ذلك أنه يجب عليه أن يميز بـــين فئتـــين مـــن التفـــسيرات: الأولى: تلك التفسيرات التي يمكن أن تستخدم في العلوم الطبيعية. والثانيـــة: تلـــك التي يمكن أن تستخدم في العلوم الاجتماعية فقط.

وبنظرة سريعة إلى بعض أنواع التفسيرات التي أدت إلى نتـــائج هامـــة فـــي العلوم الاجتماعية، يتضح لنا أن عديد من التفسيرات جاءت من العلـــوم الطبيعيـــة. ففي بعض الأحيان تنتقل التفسيرات بين العلوم، مثال مناهج البحث أيـــضاً، ويـــتم

استعارتها عندما تكون هناك فرصة للوصول لنتائج هامة وجديدة، ويتم تجاهلها عندما لا تؤدي إلى ذلك.

لكن أيضاً، العلوم الاجتماعية، لها بعض الخصوصية – وهي تركيزها على تفسير الحياة الاجتماعية – وذلك يعني أنها تدرس بعض الظواهر التي تختلف عن تلك التي تتناولها العلوم الطبيعية. وما يميزها بالدرجة الأساسية ثلاثة نقاط:

أولاً: المعاني التي يخلها الفاعلون على أفعالهم، والتي تلعب في الغالب دوراً هاماً فيما يحدث.

ثانياً: أن الواقع الذي تدرسه العلوم الاجتماعية يتغير بشكل لا يحدث غالباً في الطبيعة.

ثالثاً: قد يؤثر علماء الاجتماع على ما يقومون بدراسته، لأنهم جزءاً منه.

ولأهمية التوصل إلى تفسير جيد بالنسبة للشخص الذي يقوم بالتنظير، يكون من المهم التساؤل حول كيفية أن تدرب نفسك لتصبح قادراً على فعل ذلك بشكل جيد؟ وفي هذا الفصل سوف أوضح إجابتين:

الأولي: هي أنه يجب أن تدرب قدرتك على التخمين guessing، خاصة التخمين الصحيح، كما وضح بيرس.

الثانية: هي أنه من المفيد أن تعرف الكثير عن الأنواع المختلفة للتفسير، عندما تبحث عن تفسير معين.

الاستنباط كشكل من أشكال التخمين الصحيح

بالرغم أن ما يعرف عن بيرس اليوم أنه من مؤسسي "البراجماتية"، إلا أنه في هذا الفصل سوف أنظر في مفهومه "الاستنباط" Abduction أو نظريته حول كيفية التوصل إلى تفسير من المنظور العلمي للباحث. وسوف يسترجع القارئ من المقدمة ما أشرنا إليه وهو أن "بيرس" قد درب وطور قدرته في هذه الناحية، وأنه مارس ذلك خلال حياته اليومية وفي عمله العلمي.

وبشيء من المبالغة، يمكن الإشارة إلى أن فهم طريقة توصل العلماء إلى تفسيرات جديدة، يعتبر الموضوع الرئيسي في البحوث التي نفذها "بيرس" طول حياته. وعلى أي حال. يستحق "بيرس" أن ننظر إليه كشخصية رئيسية في تاريخ التفسير، خاصة في تاريخ كيفية التوصل إلى تفسير من المنظور العلمي.

ويكتب بيرس: "أن الاستنباط هو عملية تكوين فرض تفسيري". (Peirce 1934a: 171–72)، وكما هو واضح من هذا الاقتباس، فإن بيرس لا يؤكد فقط على التفسير، ولكن أيضاً على عملية التوصل إلى تفسير، أو كيفية الوصول إلى التفسير.

وبالنسبة لبيرس، التفسير الذي ينبع من الاستنباط، يكون مجرد تفسير محتمل، وليس التفسير النهائي. "والاستنباط يوضح فقط أن هناك شيئاً ما ربما يكون موجوداً" (Peirce 1934a: 171–72)، وحتى يتم اختبار صحة التفسير، يؤكد "بيرس" على أن قيمته غير مؤكدة، وهو يصر على ذلك بشكل دائم.

وما قيل حتى الآن عن مفهوم بيرس عن الاستنباط يكون أساسي جداً. وليس محل جدل، وحسب وجهة النظر هذه، تزيد إشكالية هذا المفهوم، وما يشير إليه، ويرجع ذلك إلى أن فكر بيرس قد تطور عبر الوقت، وتم إضافة أفكار أساسية له، وتم استبعاد أفكار أخرى.

وهناك سبب آخر لإشكالية فكر بيرس، وهو شعوره بأنه دخل أرض جديدة تماماً من خلال "الاستنباط"، وأن أفكاره تحتاج للاختبار والتجريب في اتجاهات مختلفة. "أبدو أنني مستكشفاً في أرض لم يدخلها أحد" هذا ما قاله بيرس عندما ناقش عمله عن الاستنباط (Peirce 1932: 102).

ويرتبط بهذا السبب الأخير أيضاً، كثافة وغموض ما كتبه بيرس. لدرجة أنه كان يري أن كل شيء يرتبط بكل شيء آخر في العالم. وهذا وضع مطلب خاص، ليس فقط على فكره، ولكن أيضاً على أسلوب كتابته. وكافح بيرس طوال حياته بشكل كبير، حتى يعبر عن أفكاره بطريقة واضحة، ولكن كانت النتائج في النهاية متفاوتة.

ولكل هذه الأسباب مثلت مؤلفات بيرس وأفكاره تحدياً، وجذبت إليها عدداً كبيراً من التفسيرات، من قبل العلماء الذين اهتموا به (على سبيل المثال: Fann 1970; Paavola 2006). ومع ذلك القليل جداً ممن علقوا على أفكاره ومؤلفاته كانوا مهتمين بالنواحي العملية للاستنباط، أو بكيفية تطوير قدراتنا على التفكير الإبداعي، طبقاً لبيرس.

ويشير بيرس إلى أن مصطلح "الاستنباط" يرجع إلى أرسطو الذي استخدمه في المنطق، ومع ذلك فشل المترجم في نقل المعنى الذي قصده أرسطو بشكل صحيح، واستخدم مصطلح التلخيص reduction بدلاً منه (على سبيل المثال: Ross 1949: 489).

على أية حال، سوف نبدأ من بداية ظهور المصطلح لدى بيرس: الذي استخدم كلمة الاستنباط abduction بدلاً من كلمة "الاختزال أو التلخيص" reduction لأول مرة، وكان يعتبرها مصطلحاً في علم المنطق. وفي أعماله اللاحقة لذلك، وسع المعنى بحيث يغطي أيضاً عملية التوصل إلى تفسير.

وبالإضافة إلى مصطلح "الاستنباط"، استخدم بيرس عدد من المصطلحات الأخرى، ليعبر بها عن كيفية تصرف الباحث حتى يتوصل إلى التفسير. ومن هذه المصطلحات "التجميع" colligation، وهذا المصطلح صاغه وليام وول Willam Whewell، ويعني به ربط الحقائق وتجميعها معاً، كطريقة جديدة للتوصل إلى اكتشاف ما. وهناك أيضاً مصطلح "الاسترجاع" Retroduction، والذي ورد في مؤلفات بيرس، ويشير إلى أن تفسير أي ظاهرة، يعني ضرورة النظر فيما يحدث قبل هذه الظاهرة.

واستخدم بيرس أيضاً مصطلح "الفرض" Hypothesis في هذا السياق، ويؤكد هذا المصطلح على أن الاستنباط عبارة عن مجرد اقتراح للتفسير، وأنه يجب اختبار صحته حسب الحقائق والمعطيات التجريبية، حتى يكتسب قيمته العلمية.

وفي النهاية هناك مصطلح "التخمين" Guessing، ويوضح ذلك المصطلح، أنه على الرغم من أن الباحث قد لا يعرف كيف يتصرف عندما يبحث عن التفسير، إلا أنه يجب أن يخمن ذلك نوعاً ما. والتخمين الصحيح يكشف عن أن الباحث يكون على صواب أكثر مما يعتقد في الغالب، في ظل وجود حقيقة تشير إلى أن هناك عدد غير محدود من النظريات والرؤى، التي يمكن أن تفسر الظاهرة الواحدة.

والطموح العالي لنظرية بيرس حول كيفية الوصول إلى التفسير، يضفي عليها الكثير من التعقيد والغموض، ولقد كان في بعض الأحيان يتناول الاستنباط من خلال وجهة النظر البراجماتية، وفي أحيان أخرى كان يتناوله وفقاً لنظريته في "السيمائية"، كما أن هناك علاقة بين الاستنباط ونظرية "بيرس" عن "الكوزمولوجي" "علم الكونيات" cosmology.

وفي ملحق هذا الكتاب، سوف يجد القارئ عرضاً لرؤية بيرس حول كيفية التنظير بوجه عام، ودور الاستنباط في هذه العملية. وأنا سوف أركز هنا على الأبعاد المهملة في الاستنباط. وما أشير إليه هو نظرية "بيرس" عن الاستنباط كنظرية للتخمين (أو التخمين الصائب)، وبشكل خاص كيفية تطوير وتحسين هذه القدرة.

وبينما تحدث بيرس في بعض الأحيان عن الاستنباط كشيء يأتي إليك مثل "وميض من البصيرة"، أو على أنه يتدفق من "التخمين الصحيح"، إلا أنه كان يراه في العادة كعملية. (Peirce 1934a: 181; 1935: 469)، والوصول إلى تفسيرها، ليس هو نفس الوصول إلى التفسير الحقيقي للظاهرة.

والاستنباط "هو فعل من الاستبصار والبصيرة، على الرغم من أن هذا الاستبصار من الممكن أن يكون خطأ" (Peirce 1934a: 181). وهنا يجب على العالم أن يحاول تخمين تفسير ما للظاهرة، بجانب أن يكون على علم بأن معظم هذه الاستنباطات أو التخمينات، قد تكون خطأ. الباحث هنا يخمن، ويتمني أن يكون تخمينه صائباً.

ومن آثار اهتمام بيرس بشكل خاص بالتخمين، أن التخمين يعتمد على بعض من أكثر خصائص العقل البشري غموضاً، ويرتبط ذلك بحقيقة أن العلماء كانوا يصيبون في تخمينهم مرات كثيرة، بل أكثر مما كان يحدث عبر الصدفة. وفي رأي بيرس: يمكن تفسير أي ظاهرة بطرق كثيرة، وكان العلماء في الغالب يتوصلون إلى ذلك بشكل صائب.

وكما يتذكر القارئ، تم الاقتراب من هذه القضية وتناولها في مقدمة هذا الكتاب، وخلالها تم سرد القصة الغريبة عن كيف أن بيرس قد استرد بعض من المعلومات المسروقة في صيف ١٨٧٩م. وفي مقاله "التخمين"، مثلما هو الحال في بعض المؤلفات الأخرى، تناول بيرس القضايا التالية: من أين تنبع قوة التخمين الرائعة؟ وكيف يستطيع الشخص تحسين قدرته على التخمين الصائب؟

وتشير الإجابة على السؤال الأول، إلى أن بيرس مثل جاليليو اعتقد أن البشر يولدون "بضوء طبيعي" أو "بصيرة"، تسمح لهم بتقديس بعض من أسرار الطبيعة.

واعتقد بيرس أن هذا الضوء أو النور الطبيعي، كان يماثل نوعية الغرائز التي تولد بها الحيوانات. فمثلما تعرف الدجاجة من لحظة ميلادها ما سوف تلتقطه من الأرض لتأكله، كذلك لدى البشر قدرة فطرية لأن يتوصلوا وبعد محاولات إلى الإجابة الصحيحة عن الأسئلة العلمية.

واعتقد بيرس أن سبب هذه القدرة الرائعة هو أن المهارات التي يحتاج إليها البشر لتغذية أنفسهم ولتكاثرهم نوعاً ما، تجعل من الممكن لهم أن يفهموا أشياء معينة لا يستطيعون فهمها بدون ذلك.

باختصار، يكون البشر جزءاً من الطبيعة، وبالتالي يستطيعون أن يشعروا بأعمالهم أيضاً: والطبيعة والعقل لديهما المجتمع، الذي يمنح تخميناتنا ميلها إلى الحقيقة، وفي نفس الوقت هذه التخمينات تحتاج إلى تأكيدها من خلال العلم التجريبي (Peirce 1992: xxv).

وبالنسبة لبيرس، لم يكن واضحاً بدقة كيفية عمل "غريزة هذه الحقيقة،

والتوصل إلى التفسيرات". وعند نقطة معينة وضح "بيرس"، أن ما يكون مسئولاً عن التقدم في العلم، هو نفسه ما يكون مسئولاً عن بقاء أفراد بعينهم طبقاً لنظرية "داروين"(*).

وبأسلوب آخر، يمكن اعتبار الاستنباطات التي ينتهي إليها الباحث، تساوي الأفراد الذين يشكلون كل جيل متعاقب من الأنواع في نظرية "داروين". والفروض التي كانت قادرة على مقاومة الاختبارات الصارمة، هي تلك الفروض التي ظلت على قيد الحياة، وبعد ذلك أصبحت "آباء" الجيل التالي من الفروض.

وإذا كان هذا القول صحيحاً، كما اعتقد بيرس فإن السؤال الخاص بكيف تصبح جيداً في التوصل إلى التفسيرات؟ يرتبط بكيف تصبح جيداً في التخمين. ونوعاً ما يجب أن تتعلم كيف تشحذ وتنمي من قدرتك المولود بها وهي التوصل إلى التفسيرات.

وأول خطوة في هذه العملية، هي أن تصبح متخصصاً في أي علم تختاره. ومن الممكن أن تصبح جيداً في التخمين كعالم طبقاً "لبيرس" إذا كنت معداً إعداداً جيداً.

وهناك أسلوب آخر لكي يستطيع العالم شحذ مهاراته في التخمين، وهو إدراك ما لديه من قدرات على التخمين الصائب. والبشر مثل الحيوانات، لديهم الكثير من القوى والقدرات العقلية، أكثر مما يعرفون عن ذواتهم:

" ترتقي الحيوانات من كل الأنواع، إلى حد كبير، فوق المستوي العام من ذكائها، المرتبط بأدائها وأدوارها، التي هي وظيفتها المناسبة؛ مثال الطيران، بناء العش بالنسبة للطيور العادية. وما هي وظيفة الإنسان إذا لم تتجسد الأفكار العامة في الإبداعات الفنية وفي المنافع وقبل كل شيء في المعرفة النظرية؟ وتكذيبه لشعوره بتقديس أسباب الظواهر، سوف يكون سخيفاً في الإنسان مثلما هو سخيف في الطائر قليل التجربة، الذي يرفض الثقة في جناحيه، ومغادرة العش، لأن هذا الشيء الضعيف والصغير قرأ "بابينت" Babinet (الفيزيائي الفرنسي)، وحكم على أن ذلك مستحيلاً لأسباب مادية هيدروجينية". (Peirce 1998: 443)

وعندما تحاول التوصل إلى تفسير، يكون من المهم أن تسترخي وتدع اللاشعور يقوم بوظيفته. وإذا حاولت أن تدفع الموضوعات، وتركز بشكل مبالغ فيه على المشكلة، فالنتيجة لن تكون جيدة. ويكتب "بيرس" في "التخمين": "خبرتي تؤكد

* إشارة إلى قانون "البقاء للأصلح" الذي أشار إليه داروين في سياق نظريته عن تطور الأنواع. (المترجم)

أن الشعور الذاتي، وخاصة الجهد المبذول للشعور، يجعلني على استعداد للوصول إلى حافة البلاهة، وأن الأشياء التي قمت بها بشكل تلقائي كانت هي الأفضل". (Peirce 1929: 280)

ولقد حرص بيرس على ألا تكون أفكاره عن التخمين غريبة. وأن تكون مفهومة تماماً، وكما ذُكر في المقدمة، عن "جونز هوبكينز" Johns Hopkins، الذي نفذ تجربة للكشف عن الظروف التي يصيب فيها الناس بالصدفة، ووجد أن ذلك كان مرتبطاً باللاشعور عندهم. (Peirce and Jastrow 1885) والاستنتاج العملي من ذلك، أنه إلى حد ما عليك أن تفتح عقلك الواعي للاشعور بداخلك، وبالتالي سوف تتمكن من الوصول إلى بعض من محتوياته.

وفي ذلك الوقت، لم يتتبع أحد عمل بيرس التجريبي عن التخمين، ولكن اليوم، الوضع مختلف، من الممكن أن ينظر علماء النفس المعرفي إلى أفكار بيرس عن التخمين، باعتبارها أفكاراً طبيعية بشكل تام. ومع تقدم البحث، سوف يكون من المهم أن نترجم استبصاراته إلى نصيحة علمية.

الأنواع المتعددة للتفسيرات وكيفية مقاربتها

من طرق الوصول إلى التفسير، أن تكون جيداً في التخمين والاستنباط، ومعرفة وإدراك عدد كبير من الأنواع المختلفة للتفسيرات، يمثل طريقة أخرى، يجب عليك أن تكون قادراً على التوصل إلى عدد من التفسيرات، لكي تختار الأنسب والأكمل منها.

لقد ذكر فتجنشتاين Wihgenstein ذات مرة أن مشكلة السببية، أنها تجعلك تعتقد أنه يوجد تفسير واحد فقط، عندما توجد في الحقيقة تفسيرات كثيرة. وهو يكتب:

"الشيء الماكر في وجهة النظر السببية، هو أنها تجعلنا نقول: "بالطبع كان يجب أن يحدث هذا الأمر بهذه الطريقة". بينما ينبغي أن نفكر: "ربما كان لهذا الأمر أن يحدث بهذه الطريقة أو بطرق أخرى كثيرة". (Wittgenstein 1980: 37e)

ومعرفة طرق كثيرة لتأسيس السببية، يجعل من السهل تجاوز فكرة أن التفسير الأول أو النوع الأول من التفسير، هو التفسير الصحيح.

وهناك كم كبير من الأنواع المختلفة من التفسيرات، بداية من تلك التفسيرات التي تستخدم في الحياة اليومية، إلى تلك التي تم اكتشافها بواسطة العلماء في العلوم

والمعارف المختلفة (انظر مثلا: Lombrozo 2012). وتتضمن لغة الحياة اليومية، الكثير من الكلمات التي تستخدم لوصف أن شيء ما يسبب شيء آخر، وأن هذه الكلمات يمكن أن تعمل كإلهام للتفكير في تفسير ظاهرة ما بطرق متعددة. "الأسباب" طبقاً للعلوم السياسية: "تحضر، تلقي، تعجل، تؤدي، تجر، تدفع، تسحب، تقود، تمزق، تقذف، وتدخل العالم في ظروف جيدة". (Brady 2008: 223)

وفكرة توجيه التفسير نحو بعض الأشخاص، تكون مفيدة في هذا السياق. وحسب وجهة نظر علم الاجتماع، "التفسير عبارة عن علاقة اجتماعية بين الأفراد، حيث يتم تفسير بعض الظواهر من خلال ربطها بشخص ما حتى يتم فهمها ... A تفسر B بالنسبة ل C (Martin 2011: 333).

ويكون هذا صحيحاً أيضاً بالنسبة للتفسيرات العلمية، ومرة ثانية يجب التأكيد هنا على الجمع، لأنه توجد الكثير من الأساليب المختلفة هنا. على سبيل المثال، يوضح فيبر: أن العلوم تختلف عن بعضها البعض في الشكل الذي تستخدم السببية من خلاله (Weber 1975: 195).

وهناك مؤلف آخر إرنست ناجل(*) Ernest Nagel، ميز بين أربعة أنواع عامة من التفسير: التفسيرات التطورية "التاريخية"، التفسيرات الوظيفية، التفسيرات الاحتمالية، التفسيرات الاستدلالية. (Nagel 1961: 25ff.) ومن هذه الأنواع الأربعة، يكون واضح أن علماء الاجتماع اليوم، يجدون تفسيرات النظرية الوظيفية غير مقبولة. وبينما من الممكن أن يكون ذلك موقفاً سليماً، إلا أنه توجد أيضاً المناقشة الإرشادية. وطبقاً لفيبر (الذي كان مهتماً جداً بهذا النوع من الأسئلة) تحليلات الوظيفية تكون في الأساس خطيرة جداً- لكن لا يمكن الاستغناء عنها في مرحلة مبكرة من التحليل (Weber 1978: 15).

وبشكل خاص، يكون هذا هو الحال، إذا وسع الشخص من فئة التفسير ليضم أيضاً الوسائل التي عبرها يتوصل إلى التفسير. وبينما هذان -التفسيرات والوسائل التي عبرها يمكن أن تتوصل إلى تفسير- الأمران يكونان متباينين، إلا أنهما يميلان إلى الاجتماع معاً، عندما تبحث عن تفسير.

(*) "إرنست ناجل" (١٩٠١-١٩٨٥) هو فيلسوف أمريكي، له إسهام كبير فيما يتصل بفلسفة العلوم، ويعتبر مؤسس منطق التفسير العلمي. (المترجم)

التجربة، المقارنة، والحقيقة المغايرة

تشكل التجربة خلاصة كيفية الوصول إلى تفسير، ولقد زاد قليلاً خلال العقد الماضي استخدام التجربة في العلوم الاجتماعية. (Jackson and Cox 2013). وطبقاً لفيبر تمثل التجربة ثاني أداة عظيمة للعمل العلمي، ويمثل المفهوم الأداة الأولي. (Weber 1946: 141). وما يجعل التجربة مفيدة جداً خاصيتان: التدخل، والتحكم. فأنت تضيف شيئاً ما، وتتبع تأثيره في ظل ظروف يتم التحكم فيها.

وفي الغالب يستخدم علماء الاجتماع التجارب القصيرة، كما في علم النفس الاجتماعي أو المعرفي، وذلك على العكس من العلوم الطبيعية، التي تكون التجارب فيها طويلة جداً في الغالب. وفي كل من العلوم الطبيعية والاجتماعية التجربة الواحدة ليست كافية. وعبر التجارب المتكررة فقط، يمكن بناء مساحات جديدة من المعرفة، وبشكل كامل، وذلك يعني من بين أشياء أخرى أن موضوع التكرار، يجب أن ينظر إليه كجزء من التفسيرات (انظر على سبيل المثال: Young 2009; Lucas et al. 2013).

وخلال بدايات العلم، هناك كثير من النتائج التي تم نشرها كانت خاطئة، ويوجد لذلك الكثير من الأسباب (انظر مثلا: Ionnadis 2005). ومن هذه الأسباب أنه في الغالب، يكون من غير الممكن استبعاد النظريات البديلة عبر تجربة واحدة أو بضع تجارب فقط. كما أنه يمكن تفسير الظاهرة دائماً بعدة طرق، وقد تستغرق عملية فرز هذه الطرق كثيراً من الوقت، حتى نتمكن من قبول أو رفض بعض هذه الطرق أو الأساليب.

وتحدث عملية الرفض، عند بروز تجربة محورية واحدة في الصورة (انظر مثلا: Lakatos 1974). ويمكن وصف هذه التجربة بأنها نوع خاص جداً، تم بنائها وتركيبها بأسلوب يمكن من خلاله أن تحدد بشكل حاسم، أن هذه النظرية، أو هذا الفرض يكون صحيح، وأن النظريات البديلة خاطئة.

والتوصل بشكل دقيق إلى التفسير في العلوم الاجتماعية أيضاً، يتطلب الأسلوب الذي يمكن من خلاله تناول مختلف النظريات، ورفض هذه النظريات إلا واحدة، وهذا أمر محوري من أجل وضع نظرية صلبة وراسخة، وهذا الأمر يجب تنفيذه، سواء كان الباحث يعمل من خلال التجربة، أو يعمل على المشكلة بأي أسلوب آخر.

ومراجعة ورفض النظريات البديلة، يعد جزء ضروري من التنظير في العلم الاجتماعي، ويمكن تنفيذ ذلك بطريقة مقبولة وكافية من خلال الدراسة الرئيسية.

وفي مرحلة التنظير المبكر، تكون عملية النظر في النظريات البديلة أمر له وظيفة إرشادية، وعبر مراجعة وفحص مختلف هذه النظريات البديلة لتفسير الظاهرة، قد نكتشف شيئاً ما آخر عن الظاهرة، التي نقوم بدراستها.

ويوجد أيضاً ما يسمي "تجارب الفكر" Thought experiments، حيث يقوم الباحث بتنفيذ التجربة في عقله. وهذا النوع من التجارب تم استخدامه في البداية بواسطة جاليليو، وكذلك بواسطة عدد من الفلاسفة أمثال روسو، ومفهوم جون رولز "حجاب الجهل"(*).

المحاكاة Simulation

يمكن القول أن المحاكاة هي بمثابة نسخة حديثة من تجارب الفكر، ويتم استخدامها الآن في معظم العلوم الاجتماعية، وقيمة المحاكاة في تأسيس الدليل التجريبي في العلم الاجتماعي، تكون محل حوار. وربما أشار دانكان واتس Duncan Wats إلى أن قيمتها الرئيسية تكون توجيهية إرشادية.

"محاكاة الكمبيوتر تكون أدوات مفيدة، يمكن أن تولد الاستبصار الكبير. ولكن في النهاية هي تشبه تجارب الفكر، وتناسب بشكل أفضل عملية تحفيز واستثارة الأسئلة الجديدة، أكثر من الإجابة عليها" (Watts 2011: 98).

وبينما يكون التحكم من مميزات التجربة، إلا أن تاريخ العلم يضم الكثير من الأمثلة، التي تؤكد على أن نقص التحكم أحياناً يكون حاسماً، على سبيل المثال: كيف اكتشف ألكسندر فيلمنج البنسلين، حيث اكتشفه بطريق الخطأ، عندما ترك بعض النباتات، التي تلوثت بالعفن الفطري، مما أدى إلى اكتشافه هذا.

وكان روبرت ميرتون مبهوراً بهذه الاكتشافات التي حدثت بمحض الصدفة، وهي الظاهرة التي أطلق عليها "السرندبية" Serendipiy (انظر مثلا: Merton 1968: 157–65). ومع ذلك هو لم يعتقد أن السرندبية كانت شيء ما تستطيع أنت أن تغرسها في الأشخاص، بل هي كل ما في الأمر أنك محظوظ، هذا هو كل شيء.

ولقد وضح هربرت سيمون Herbert Simon أن نقص التحكم في التجارب، قد يؤدي إلى الاكتشافات، ولكن بأسلوب مختلف عن "ميرتون"، وطبقاً لسيمون: التجارب سيئة التصميم يمكن أن تلعب دوراً بناءاً في العلم، ويجب وجود المزيد

* هناك أيضاً "ألبرت إينشتاين"، الذي تميز بقدرته على تصور أفكار علمية معقدة من خلال تخيل سيناريوهات مستمدة من الواقع الحياتي، وقد لقبت هذه السيناريوهات بالتجارب الفكرية. (المترجم)

من مثل هذه التجارب. ومن خلال تناوله لعدد من التجارب، التـــي نفـــذها خـــلال مسيرة عمله، كتب في سيرته الذاتية:

"كل التجارب الموصوفة عند هذه النقطة، تقـــارن الأداء فـــي ظـــل ظـــرفين مختلفين أو أكثر، من خلال معالجة المتغير المستقل. وعندما أمحض تجاربي، أجد ما يسبب الحيرة، حيث أنه من النادر ما تتم مقابلة الظـــرف الأساســـي للتجريـــب السليم. ما الذي يلائمني؟ وما الذي من الممكن أن أتعلمـــه مـــن التجـــارب ســـيئة التصميم؟ الإجابة –"تفاجئني"– تكون أنك تستطيع فحص النماذج النظريـــة، بـــدون تناقض التجربة مع شرط التحكم. وبعيداً عن اختبار صحة النماذج، تستطيع أنـــت في الغالب أن تقوم بعمل ملاحظات فجائية، تعطي لك أفكاراً لنمـــاذج جديـــدة، أو نماذج معدلة " (Simon 1991a: 383).

ويضيف سيمون بعد ذلك إلى مناقشته التي تؤكد على أنه ليس من الضروري دائماً أن نتحكم في شيء ما، من أجل أن نجعل التجربة مفيدة:

"وإذا كانت مناهج البحث، تسبب لنا المشكلات، فإنه قد يكون من الأفضل لنا أن نتذكر أن التحليل الطولي التفصيلي لنظام شمسي واحد، كان حجز الأساس لقـــوانين "كيبلر" Kepler، وفي النهاية قوانين "نيوتن". وربما ليست مناهج البحث خاصتنا هي التي تحتاج للمراجعة والتنقيح، بشكل كبير، مثل الكتب الدراسية عن مناهج البحـــث، والتي تحذرنا بشكل مضلل من تنفيذ تجربة، حتى تتم صياغة الفـــروض التجريبيـــة، وتعريف الشروط الضابطة (أو بشروط التحكم). وربما نحن نحتاج إلى أن نـــضيف إلى هذه الكتب الدراسية فصل أو عدة فصول، تصف كيفية التوصل إلى الاكتـــشافات العلمية الأساسية، بواسطة ملاحظة العالم بشكل مقصود وواعي، داخـــل أو خـــارج المعمل، وبشروط ضابطة أو بدون شروط". (Simon 1991a: 385)

وفكرة استخدام المقارنة Comparison للتوصل إلى تفسير، يمكن اعتبارهـــا نسخة من التجربة، أو بشكل أدق، شيء ما يجب استخدامه، عندما لا تكون التجربة ممكنة. ودوركايم الذي وضح عبر هذه السطور، أطلق علـــى المقارنـــة مـــصطلح "تجربة غير مباشرة" an indirect experiment. (Durkheim 1966: 125)

واستخدام المقارنة، ظهر كتقليد لدى الكثير من علماء الاجتماع، بالإضافة إلى "دوركايم". ويمكن الحديث أيضاً عن سلسلة متواصلة من الأنواع المختلفة للمقارنة، بدءاً من التجربة الطبيعية، إلى التجربة الحقلية أو الميدانية. إلى استخدام اســـتعارة المعمل، كما في مفهوم المدينة "كمعمل اجتمـــاعي" Social Laboratory. (انظـــر على سبيل المثال: Park 1929) ومنطق الوصول إلى التفـــسير ذاتـــه فـــي العلـــم

الاجتماعي، قد يكون أيضاً مرآة لمحاولة التعويض عن غياب الشروط التي تكون ضرورية لتنفيذ التجربة طبقاً للكتب. والمثال الكلاسيكي على ذلك، يمكن أن نجده في عمل "جون سيتورات مل" عن السببية، حسبما تم تكييفها، حتى يتم استخدامها في العلوم الاجتماعية الحديثة. وطريقة استخدام علماء العلوم الاجتماعية لأسلوب التمايزات أو الاختلافات، وأسلوب أو منهج التباينات الاقترانية المصاحبة، وهكذا، كل هذه الأساليب لها أساسها وأصلها في مثل هذه المناقشة.

ومن المعروف اليوم، أن هناك عديد من المشكلات التي تواجه رأي "ستيوارت مل" عن السببية، خاصة لدى علماء السياسة المحدثين، الذين يتخصصون في السياسة المقارنة، فلقد أسهموا بشكل كبير في تطوير الاستخدام المعقد والمتقدم للمقارنات، بهدف الوصول إلى التفسير. (انظر على سبيل المثال: Box-Steffenmeier et al. 2008). ولقد تم نقل بعض من هذه الإسهامات إلى علم الاجتماع بواسطة "جيمس ماهوني" James Mahoney، والذي أضاف عدداً من الأفكار الرائعة، من خلال تأليفه وتخصصه (انظر على سبيل المثال: Goertz and Mahoney 2012).

ولا تستخدم المقارنة فقط لتأسيس وفحص الفرق أو الاختلاف بين حالتين، ولكنها تستخدم أيضاً لتأسيس التشابهات، التي يمكن من خلالها إنتاج التفسير أيضاً، وتعد هذه الطريقة الأخيرة، شائعة في علم الاجتماع للتقدم نحو التفسير. ولقد كان جورج زيمل واحد من خبراء هذه الطريقة.

و"فرق تسد"، تمثل استراتيجية يتم الاعتماد عليها في أنواع مختلفة من الأنشطة، "أو بمعني آخر، معرفة الفروق تمثل إستراتيجية في عدد من الأنشطة". (انظر مثلا: Simmel 1950: 162–69). وطبقا لهيوز Everet C. Hughes، كمثال آخر: توجد تشابهات كبيرة بين "فتيات الليل" و"الطبيبات النفسيات"، من خلال أن كليهما يجب أن يكونا حريصات على ألا يتورطن بشكل كبير مع زبائنهن ومشكلاتهم الحميمية (Hughes 1984b: 316).

وهناك أداة أخرى، يمكن استخدامها بشكل متشابه، بهدف الوصول إلى التفسير، وأيضاً من أجل الأغراض الإرشادية، وهي الحقائق المغايرة، وكالمقارنة يتم استخدامها في عدد من العلوم، بطرق مختلفة نوعاً ما وتكون تعليمية. على سبيل المثال، علماء علم النفس المعرفي، يستخدموا الحقائق المغايرة، وكذلك علماء السياسة والفلاسفة، والمؤرخون، وعلماء الاقتصاد وعلماء الاجتماع.

وبخصوص أن الحقيقة المغايرة تشبه التجربة، ذلك يكون بمعني أنه في

التجربة تحرك المفتاح في اتجاه عقارب الساعة، وفي طريقة الحقيقة المغايرة تحرك المفتاح عكس اتجاه عقارب الساعة، وهذا أثبت أنه مفيد. ويظهر ذلك في نظرية "ديفيد لويس"[*] David Lewis الفلسفية، عن الحقائق المغايرة. Lewis) (1973 حيث أنه من خلال "لويس" تم التأثير على المناهج والأساليب الإحصائية في العلوم الاجتماعية (انظر مثلا: Brady 2008).

وما تفقده هذه الطريقة هو شيء ما يكون مرتبط بشكل واضح، بالحالة الوجودية للكائنات البشرية، حيث أنك لا تستطيع أن تتقدم إلا للأمام في الزمن التاريخي، وليس للخلف، والحركتان ليستا نفس الشيء.

وتعد هذه الحقيقة أحد أسباب الكثير من القضايا الهامة التي تثيرها أداة الحقيقة المغايرة. ومثل هذه القضايا تبدأ من المسائل الوجودية إلى أسئلة وموضوعات السببية، وفي بعض الأحيان مزيج من كليهما.

وبالنسبة لكيفية استخدام الحقيقة المغايرة للوصول إلى تفسير، يمكن للقارئ أن يرجع إلى أفكار "ماكس فيبر" عن موضوع "الاحتمال الموضوعي" Objective Possibility (مصطلحه عن الحقيقة المغايرة –169 :Weber 1978: 10–11;2012 84). وأنا سوف أحاول تلخيص أسلوب فيبر هنا، لأنه ليس معروفاً بشكل جيد خارج علم الاجتماع.

وطبقاً لفيبر، تمثل الحقيقة المغايرة، شكل من أشكال "التجارب الخيالية"، والتي تكون منطقية ومدركة فقط من خلال افتراض أن الأفعال البشرية تكون اختيارية وليست جبرية. ولماذا نصاب بالضيق مما سوف نفعله؟ إذا كانت أفعالنا محددة سلفاً. وكونك إنسان، فإن ذلك يعني سلفاً وجود احتمالات مختلفة للكيفية التي سوف تتصرف بها.

وقال فيبر أن بناء الحقيقة المغايرة يتم في خطوتين: تبدأ باختيار العامل الذي نعتقد أنه ذو قيمة إستراتيجية، (نطلق عليه العامل X)، ويسمي ذلك "العزل"، وبعد ذلك ننظر إلى العوامل الباقية، ونحدد ما إذا كانت هذه العوامل تضيف إلى القاعدة العامة للتجربة. (Weber 2012: 175). وإذا كان ذلك هو الحال، فإنه يمكن تنفيذ تحليل الحقيقة المغايرة بنتيجة إيجابية، وسبب ذلك أنه إذا كان العامل X غائب، فإن النتيجة بكل الاحتمالات سوف تكون مختلفة أو مغايرة.

---

* "ديفيد لويس" (١٩٤١–٢٠٠١م) فيلسوف أمريكي، له إسهامات عظيمة في مجالات فلسفة اللغة وفلسفة العقل ونظرية المعرفة. (المترجم)

واستخدام نموذج "فيبر" لكيفية بناء الحقيقة المغايرة، يمكن أن يؤدي إلى وجهات متعددة. والأفكار والرؤى الجديدة التي يمكن توليدها من خلال النظرة الدقيقة إلى ثلاثة أمثلة يستخدمها "فيبر"، لتوضيح فكرته حول الحقيقة المغايرة:

أول هذه الأمثلة، قرار بيسمارك عام ١٨٦٦م الخاص بالذهاب إلى الحرب. ومنذ بدء عملية توحيد ألمانيا، وسؤال الحقيقة المغايرة: هل كانت سوف تتوحد ألمانيا، إذا لم يذهب "بسمارك" ويتخذ قرار الحرب عام ١٨٦٦م؟

والمثال الثاني: يتمثل في معركة "الماراثون"(*)، والتي وقعت عام ٤٩٠ق.م، إذا نجح الفرس وفازوا في الحرب، فإنهم سوف يفرضون ثقافتهم السلطوية على المدن الإغريقية. والحقيقة المغايرة هنا: ماذا كان شكل الثقافة الغربية لو أن الأثينيين خسروا معركة الماراثون؟

ومثال فيبر الثالث، ليس تاريخي، ولكنه افتراضي. يفترض أن أم شابة انزعجت وغضبت غضباً شديداً، وقامت بصفع طفلها. فإذا لم تغضب غضباً شديداً، هل كانت سوف تصفع ابنها؟

ومن خلال العمل عبر هذه الأمثلة وتحليلها، تستطيع الحصول على معنى كيفية إثارة الحقائق المغايرة للأسئلة الجديدة، وهذا يجعل الباحث يبحث عن مادة تجريبية جديدة. ويمكن أن نضيف إلى ذلك، أنه بينما الحالة الشهيرة الخاصة بقرار "بسمارك" وتوحيد ألمانيا، تتفق مع المثال القياسي التاريخي "ماذا سوف يحدث لو...." لكن الحالتين الأخيرتين توسعان في مفهوم الحقيقة المغايرة، بطرق هامة ومثيرة. ومثال معركة الماراثون لا يدور حول حدث تاريخي مستخدم كحقيقة مغايرة، بل هو عن ثقافة تاريخية مستخدمة كحقيقة مغايرة. ومثال الأم الغاضبة يكون سيناريو لحقيقة مغايرة من نمط الأحداث الصغرى.

ويستطيع الشخص أن يوضح أيضاً، أن أسلوب فيبر عن الحقيقة المغايرة، يساعدنا على فهم خاصية هامة ومثيرة في هذه الطريقة بوجه عام، وهي أنها تجعلنا نواجه شعورنا الحدسي، الخاص بأن ما حدث بطريقة ما، كان يجب أن يحدث. وحسب اثنين من علماء السياسة، "معرفة النتائج" تشوش فهمنا للماضي، ويمكن أن تؤدي إلى حتمية الاستدلال المتأخر. (Tetlock and Belkin 1996: 15)

وعندما نتحدث عن الاستدلال المتأخر، والاستدلال المتقدم وارتباطهما

---

* معركة الماراثون: حرب وقعت عام ٤٩٠ق.م في سهل "ماراثون" على بعد أميال من أثينا، وفيها تمكن جيش أثينا وبلاتايا من صد محاولة ملك بلاد فارس للاستيلاء على ما تبقى من اليونان، وضمها إلى الإمبراطورية الفارسية. (المترجم)

بالتفسير، يجب أن يكونا شيئاً واحداً، ولكنهما ليسا كذلك. فالاستدلال المتأخر عبر الحوادث الماضية من خلال شكل الحقيقة المغايرة، يفتح لنا أساليب جديدة للنظر فيما حدث، ولماذا حدث، ولا يمكن استبداله بالتجارب أو المقارنات.

المعنى والإحصاء والآليات الاجتماعية

لقد ذكرنا فيما سبق، أن العلوم الاجتماعية، على العكس من العلوم الطبيعية، يجب أن تكون قادرة على تناول المعني وتفسيره. ويتضمن هذا عديد من النتائج، بالنسبة لأسلوب بناء التفسيرات في العلم الاجتماعي. وأول محاولة مؤكدة في علم الاجتماع، لدمج المعني بشكل مباشر في التفسير، قام بها "ماكس فيبر"، في كتابه المعنون "الاقتصاد والمجتمع". ولأنه كان دقيقاً في مناقشته، فسوف يكون عملاً مفيداً وتعليمياً، أن نتعرف على كيف سار هو في هذه المهمة.

والدور الأساسي الذي يلعبه المعني في التفسير السوسيولوجي، طبقاً لفيبر، يكون على النحو التالي. (Weber 1978: 4). فالمعني الذي يعطيه الفاعل لفعله (الفاعل النمطي، وليس فرد معين)، ليس نفس المعني الذي يفسر ما يحدث. ومع ذلك هو أحد العوامل التي تساعد في ذلك.

ولأن الفعل الاجتماعي يتطور، فإنه يجب أن نأخذ في الاعتبار أفعال الكثير من الفاعلين، من أجل تفسير ما يحدث، وهؤلاء الفاعلين الآخرين يخلعون على أفعالهم معاني أخرى مختلفة. وتوجد صراعات بين الأفعال والنتائج غير المتوقعة من الأفعال الاجتماعية أيضاً. ونكرر أن معني الفاعل الفردي يكون مجرد واحد من الأسباب الكثيرة، التي تجعل فعل اجتماعي معين ينتشر ويتضح.

ويوضح فيبر أنه يجب أن يتحقق شرطان من أجل أن يصبح تفسير العلم الاجتماعي، الذي يأخذ المعني في الاعتبار، صادقاً وصالحاً. الشرط الأول: أن توجد ملائمة طبيعية بين المعني والفعل الذي يصاحبه Weber 1978: 11.

على سبيل المثال: إذا قصد الفاعل أن يقوم بتحية شخص آخر، ويسير نحو هذا الشخص بيد ممتدة، فإنه توجد ملائمة طبيعية بين المعني والفعل. وإذا قصد الفاعل أن يقوم بتحية الشخص الآخر، ولكن استدار وغير اتجاهه، أو جلس وفعل شيء آخر غير مألوف، فإنه في هذه الحالة، لا توجد ملائمة على مستوي المعني.

الشرط الثاني: أن ما يقوم به الفاعل، يجب أن يحتوي على التأثير المقصود، من خلال الاعتماد على ما يحدث في الحالات المعتادة من هذا النوع (ملائمة

سببية) Weber 1978: 11–12. فإذا اقترب شخص ما منك بيد ممدودة، وذلك هو شكل بداية السلام باليد، فالفعل يكون ملائماً سببياً.

وعند هذه النقطة، يعود فيبر إلى نموذج الحقيقة المغايرة، والذي تمت مناقشته فيما سبق، والذي يكون مبني على مؤلفاته عن فلسفة العلم. وفي مؤلفه "الاقتصاد والمجتمع"، يقوم بعرض تلخيص لموضوع الحقيقة المغايرة، وذلك بالطريقة التالية. من إحدى طرق تأسيس السببية، هي طريقة المثال الخيالي "أو التصوري" "imaginary example" (Weber 1978: 11–12). والذي فيه تخبر القارئ أنك سوف تفعل ذلك بواسطة التفكير في عناصر معينة، من خلال سلسلة من الدوافع، وتحديد مسار العمل، والذي يمكن أن يؤدي أو من المحتمل أن يؤدي ذلك إلى الوصول إلى حكم سببي.

ويزود فيبر القراء بقاعدة إرشادية حول كيفية التوصل إلى تفسير بشكل سريع. وذلك من خلال أن تبدأ بتحليل افتراض أن الفاعلين يتصرفون بطريقة عقلانية، وبعد ذلك يقارنون أفعالهم بما يحدث في الواقع. فإذا ظهر بعض من التناقض، كما يقول "فيبر"، فإنه من الممكن معرفة سببه من خلال البحث التجريبي .(Weber 1978: 6)

وفي نموذج فيبر عن كيفية ضم عنصر المعني في التفسير السوسيولوجي، يدخل الإحصاء والاحتمال بطريقتين: أولاً: الفعل الملائم سببياً ليس جبرياً، والاحتمالية فقط هي المتضمنة. ثانياً: لا يمكن تأسيس احتماليات دقيقة، لأن نظرية الاحتمال، لا يمكن تطبيقها بشكل مباشر على الحياة الاجتماعية، طبقاً لفيبر، ولكنها مثل حجر النرد المحملة، والتي تميل إلى التأرجح حول قيم معينة، وذلك يعتمد على كم الثقل الإضافي المتضمن، فحيث يقع مكان الثقل، سوف يكون هذا الفعل كذلك (Weber 2012: 180–81).

ولكن دعني الآن أظل مع موضوع الإحصاء، مع ترك فيبر في نفس الوقت. وعلى الرغم من أن نوع الإحصاء الذي يستخدم في علم الاجتماع العام اليوم، لا يتناول قضية المعني بشكل واضح، لكنه يمكن أن يكون مفيداً عندما تحاول أن تتوصل من خلالها إلى تفسير جديد.

ولأسباب واضحة، لا يمكن الاستغناء عن الإحصاء عندما تقوم ببناء التفسير (انظر على سبيل المثال: Woodward 2009). وحقيقة أن الإحصاء احتمالية في طبيعتها وليس جبرية، تفتح باب الإحصاء لتحليلات المعني، وطريقة تطور محتوى التحليل الحديث توضح ذلك (وانظر أيضا: Biernacki 2012).

ومثلما يدعم هربرت سيمون Herbert Simon استخدام التجارب غير المحكمة، والتي وضعت على عجل، لا يزال التحليل السريع وغير المحكم لمجموعة البيانات التي ليست في شكل جيد مفيداً في الوصول إلى أفكار جديدة من أجل التفسير. وبالمثل الارتباطات البسيطة يمكن أن تلهم بأفكار جديدة، على الرغم من أنها قد لا تساعد على تحديد العلاقة الارتباطية بين ظاهرتين. على سبيل المثال: قد يكون من المسلم به بوجه عام أن الديمقراطية والتنمية الاقتصادية تميلان إلى الارتباط معاً، على الرغم من أن العلاقة بين الاثنين لا تزال غير واضحة.

ويوضح بعض العلماء الذين يدعمون البيانات الضخمة، أن الارتباط سوف يحل محل السببية عاجلا، وأن السؤال "ماذا سوف؟" What will سوف يحل محل "لماذا" Why. وبينما يبدو ذلك محل شك، لكن ما نعرفه حتى الآن عن البيانات الضخمة، يشير إلى أنه من الممكن تنفيذ الدراسات الهامة والإرشادية بواسطة الارتباط. وبدلاً من تفسير ذلك على أنه إشارة إلى أن السببية سوف تصبح غير ضرورية وأن نهاية النظرية سوف تكون قريبة، يمكن أن ننظر إلى ذلك باعتباره توضيح آخر لقدرة الارتباط التوضيحية والإرشادية (على سبيل المثال: Anderson 2008).

ومن خلال الإحصاء الحديث، تستطيع أنت بشكل كبير أن تتبع آثار سبب معين، بدلاً من محاولة أن تجد ما الذي تسبب في تأثير معين، ويرتبط هذا بقدرة وكم استخدام علماء الاجتماع للمنهج الوصفي. ومثلما يساعد نموذج الحقيقة المغايرة –عبر الرجوع إلى الماضي والتقدم إلى المستقبل– في زعزعة الأمور، وجعل من الممكن رؤية الأشياء بشكل مختلف، وعلى ضوء جديد.

وترتبط الحماسة الحالية في بعض الأجزاء لفكرة الآليات الاجتماعية، بالشعور بأنه من الصعب تفسير ما يحدث في ضوء المتغيرات والعلاقات الارتباطية. ويسمح لك مفهوم الآلية ذاته بأن تصنع أو تتعامل مع السبب باعتباره عملية، أو شيء ما يكون إشارة إلى التفسير المتقدم الكافي (على سبيل المثال: Lave and March 1993: 40–41).

ومثلما نستطيع أن نتعرف على كيفية عمل الآليات –مثلاً كيف تدخل عجلة الترس في العجلة المسننة وتجعلها تدور– لذلك كثير من علماء الاجتماع، يريدون بشكل نموذجي أن يكونوا قادرين على ربط السبب بالأثر، بطريقة عضوية عبر تحليلاتهم. والشيء كله يكون بأسلوب آخر، كشعور "فيبر" عندما زار مدينة شيكاغو خلال رحلته إلى أمريكا عام ١٩٠٤. وقال: "إن نظرة إلى المدينة توحي

لك وكأنك ترى رجلاً تم تقشير جلده، وأصبحت أمعائه الداخلية تُري وهي تعمــل". (Weber 1975: 286)

ويمكن إضافة أن نفس طموح رؤية كيفية ارتباط السبب بالأثر معاً، بأسلوب شفاف، يكون وراء الأسلوب المعروف باسم "تعقب العملية". وكلمة "تعقب العملية"، تفتقر إلى صورة الآلية، إلا أن فكرة تصور السبب على ضوء العملية، تكون مشابهة إلى حد كبير.

النماذج وأشياء أخرى

وتوجد طرق أخرى كثيرة للوصول إلى التفسير، غير تلك التي تمت مناقشتها حتى الآن. ففي موضوعات مثل الطب والقانون، على سبيل المثال، تم تصميم عدد من الأساليب الهامة للتوصل إلى التفسير، وذلك عبر قرون طويلة (على سبيل المثال: Hart and Honoré 1958; Groopman 2007).

وما هو أعم، أنه يوجد "النموذج" Model، أو محاولة بناء التفسير من خلال "إضفاء الصفة الشكلانية. وتستخدم النماذج عادة في كثير من التفسيرات، التي تمت مناقشتها في السابق، ولكنها تستحق مناقشة خاصة بها.

وفي مرحلة الاكتشاف، تميل النماذج إلى أن تكون أكثر حدسية، وأقل توصلاً إلى الحلول، وذلك مقارنة بما يحدث في مرحلة التبرير. ولا يزال أنه من مميزات استخدام النموذج الشكلاني، عندما نقوم بالتنظير، أن الافتراضات تكون ظاهرة وصريحة. وهناك ميزة ثانية، وهي أن النماذج تكون مقتصدة. والميزة الثالثة، أنها تسمح لنا بفهم كل النتائج المترتبة على وضع فروض معينة بما في ذلك الفروض الجديدة والمفاجئة (على سبيل المثال: Chomsky 2004).

وبشكل أساسي، تعيد النماذج بناء شيء ما، كما لو أنه حدث بطريقة معينة، وفي علم الاجتماع، يعني ذلك شيئان: أن الكثير من المادة التي تأتي من خلال الملاحظة الدقيقة، لا يرفض، وأن العملية المجردة تكون مفترضة جداً. وطبقاً لأحد الفلاسفة، تكون النماذج "أدوات تكهنية". وكما يفعل حفل الزفاف، فإنها تجمع "الموضوعات المتفرقة" معاً. وأيضاً "تكشف العلاقات الجديدة". كما أنه لا يمكن التكهن بنتائجها (Black 1962: 237).

وهناك فيلسوف آخر هو ستيفين تولمين Stephen Toulmin، يصف مميزات استخدام النماذج على النحو التالي: "أنه من خصائص النموذج الجيد، أنه يوضح المزيد

من الأسئلة، ويأخذنا إلى ما وراء الظاهرة، التي نبدأ منها، ويغرينا بصياغة الفروض، التي تصبح بعد ذلك مثمرة تجريبياً. وبالتأكيد فإن خاصية إنتاج الأسئلة تجعل من النموذج الجيد، شيء أفضل من الاستعارة البسيطة" (Black 1962: 239).

ويجب أن نذكر بشكل سريع مفهوم جيمس كولمان، الذي تتم في بعض الأحيان مناقشته عند التطرق إلى مفهوم النماذج، وهو مفهوم "النظريات الحقيقية" True Theories. وطبقاً لكولمان توجد الكثير من الظواهر الاجتماعية المعقدة، والتي لا يمكن فهمها من خلال نظرية واحدة. ومن خلال تنوع الظروف التي تتواجد فيها هذه الظواهر، يمكنك الوصول إلى العديد من النماذج، التي تكون كلها صحيحة، أي إنها صحيحة في بعض الأحيان، أي في ظل ظروف معينة.

وينتهي كولمان إلى استنتاج النتيجة التالية:

"يبدو أن مصطلح "النموذج" أصبح يستخدم بدقة لوصف هذه "النظريات الصحيحة أحياناً"، ويحتوي مصطلح النظرية على دلالات كونها صحيحة أو كاذبة، بينما يكون من خاصية هذه "النظريات الصحيحة"، أحياناً، أو النماذج بأنها إما صحيحة أو كاذبة" (Coleman 1968: 518).

ويمكن أن تنظر أنت أيضاً في "النظريات الصحيحة أحياناً"، بطريقة مختلفة. يمكن أن تستخدم إستراتيجية تنويع الظروف، حتى يكون النموذج صحيحاً، كطريقة لإبراز ما يمكن أن يكون الأسلوب الأفضل لتفسير بعض الظواهر. وربما هذه النظريات الصحيحة أحياناً سوف تظل "نماذج"، ولكنها من الممكن أن تتحول إلى "نظرية" حسب مصطلحات كولمان. وقبل أن تدرس ظاهرة معينة، يكون من الصعب عليك أن تعرف.

وحتى بعد أن تتوصل إلى تفسير مقنع في الدراسة التمهيدية، هناك بعض المهام التي يجب تنفيذها. ومن هذه المهام معرفة ما إذا كان من الممكن أن نتوسع في هذا التفسير إلى ظواهر أخرى، ومهمة أخرى هي القيام بفحص سريع والتأكد من عدم ارتكاب الأخطاء.

وتزداد قيمة التفسير الذي تم التوصل إليه، إذا كان من الممكن استخدامه أيضاً لتفسير عدد من الظواهر الأخرى. ذلك عندما يبرز التعميم ويظهر في الصورة مرة أخرى. والقاعدة العامة تكون، أنه كلما زادت الظواهر التي يمكن تفسيرها، كلما كان التفسير أفضل. وكلما زادت الاختلافات بين الظواهر، كلما زادت دقة تفسيرها أيضاً. وفي العلوم الاجتماعية، هذه النقطة الأخيرة تعني أنه بينما يكون

العنصر البنائي واحد، قد يختلف المضمون، ومفهوم التكافؤ البنائي في نظرية الشبكات، يكون مثال على ذلك.

وضرورة فحص عدم ارتكاب خطأ، يكون سببه أن إجراء الدراسة التمهيدية، لا يتم طبقاً لقواعد ثابتة، لذلك ففرصة ارتكاب الأخطاء تكون أعلى كثيراً، مما يكون موجوداً في الدراسة الرئيسية أو الفعلية. وينطبق ذلك على كل المراحل بداية من الملاحظة حتى التفسير المؤقت.

وبعض المعلومات التي تكون مفيدة عن نوعية الأخطاء التي يمكن البحث عنها في حالة التفسير، يمكن أن تكون موجودة في مجال معروف باسم "علم النفس المعرفي للتفسير" Cognitive Psychology of Explanation، ويركز هذا الفرع بشكل رئيسي على طريقة توصل الناس إلى التفسيرات، وشكل هذه التفسيرات "كيف تبدو هذه التفسيرات". ومن أفكار هذا العلم أن الناس يستمرون منذ الطفولة في إنتاج التفسيرات كجزء من محاولاتهم لفهم الأشياء. وذلك يعني من بين أشياء أخرى، أن الناس يميلون إلى التوصل إلى التفسيرات، عندما لا يوجد من يفسر لهم الموضوعات.

ويميل الناس أيضاً إلى ارتكاب أخطاء ممنهجة، عندما توجد حاجة مشروعة إلى تفسير ما. على سبيل المثال: يتم النظر إلى التفسيرات البسيطة في العادة، على أنها تزيد احتماليتها عن التفسيرات المعقدة. وينظر إلى السبب الذي يمكن أن يفسر عدة ملاحظات على أنه ذو احتمالية وقيمة أكبر من السبب الذي يفسر ملاحظة واحدة فقط. وبإضافة التفاصيل أيضا تجعل التفسير مقبولاً بشكل أكبر. (Lombrozo 2006, 2007, 2012; Watts 2011: 132)

وسوف يتم مناقشة بعض الأخطاء التي يمكن أن ترتكب خلال الدراسة التمهيدية في الفصل السادس، وفيما يلي قائمة بالأخطاء المحتملة، وذلك لتوضيح أن مراجعة الأخطاء، يجب اعتباره جزءاً أساسياً من الدراسة التمهيدية:

قائمة الأخطاء المحتملة في التنظير المبكر

١- الاعتماد على الأفكار المسبقة أو أفكار الحس العام.

"ما تعرف أنه صحيحاً، قد لا يكون كذلك".

٢- الانحياز للتفسيرات الفردية مقابل التفسيرات الاجتماعية.

"التركيز على دوافع الفرد واهتماماته، يكون أسهل من التفكير على ضوء النشأة الاجتماعية والبنية الاجتماعية. قارن خطأ العزو الأساسي الخاطئ، أو الميل بشكل خاطئ إلى تأثيرات السياق على الفرد".

٣- خطأ العينة:

"من السهل أن تنظر فقط إلى ما يكون مهما، وبطرق أخرى تولد انحياز في العينة".

٤- الانحياز إلى التفسيرات البسيطة:

"تحتوي التفسيرات البسيطة على جذب الانتباه والانحياز لها على حساب التفسيرات المعقدة".

٥- الميل إلى الجبرية:

"على الرغم من أن الفاعلين يدركون أن المستقبل غير مؤكد، إلا أنه من السهل النظر إلى ما يحدث على أساس أنه حتمي أو جبري".

٦- انحياز الإتاحة:

"السهولة التي قد تأتي بها الموضوعات إلى العقل تؤثر على الرأي العام حول شيء ما".

٧- انحياز نقطة البداية:

"يتأثر رأيك عن ظاهرة معينة بنقطة البداية".

٨- تحيز التمثل:

"الأحكام تكون مبنية على التعميم".

٩- التحيز الوجداني:

"يؤثر رأيك الوجداني على فهمك للأشياء، بمعني رأيك العاطفي يؤثر على فهمك".

١٠- تأثير الهالة:

"اتجاهاتك نحو شيء ما تؤثر على أسلوب فهمك لكل شيء مرتبط به".

١١- خطأ التركيب:

"ما يكون صحيحاً بالنسبة للجزء، قد لا يكون صحيحاً بالنسبة للكل".

١٢- خطأ التأكيد:

"أنت تختبر فقط صحة الفرض الذي تميل إليه".

المصدر:

- البنود من (١) إلى (٥) انظر: Duncan Watts, Everything is Obvious, 2011.
- البنود من (٦) إلى (١٠) انظر: Daniel Kahneman, Thinking, Fart and Slow, 2011.

القسم الثاني

التحضير من أجل التنظير



الفصل السادس
الاستدلال

الفصل السادس (*)
الاستدلال

"أي شـــيء صـــحيح يقـــود إلـــى فكـــرة صـــحيحة"
جـــورج بوليـــا، فـــي كتابـــه كيـــف تحلهـــا
Georg Polya, How To Solve It [1]

يمكنك حتى الآن في هذا الكتاب أن تتعلم التنظير، وذلك باتباع خطوات معينة: وكما لاحظت، حاول أن تسمي الظاهرة، وهكذا إلى أخر الخطوات. وحان الآن الوقت لإضافة أنه مازال هناك الكثير من أجل التنظير. أنت تحتاج إلى تطوير مهاراتك خاصة في التنظير، وتحتاج أيضاً إلى بعض المعرفة النظرية في العلوم الاجتماعية.

سأحاول في الفصول القليلة القادمة أن أبين كيف يمكن تحقيق ذلك. سأبحث في هذا الفصل عن أداة مفيدة تساعدك على التنظير بطريقة عملية. أعني؛ الاستدلال. وفي الفصل التالي، سوف ينتقل التركيز إلي التدريبات العملية. وسوف تتناول الفصول الثلاثة المتبقية موضوعات مثل النظرية الاجتماعية التي من المفيد معرفتها، وكيف يمكن تدريب خيالك على التعاطي معها.

أهمية الاستدلال في التنظير

كما سبق الإشارة، فإن اتخاذ موقف استكشافي يمكن أن يكون مفيداً. ولقد جادلنا بأنه عندما تنظر وتمضي قدماً في إنشاء مفهوم، أو إجراء تصنيف، وما إلى ذلك، يجب عليك ألا تستخدم الخطوات الفردية، ولكن عليك أيضا محاولة اكتشاف شيء جديد عن الظاهرة التي تدرسها.

ولكن هناك ما هو أكثر من موضوع الاستكشاف. فمن المهم عندما تُنظر أن تتخذ موقفاً أكثر عمومية في الاستدلال، ومن المفيد أيضاً أن تقوم بتطوير مهاراتك الشخصية في فهم قواعد الاستدلال.

---

* ترجم هذا الفصل الدكتور وليد رشاد زكي.

إن موقف الاستدلال، أو الاتجاه للتنظير يكون حول الاستكشاف، وهو متأصل – إلى حد ما – في قرار التنظير في المقام الأول، فأنت مُنظر باستمرار في الحياة اليومية. فكل موقف يختلف نوعاً ما عن المواقف الأخرى، وهذا يعني أنك سريعاً وغريزياً، يجب عليك ضبط وتحسين نفسك عند المضي قدما في التنظير، ويجب أن تحاول أن يكون لديك مسحة جديدة عندما تنظر لأكثر من قضية في العلوم الاجتماعية.

وسرعان ما تجد نفسك قد طورت عدداً من القواعد حول كيفية التفاعل مع المواقف الجديدة في الحياة اليومية، وسوف تقوم بفعل نفس الشيء عندما تنظر، ويدور هذا الفصل حول جعل هذه العملية أكثر وعياً، حتى تتمكن من تطوير مهاراتك الشخصية في قواعد الاستدلال.

وهناك أدبيات خاصة يمكن العثور فيها على مناقشة لهذه الأسئلة، وما يتصل بها من مسائل. وقد بدأت هذه الأدبيات في العصور القديمة، ولكنها ازدهرت خاصة بعد الحرب العالمية الثانية. وحقيقة الأمر أن الأدبيات المتعلقة بالاستدلال تعود في أصلها إلي العلوم الطبيعية والفلسفة، ولكنها اليوم تشمل العلوم الاجتماعية أيضاً.

وبالنسبة لأولئك الذين يريدون أن يصبحوا جيدين في التنظير، فمن المفيد لهم معرفة بعض الشيء عن هذه الأدبيات. حيث أنه يثير تساؤلات حول الانتقال من الطريقة التي يفكر بها العلماء المبدعون في حل المشكلات إلى الطريقة التي يميل بها الناس العاديون إلى اتخاذ قرارات في حياتهم اليومية.

استدلال حديث

تحمل كلمة استدلال معاني كثيرة، وهو أمر جدير بالاعتبار عند مناقشة علاقة الاستدلال بالتنظير. وباختصار فإن ما تحتاجه هو نوع من الاستدلال الذي يسمح لك بتنظير جيد.

والتفسير الأكثر شيوعاً لكلمة "استدلال" هو أنه يعني "الاكتشاف" وأن أصله يرجع إلى الحادثة المعروفة في حياة أرشميدس Archimedes. فبعد أن قام أرشميدس بحل مشكلة صعبة للغاية ركض في شوارع سيراكوس Syracuse، صارخا "أيوريكا" Eureka أو وجدتها! ويفترض أن هذا الحدث تم عام ٢٥٠ قبل

الميلاد، كما ذكر لأول مرة بعد قرنين من قبل فيتروفيوس Vituviuse[١] (انظر على سبيل المثال: Biello 2006).

ولكن كلمة الاستدلال لها معاني أخري أيضاً، ففي حين أن الأدبيات الخاصة بالاستدلال تدور حول اكتشافات مهمة على غرار أرشميدس، فهناك فرعاً أخر وأحدث من الاستدلال له هدفاً أكثر تواضعاً. هذا النوع من الاستدلال يحاول بشكل أساسي تعليم الطالب العادي، وليس عالم النجوم المحتمل؛ يسهم هذا النوع من الاستدلال في تطوير توجه مستقل لدي الطلاب يسهم في حلهم للمشكلات. وسيناقش الفصل الحالي هذا النوع من الاستدلال. وسأحاول إبراز أهميته في العلوم الاجتماعية.

وتتمثل إحدى طرق النظر إلى الاستدلال والأشكال المختلفة التي استحوذت عليه على مر السنين في أن الاستدلال يقع في مكان ما بين قطبين: يتعلق الأول بالإبداع، في حين أن الأخر يتعلق بالمضي قدماً في أفعالك وتحليلاتك. في حين أن الاستدلال على الطراز القديم قريب من القطب الأول، فإن الاستدلال الحديث قريب من القطب الثاني، مع العلم بأن كلا من الاستدلال القديم والحديث يحتوي على القطبين معاً.

إن تحول الاستدلال من كونه فن الاكتشافات العظيمة إلى أداة متواضعة لمساعدة الطلاب في حل المشكلات، يعود الفضل فيه – إلى حد كبير – إلى جورج بوليا (١٨٨٧–١٩٨٥) عالم الرياضيات البلغاري، ومؤلف كتاب " كيف تحلها" (١٩٤٥). وقد طور بوليا ما أسماه "الاستدلال الحديث" والذي كان يقصد به الاستدلال ذو الطبيعة العملية ومتواضع النطاق.

١– قصة أرشميدس في الاستدلال من الروايات المعرفة في تاريخ العلم، حيث اعتمد على الاستدلال في اكتشاف قانون الطفو، ولقد اعتمد سويدبرج علي أرشميدس في الإشارة إلي الاستدلال الإبداعي الذي يقوم فيه الباحث باكتشاف علاقات بين شيئين ليس بينهما ثمة ترابط. ونقدم للقارئ قصة أرشميدس في الاستدلال بشكل مختصر: فقد روي أن الملك "سيراكوس" بجزيرة صقلية شك في أن الصائغ الذي صنع له التاج قد غشه وأدخل في التاج فضة بدلاً من الذهب الخالص فطلب الملك من "أرشميدس" أن يبحث له في هذا الموضوع بدون إتلاف التاج وأمضي وقتاً طويلاً يفكر في الأمر دون أن يجد حلاً لأن شكل التاج لم يكن منتظماً وبالتالي لم يتمكن من قياس أبعاده وعندما كان "أرشميدس" يغتسل في حمام يشبه حوض الاستحمام "البانيو" ملئ بالماء عن آخره لاحظ أن منسوب الماء ارتفع عندما انغمس في الماء، تحقق "أرشميدس" من أن جسده أصبح أخف وزناً عندما نزل في الماء وأن الانخفاض في وزنه يساوي وزن الماء الذي أزاحه وأيضاً تحقق من أن حجم الماء المزاح يساوي حجم الجسم المغمور وعندئذ تيقن من أنه يمكنه أن يعرف مكونات التاج دون أن يتلفه عن طريق غمره في الماء فإن حجم الماء المزاح بغمر التاج فيه لابد أن يساوي نفس حجم الماء المزاح بغمر وزن ذهب خالص مساوٍ لوزن التاج لقد تمكن من الوصول إلى الحل عن طريق إدراك وجه الشبه بين انغماس جسمه في الماء وبين انغماس التاج وإزاحة الماء وعلاقة الماء المزاح بالحجم. وهنا يبدو دور الاستدلال من خلال المماثلة.

لقد كان بوليا مهتماً بشكل أساسي بالرياضيات، مما يعني أن عمله له أهمية إضافية لعلماء الاجتماع الذين يستخدمون و/أو يدرسون المناهج الكمية. وهذه العملية على وجه الخصوص هي التي قادت بوليا إلى حل مشكلة مفتون بها، والتي أطلق عليها "صنع الرياضيات" Mathematics In The Making (Polya 1954: vii).

ولكن هناك أيضاً العديد من الجوانب المهمة في عمل بوليا، والتي تتحدث إلى عالم اجتماع وليس عالم الرياضيات. وواحدة منها هو اهتمامه بتطوير نوعاً عاماً من الاستدلال.

اكتشاف عظيم يحل مشكلة كبيرة، ولكن هناك بذرة اكتشاف في حل أي مشكلة. فقد تكون مشكلتك متواضعة: ولكنها تتحدي فضولك، وتستدعي قدراتك الإبداعية، وإذا قمت بحلها بطريقتك الخاصة، فقد تواجه التوتر والتمتع بانتصار الاكتشاف. مثل هذه التجارب في سن صغير سريع التأثر، قد تخلق طمعاً للعمل العقلي، وتترك بصماتها علي العقل والشخصية طوال العمر (Polya 1954: v).

ويتمثل جانب أخر من جوانب عمل بوليا المهم في العلوم الاجتماعية في تأكيده على الطريقة التي يمكن من خلالها تدريس ما يسميه "التفكير الاستدلالي"، والذي يمكن أن يتعلمه الطالب العادي، ويمكن تحقيق ذلك في المقام الأول من خلال الممارسة والتقليد.

إن حل المشكلات هو بمثابة مهارة عملية، دعنا نقول مثل السباحة، فنحن نكتسب أي مهارة عملية من خلال الممارسة والتقليد. وفي محاولة تعلم السباحة، تقلد ما يفعله الأخرون بأيديهم وأقدامهم للحفاظ على رؤوسهم فوق الماء، وفي النهاية تتعلم السباحة من خلال ممارسة السباحة. وبالمثل تستطيع أن تلاحظ وأن تقلد ما يفعله الأخرون عند حل المشكلات، ثم تحاول أن تحل المشكلات، وفي النهاية تتعلم كيفية حل بالمشكلات عبر ممارسة القيام بحلها (Polya 1954: 4-5).

وحسب بوليا، لا توجد قواعد محددة خاصة بالاستدلال، فالإحساس بالقواعد إذا ما تم اتباعها سوف يقودنا إلى حل المشكلات. ومع ذلك، فإن ما هو موجود "عمليات عقلية" معينة يمكن أن تساعدك على التحرك في الاتجاه الصحيح، والتي يمكن تعليمها للطلاب (انظر على سبيل المثال: Polya 1954: 171). وهذه العمليات العقلية بعد فترة من استخدامها تتحول إلى "عادات عقلية" مفيدة (Polya 1954: 21).

اقترح بوليا بأن حل المشكلات هو في الأساس عملية يمكن مقاربتها في أربع خطوات. كما أوصي الطلاب بطرح ثلاث أسئلة عند محاولة حـــل مـــشكلة مـــا، والخطوات الأربعة على النحو التالي:

١- عليك أن تفهم المشكلة.
٢- تحتاج إلى وضع خطة لحلها.
٣- عليك تنفيذ الخطة.
٤- بعد أن تحل المشكلة، يجب أن تنظر إلى الحل، وتحلل كيف وصلت إليه.
(Polya1954:5-23)

إن الخطوات الثلاثة الأولي والتي تتمثل في فهم المشكلة، ووضع الخطة لحلها، وتنفيذ الخطة، قد تكون أو لا تكون مفيدة لعلماء الاجتماع عند قيامهم بمهمة البحث. ومع ذلك، فإن الخطوة الرابعة لها أهمية خاصة للمنظرين، أي أن هناك حاجة إلى العودة ومراجعة الطريقة التي توصلت بها لحل مشكلة ما. ومن خلال محاولة معرفة ما فعلته بشكل صحيح، قد تتمكن من تحويل حدسك إلى مهارة.

أما الأسئلة الثلاثة التي أراد بوليا من الطلاب حفظها والتفكير فيها عند محاولة حل مشكلة ما، تمثلت في التالي:

١- ما هو المجهول؟
٢- ما هي البيانات؟
٣- ما هي الشروط؟

كما قدم عدداً من الأمثلة لتوضيح كيف يمكن أن تكون هذه الأسئلة مفيدة.

وأحد الأمثلة على هذه الأسئلة الثلاثة، تتمثل في مهمة العثور على قطري واجهة مستطيلة الشكل، حيث لا يعرف الطول، والعرض، والارتفاع (Polya 1954:7-14). هذا يعني أن المجهول، أو ما نبحث عنه هو طول القطر (السؤال رقم ١). أما البيانات فتتمثل في الطول والعرض والارتفاع لمتوازي السطوح (أ- ب- ج: السؤال رقم ٢). أما الشروط الكافية لتحديد الحل، فتتمثل في كوننا نعرف أ، ب، ج، وهنا سنعرف الخط القطري (السؤال رقم ٣).

ويمكن ترجمة ذلك إلي العلوم الاجتماعية، حيث يمكنك القول أنه من المهم معرفة المجهول وما لا تعرفه. وينطبق نفس الشيء على ما يقوله بوليا عن البيانات. والأكثر إشكالية هو الافتراض بوجود حل واحد صحيح لكل مشكلة، فعلي الأقل عندما تحاول قول شيء جديد، عليك الانتقال إلى منطقة مجهولة.

يقترح بوليا أيضاً أنه إذا كانت الأسئلة الثلاثة لا تساعدك على التوصل إلى حل، فيجب عليك محاولة التعامل مع المشكلة من خلال الدوران حولها بدلا من مهاجمتها. فربما هناك مشكلات مماثلة تم حلها بالفعل؟ ولكن الأفراد الموهوبون للغاية – وفقا

لرأي بوليا- لديهم القدرة على حل مشكلات فريدة من نوعها، بالإضافة إلى ذلك يمكن استخدام طريقة التماثل، وتقسيم المشكلة إلى أجزاء، وإعادة تركيب الأجزاء، وما إلى ذلك (على سبيل المثال، انظر: Polya 1954:116).

كل هذه النصائح مفيدة كذلك للعلم الاجتماعي. ومن الواضح أيضاً أنه يجب أن يكون لديك معرفة قوية بتخصصك من أجل معرفة ما إذا كانت هناك مشكلات مماثلة وكيفية حلها؟ وبما أن العلوم الاجتماعية المختلفة تتناول في الغالب نفس الموضوعات أو المشكلات، فإن معرفة ما تم إنجازه في العلوم الاجتماعية الأخرى يمكن أن يكون مفيداً أيضاً.

ويشير بوليا أيضاً إلى ثمة جانباً عاطفياً لحل المشكلات، وأنه من المهم الاستفادة من العقل الباطن (على سبيل المثال، انظر: Polya 1954:93-94). فعندما تكون عالقاً وليس لديك الطاقة الكافية للتعامل مع المشكلة الأصلية، فإن التحول إلى مشكلة أخري مماثلة يسمح لك بالتعامل مع شيء جديد ومشاكس. وقد يقوم النوم أيضاً بتصنيف الأشياء في ذهنك ويساعدك على التوصل إلى حل.

ويضيف بوليا، بأنه من الضروري أن يكون هناك دائما محاولة لتوليد أفكاراً جديدة، وبدون هذه الأفكار لن يكون هناك حل. ولا يهم إذا كانت الفكرة صغيرة أو ملتبسة، طالما أن لديك فكرة. وقد كتب قائلا:

يجب أن تكون ممتناً لكل الأفكار الجديدة، وأيضاً للأفكار الأقل خطأ، وأيضاً للأفكار الضبابية، وكذلك للأفكار التكميلية التي تضيف بعض الدقة إلى الأفكار الضبابية، أو تحاول تصحيح الأفكار الأقل خطأ. حتى إذا لم تكن لديك أفكار جديدة – إلى حد ما– لفترة من الوقت؛ فينبغي أن تكون شاكراً إذا أصبح مفهومك للمشكلة أكثر اكتمالاً، أو أكثر تماسكاً، وأكثر تجانساً، أو أكثر توازناً (Polya 1954:35).

من المهم أن تدرب نفسك على التخمين، وتصبح "مخمناً جيداً" a good guesser. فالتخمين جزء لا يتجزأ من التفكير الاستدلالي، وينبغي تدريسه كجزء من التعلم في الرياضيات، ولقد دعي بوليا إلى ذلك في مقاله الذي يحمل عنوان "دعونا نتعلم التخمين" Let Us Teach Guessing (Polya 1950).

ولكن ليست كل التخمينات مفيدة:

(فقط) التخمينات من نوع معين هي التي تستحق أن يتم دراستها، وأن تؤخذ على محمل الجد: تلك التخمينات التي تحدث لنا بعدما ننظر باهتمام، ونفهم بالفعل المشكلة التي نهتم بها حقاً. وعادة ما تحمل هذه التخمينات في طياتها جزء من

الحقيقة، وعلى الرغم من أنه نادراً ما تظهر التخمينات الحقيقة الكاملة، إلا أن ثمة فرصة لاستخراج الحقيقة بأكملها إذا درسنا مثل هذا التخمين على نحو مناسب (Polya 1954: 99).

وكما أشار بوليا، فإنه يجب أن يضاف إلى ذلك أن الحد الأدنى للتخمينات في كل شيء يتم إنتاجه من خلال التفكير الاستدلالي. إن هذا التخمين مفيداً جداً في اقتراح الفكرة، ولكن الفكرة لا تمثل في حد ذاتها البرهان، "إن الاستدلال في حـد ذاته أمراً جيداً، ما هو سيء هو خلط بين التفكير الاستدلالي بالبرهان" (Polya 1954: 113).

الاستدلال في العلوم الاجتماعية

تجاوزت فكرة بوليا عن الاستدلال حل المشكلات العادية، وأسهمت في اكتشافات كبيرة ممتدة عبر الزمن. ونجد هربرت سيمون Herbert Simon واحد من الذين التقطوا الفكرة وطورها وفقا لأغراضه الخاصة. وبما أن أفكار سيمون حول هذا الموضوع مؤثرة للغاية، فهي تستحق مناقشة قصيرة.

كره سيمون مفاهيم مثل الإبداع والاكتشاف، والتي في نظره تفوح منها رائحة الميتافيزيقا. ويري أنه ينبغي استبدالها بفكرة حل المشكلات وفكرة أن تحل المشكلات باتباع قواعد معينة. وفي هذا الشأن قدم مقولته الشهيرة "الاكتشاف سهل، فهو حديقة متنوعة من حل المشكلات" (Simon 1991b: 369).

اعتقد سيمون أنه بإمكان المرء أن يبرمج آلات لحل المشكلات، وبذل جهدا كثيرا للعمل على هذا المشروع في الستينيات. وعمل على هذه أيضاً الفكرة أخرون ممن لديهم اهتمام بالذكاء الاصطناعي في ذلك الوقت، فقد عملوا على خطوط متشابهة، وذلك قبل أن يدركوا أنه كان طريقا مسدوداً (على سبيل المثال، انظر: Dreyfus and Dreyfus 1986).

ولكن حتى لو تبين أن محاولة القضاء على الاكتشاف والابداع من خلال ابتكار قواعد خاصة لحل المشكلات قد فشلت، يمكنك أن تتعلم قليلاً من طريقة سيمون في التعامل مع المشكلات. وهناك أيضاً حقيقة مؤداها، أن سيمون كان لديه مجموعة من القواعد الرسمية لحل المشكلات، ومجموعة أخري لاستخدامه الشخصي.

ولقد حدد أحد المتعـاونين مـع سـيمون بعـضاً مـن قواعـده الشخـصية (Langly 2004). الأول أن تكون جريء وتقتحم المشكلات التي يتجنبها الأخرون

لأنها كبيرة وصعبة للغاية. والأخرى هي العثور على "السلاح السري"، وهو تعبير مجازي يعني أن يكون لديك طريقة لا يعلمها علماء الاجتماع الأخرون. وقد أشار سيمون إلي أنه من المهم أيضاً أن تمضي قدماً، وألا تنشد الكمال. وعلى حد تعبير لانجيلي Langley أي شيء يستحق القيام به، يستحق القيام به على نحـــو ســـيئ" (Langley 2004:5).

إن فكرة بوليا عن تطوير نوع من الأدلة لكيفية حل المشكلات قد ألهمت بعض الأعمال في العلوم الاجتماعية، وفي علم الاجتماع يوجد الآن كتابان معروفان على نفس الضرب: الأول هو كتاب هوارد بيكر الصادر عام ١٩٩٨ بعنوان حيل المهنة: كيف تفكر في بحثك أثناء تنفيذه Tricks of the Trade: How to Think about Your Research While You're Doing It، والثاني كتاب أندرو آبوت الصادر عام ٢٠٠٤ بعنوان مناهج الاكتشاف: الاستدلال للعلوم الاجتماعي Methods of Discovery: Heuristics for the Social Sciences.

ينصب التركيز في كتاب بيكر على تقديم عدداً من النصائح العلمية "الحيل" التي قد تساعد الطالب علي إجراء الأبحاث، وكذلك المضي قدماً في تحليل المرفقات، وينصب التركيز في كتاب "آبوت" على تشجيع الطلاب على إدراك أنه من أجل أن يقولوا شيئا جديداً أو جديراً بالاهتمام، عليهم التوصل لمقاربات مختلفة لمشكلة ما (ومن أبرز مصطلحات آبوت "تحرك"). ويستهدف كلا الكتابين الطلاب الجامعيين، ولكن يمكن استخدامهما أيضاً في دورات الدراسات العليا.

ينقسم كتاب آبوت إلي قسمين، أحدهما عن العلوم الاجتماعية بشكل عام، والآخر عن الاستدلال. ويقدم في الجزء الأول للقارئ الأنواع المختلفة من التفسيرات التي يمكن العثور عليها في العلوم الاجتماعية، مثل التحليل السببي القياسي، والسرد التاريخي، والإثنوجرافيا. يتبع ذلك فصل حول المناقشات المركزية في العلوم الاجتماعية، مثل الوضعية مقابل التفسيرية، والفردية مقابل النزعة الطارئة، والسلوكية مقابل الثقافية، وغير ذلك من المناقشات.

ووفقا لآبوت، عليك أن تبدأ بحثك بلغز/ أحجية ثم تحاول حل هذا اللغز. وثمة شرط مسبق للقيام بذلك بطريقة مبتكرة، هو أن يكون لديك معرفة واسعة بالحجج الرئيسية في العلوم الاجتماعية، بما في ذلك المناقشات الرئيسية الجارية.

ويقدم آبوت في الجزء الثاني عدداً من الأنواع المختلفة من الاستدلال، من ما يطلق عليه الاستدلال الروتيني للعلم الاجتماعي، إلى الاستدلال النمطي. ففي الاستدلال الروتيني: ما عليك سوي إضافة متغير جديد أو ما شابه، على غرار

علوم الكون. وفي الاستدلال النمطي: فإنك تستخدم فكرة ماندلبروت Mandelbrot والتي تتكرر فيها أنماطاً معينة عندما تنتقل من نطاق أصغر إلي نطاق أكبر والعكس صحيح.

ويوضح آبوت فكرة الاستدلال النمطي من خلال ابتكاره أمثلة تدور حول المناقشات الرئيسية في العلوم الاجتماعية. فعندما ننظر عن كثب إلى أنصار القول بالوضعية في جدال الوضعية مقابل التفسيرية، سنجد أنهم ينسخون هذه المعارضة داخل أنفسهم. وفي هذا الإطار تجد بعض الوضعيين "مرنين" بينما البعض الأخر "متشددين".

ومن أجل إعطاء القارئ إحساساً بتناول آبوت للاستدلال، قمت بوضع قائمة بالأنواع المختلفة من أساليب الاكتشاف التي يمكن العثور عليها في كتابه. كل منها تقترح مجموعة خاصة من التحركات.

إن كتاب آبوت مثير للاهتمام، ويحتوي على عدة مقاطع لا تنسي. خذ على سبيل المثال وصفه لكيفية التوصل إلى فكرة عن مقالة كان يعمل عليها حول الحدود boundaries:

أصبحت الحدود وعبورها مألوفة جداً، لذلك كنت أشعر بالملل من الفكرة. "حدود، حدود الأشياء، من حدود الأشياء"، هذا ما غنيته لنفسي يوما ما أثناء الاستحمام. وعلى نحو مفاجئ تحركت الفواصل، وكان لدي عبارة "أشياء الحدود". ماذا يعني ذلك؟ لقد احترت في هذا الشأن (بعد أن انتهيت من الاستحمام) وحاولت أن أعطيه معني حقيقي. فالأشياء الاجتماعية ربما تشبه المهن (جماعات أمضيت في دراستها الكثير من وقتي) "تُنشَأ" خارج الحدود. فالقيود تأتي أولا ثم يليها الشيء (Abbott 2004: 128؛ وحول مقالته عن الحدود، انظر Abbott 1995).

استدلال آبوت للعلوم الاجتماعية

الاستدلال الروتيني للعلوم الطبيعية
إضافة متغير جديد أو ما شابه ذلك

الاستدلال البحثي Search Heuristics
إجراء تشبيه
استعارة منهج

الاستدلال الجدالي/الحججى Argument Heuristics
صياغة ما هو واضح على نحو إشكالي
إجراء انعكاس
صياغة فرضية
التصور المفاهيمي

الاستدلال الوصفي Descriptive Heuristics
تغيير السياق
تغيير المستويات
وضع الشروط: التجميع – التجزئة

الاستدلال السردي Narrative Heuristics
التوقف والاستكمال
تبني ورفض احتمال
تحليل الوظائف الكامنة
تحليل الحقائق المضادة

الاستدلال النمطي Fractal Heuristics
تكرار البناء.

المصدر:
Andrew Abbott, *Methods of Discovery: Heuristics for the Social Sciences* (2004).

يعد كتاب حيل المهنة لمؤلفه هوارد بيكر منظم بشكل مختلف تماماً عن معظم الكتب حول الاستدلال. ويصف فيه عملية البحث السوسيولوجي بمصطلحات عامة،

وأثناء ذلك، فإنه يشير أيضاً إلى العديد من الحيل التي يمكن أن تكون مفيدة في معرفة متي تجرى البحث الخاص بك.

كان بيكر تلميذاً لإيفرت هيوز Everett C. Hughes وتأثر بشدة بمدخله لعلم الاجتماع. وعلى كل حال يمكن اعتبار كتاب "حيل المهنة" محاولة لتقديم طريقة عمل هيوز في علم الاجتماع لعامة الناس.

لقد كان هيوز من المرتابين للغاية في النظرية المجردة: وكذلك بيكر؛ الذي ذهب إلى أن النظرية شيء نتعلمه من خلال إجراء البحوث، ومن خلال مواجهة المشكلات التي تظهر أثناء بحثك. والحيلة هي التي تسمح لك أن تحل مشكلة تواجهك في بحثك وتستكمله.

ونجد أن بيكر قد اتجه على عكس العديد من الأعمال عن الاستدلال، حيث يبتعد بشكل واضح عن تقديم القواعد الرسمية لكيفية إجراء البحث، وحيل بيكر في هذا الشأن تم تقديمها بطريقة مألوفة. ويرجع الفضل في العديد من هذه الحيل إلى هيوز، حتى وإن كان بيكر لديه بعض حيله الخاصة.

واعتاد هيوز، على سبيل المثال، أن يقدم النصيحة التالية لطلابه: "شك في كل شيء يخبرك به أي شخص في السلطة" (Becker 1998:91). وحيلة أخرى من حيله تتمثل في النظر إلى كل الظواهر الاجتماعية على أنها بطبيعتها ظواهر لها علاقات بشكل أساسي.

فالجماعات المعرفية على سبيل المثال، ليست مجرد مجموعة من الأفراد الذين يشتركون في بعض السمات الموضوعية، مثل كونهم على سبيل المثال من أصل ألماني أو إيطالي. وبدلاً من ذلك، نقول أن هناك مجموعة من الأشخاص الذين يرون أنفسهم علي أنهم يشتركون في شيء مشترك. والذين يشاهدهم الآخرون أيضاً بهذه الطريقة.

إن أي جماعة عرقية ليست مجموعة واحدة ويرجع ذلك إلى درجة التباين القابل للقياس أو القابل للملاحظة عن الجماعات الأخرى: إنها جماعة عرقية، وعلى العكس من ذلك، لأن الناس داخلها وخارجها يعرفون أنها واحدة. وذلك لأن كلاً من المنخرطين فيها والخارجين عنها، يتحدثون ويشعرون، ويتصرفون، كما لو أنها جماعة مستقلة (Beaker 1998:2).

ولكن الجماعة العرقية لا تتشكل فقط من قبل الناس في داخلها وخارجها. ولكن يتم تعريفها أيضاً من خلال علاقاتها مع الجماعات الأخرى:

ولإقامة علاقات عرقية يتطلب الأمر أكثر من جماعة عرقية واحدة. فلم يعد من الممكن فهم العلاقات من خلال دراسة واحدة أو أخري من الجماعات، أكثر من تلك التي يمكن دمجها كيميائياً بدراسة عنصر واحد، أو نوبة ملاكمة بملاحظة واحد فقط من الملاكمين (Beacker 1998:2).

يتضح من أعمال آبوت وبيكر أنه يمكن للمرء أن يأخذ الاستدلال – كما ذهب إليه بوليا – ويتم استخدامه بطريقة مثمرة في العلوم الاجتماعية أيضاً. ويوضح كتاب آبوت أن بعض قواعد الإبهام Thumb rules يمكن تطويرها لبحوث العلوم الاجتماعية بشكل عام. ويقدم كتاب بيكر شيئاً مماثلاً، ولكنه يركز بشكل أساسي على نوع واحد من البحوث الاجتماعية، وهي البحوث الميدانية.

إن أهم نقاط الضعف في كلا المؤلفان – من وجهة نظري – يتمثل في أنهما يتعاملان مع قضية الاستدلال للتنظير. وأنا أري أن الشرط المسبق للاستدلال من هذا النوع هو أنه يجب أن يتم تخصيص مساحة منفصلة ومستقلة للتنظير. وأنت تحتاج أيضاً إلى التركيز بشكل مباشر على النظرية. وفي كتاب آبوت ينصب التركيز الرئيسي في الحصول على أفكار بحثك " التحركات" Moves. وبيكر كما سنري قريباً، ليس مهتم اهتماماً بالغاً بالنظرية على الاطلاق.

ينصب رأي آبوت في الحصول على الفكرة بأن لديها شيء مشترك مع التنظير، ولكن الاثنين غير متطابقين. في حين أن التنظير هو عملية تبدأ بالملاحظة، وتنتهي بالتفسير، وفي مناهج الاكتشاف، فإن آبوت يهتم أساساً بكيفية الوصول إلى الفكرة، وهذا لا يسمح للمؤلف بمعالجة المشكلات الخاصة جداً والتي يطرحها التنظير.

ولكن في خطاب مؤخر ألقاه في مؤتمر، بعنوان "قائمة قصيرة من قواعد التنظير"، فإن آبوت يفعل ذلك بالتحديد، ويقول على سبيل المثال، إنه عندما يتعلق الأمر بالتنظير، فإن الملاحظة تصبح ضرورية للغاية.

معظم الكلاسيكيين في علم الاجتماع كانوا في الواقع زعماء للبيانات، غارقون في الحقائق والبيانات، وكانوا يميلون إلى اختراع النظرية لفهم البيانات التي أمامهم. بالإضافة إلى ذلك، قاموا بتغيير نظرياتهم أثناء سيرهم، وطرحت البيانات أسئلة جديدة. ويعد كتاب بورديو عن مفهوم الهابيتوس خير مثال ... "جميع عمليات إعادة التشكيل تنشأ من فرط الاستجابة للبيانات". اكتب هذه العبارة على جهاز الكمبيوتر الخاص بك، ألصقها على مرآة الحمام، اذكر ذلك بهدوء أثناء

ممارسة الحب. "إن كل النظريات الجديرة بالقراءة تنشأ من التفكير في البيانات". (Abbott 2011: 2,7)

وإذا انتقلنا الأن إلى بيكر، فمن الواضح أن "حيل المهنة" يبدو فيه بعض التناقض في النظرية. ويرجع ذلك لسبب واحد؛ مؤداه: أن النظرية لديها ميل أن تندرج تحت مناهج البحث، ولم يتم تعيين مكان مستقل لها في البحث. كما أن القارئ يحصل على انطباع بأن النظرية هي شيء توصلت إليه للتو عندما تقوم ببحثك الميداني، بينما تعتبر دراسة النظرية والتنظير مضيعة للوقت إلى حد كبير. وباختصار فإن مقاربة بيكر تتجه نحو كونها نظرية موصولة بالواقع (Glaser and Strauss 1967، ولقراءة نقدية، انظر، على سبيل المثال: Tavory and Timmerman 2012).

وعندما طُلب منه المشاركة في مؤتمر حول النظرية الذي نظمه المؤلف في عام ٢٠١٢، أجاب بيكر أنه للأسف لم يتمكن من الحضور، وأضاف قائلا:

أنت تعرف أنني ربما أقول شيئاً عن "النظرية كونها شيئاً ضرورياً، وكل ذلك. لقد جئت بصورة متزايدة، للتفكير في النظرية والمنهج، وهما في الواقع نفس الشيء. بمعني كل نظرية تشير إلى المناهج التي يجب عليك استخدامها لتنفيذ النظرية في البحث. وكل منهجية تنطوي على النظرية التي تركز عليها. لقد نفذ هيوز هذه الفكرة طوال الوقت، ودون كتابة الكثير عنها (Becker 2011).

يجب أن يكون واضحاً أن بيكر نفسه مُنظراً بارعاً، وأنه قد قدم عدداً من المساهمات الاجتماعية المهمة، والنظرية الاجتماعية (انظر على سبيل المثال: Becker 1973; 1982). وللتكرار نقول أن بيكر لم يعطي النظرية موضعاً مستقلاً في عملية البحث، وكذلك فإنه يميل إلي الخلط بينها وبين المناهج.

الاستدلال باعتباره اختصارات

لاستكمال هذه المقدمة عن الاستدلال، ونظراً للصلة الوثيقة بينه وبين تعلم فن التنظير في العلوم الاجتماعية، فقد حان الوقت الآن لفحص أعمال أموس تفيرسكي Amos Tversky ودانيال كانيمان Danial Kahneman، فقد تحولت دراسة الاستدلال في اتجاه آخر عام ١٩٧٠، وذلك نتيجة للمقال الرائع "الأحكام في ظل عدم اليقين: الاستدلال والتحيزات" Judgments under Uncertainty: Heuristics and Biases.

في حين أن الاستدلال عند بوليا قد تعامل مع حل المشكلات والخروج بأفكار، فإن تفيرسكي وكانيمان، كانا مهتمان في المقام الأول بموضوع مختلف: وهو كيفية اتخاذ القرارات في ظل حالات عدم اليقين. وما وجداه هو أن الناس اتخذوا اختصارات ذهنية، واتجهوا إلى اتباع "قواعد الاستدلال" عندما كانوا في مثل هذا الموقف (Tversky and Kahneman 1974: 1124).

وإذا كان أحد قطبي الاستدلال هو الابداع، والآخر يتمثل ببساطة في المضي قدماً في التحليل، فمن الواضح أن البحث لدي تفريسكي وكانيمان كان قريباً جداً من القطب الأخير. فلم يكونا مهتمان بالإبداع، ولكن للتكرار، ففي الطرق التي يصنع بها الناس وأذهانهم المواقف عندما لا يكون من الواضح لديهم كيفية التصرف.

وعلى الرغم من ذلك، فإن ما أثار إعجاب كلاً من تفيرسكي وكانيمان لم يتمثل في الاختصارات العقلية التي يتخذها الأشخاص كالأخطاء التي تأتي من اتباع قواعد معينة لاتخاذ القرار. وفي مقالهما عام ١٩٧٤، خصصا ثلاث قواعد للاستدلال، أعطوا القواعد الأسماء التالية: الإتاحة availability، الإرساء anchoring، والتمثيل representativeness.

إن الضعف أو التحيز المحتمل في اتخاذ القرار بشأن الإتاحة، يتمثل في أنك تعتمد على ما يتبادر إلى الذهن بسهولة. وفي الاستناد على الإرساء، يتمثل في أن ثمة نقاط انطلاق مختلفة تقود إلى قرارات مختلفة. ويستند قرارك على التمثيل. الافتراض بأن الصور النمطية الخاصة بك صحيحة. وسرعان ما أصبحت مقاربة كلا من تفيرسكي وكانيمان للاستدلال تحظي بشعبية كبيرة، وأدت إلى تدفق العديد من الدراسات إلى جانب جائزة نوبل. وعند قيام كانيمان مؤخراً بتلخيص نتائج هذا النوع من العمل في عمله الصادر عام ٢٠١١ بعنوان: التفكير، بسرعة وبطء Thinking, Fast and Slow، قد أضاف بعض قواعد الاستدلال الجديدة والأخطاء التي تصاحبها.

إن العديد من قواعد الاستدلال هذه لها علاقة بالعواطف. فإذا كنت إيجابياً أو سلبياً شيئاً ما، فقد يؤثر ذلك على حكمك. ويتم إسقاط ذلك على جميع جوانب الظاهرة التي تتعامل معها. وقاعدة أخري جديدة مؤداها، أن الناس يميلون إلى التعميم على أساس ملاحظات قليلة جداً. كما أنهم غالباً ما يجدون أنماطاً وينشئون قصصاً لا وجود لها.

وفي رأي كانيمان، فإن الناس تميل إلى التفكير في وضعين: بسرعة وبشكل

حدسي، وببطء وتأني. ومن جهة أخري لديهم نظامان. وغالباً ما يؤدي التفكير الحدسي إلى أخطاء ويحتاج إلى تصحيح بمساعدة التفكير المتأن. باستثناء نوع ما من الحدس، وهو الذي يحتاجه الخبراء، والسبب في ذلك هو أن حدس الخبراء قد يتطور بمرور الوقت، ويتم معالجته بالتجربة (Kahneman 2011: 234–44).

هل يتخذ تفيرسكي وكانيمان من الاستدلال قيمة أيضاً للتنظير في العلوم الاجتماعية؟ جوابي هو نعم، ولكن بطريقة مختلفة عن أعمال بوليا واتباعه. فلا يساعد عمل تفيرسكي وكانيمان عالم الاجتماع على الخروج بأفكار جديدة، كما فعلت أعمال بوليا، ولكنه يساعد على التحقق من بعض الأخطاء. وكما ذكر في الفصل الخامس، فإن هذا الأمر مهم لأن التنظير خلال مرحلة ما قبل الدراسة عرضة للأخطاء.

وقد يكون من المفيد للشخص الذي ينظر أن ينزل إلى قائمة الأخطاء النموذجية التي يناقشها كانيمان في التفكير "السريع والبطيء" والتحقق منها كلها. فهل تم نقل بعض الحقائق لمكان رئيسي لمجرد أنهم تبادروا إلى الذهن أولاً؟ وهل للاتجاه العام للمحلل تأثير غير ملائم على تحليله؟

قد يرغب القارئ في هذه المرحلة في النظر مرة أخري في الشريط الجانبي في الفصل الخامس، والذي يحتوي على قائمة مرجعية للأخطاء المحتملة أثناء الدراسة. ولاحظ أنه ليس فقط المواد الحقيقية التي تم جمعها في مرحلة الدراسة هي التي يجب أن تواجه نوع الأخطاء التي قام كل من تفيرسكي وكانيمان بالتحقيق فيها، ولكن أيضاً المقاربات النظرية التي تم استخدامها، والمفاهيم، والأنماط، والنظريات، كل ذلك عرضة للأخطاء من نوع الإتاحة، والإرساء، وما إلى ذلك.

وفي حين أن مقاربة تفيرسكي وكانيمان للاستدلال قد توصلت إلى عدداً من الرؤي الهامة والمفيدة للتنظير، فمن المحتمل أيضاً أن صورة التفكير التي يمكن العثور عليها في كتاب كانيمان الأخير. وهذا ينطبق بشكل خاص على فكرة التفكير السريع أو الخاطئ في كثير من الأحيان، أو البطيء والصحيح في الغالب.

وقد ذكر ذلك كانيمان بالفعل عندما ذهب قائلاً بأن الحدس لدي الخبراء لا يناسب جدول أعماله العام من التفكير السريع مقابل البطيء. ومن الحقائق أيضاً أنه على الرغم من أن الحدس سريعاً بمجرد حدوثه، ولتحريكه وجعله ممكناً، أنت تحتاج مجملاً إلى فترة طويلة من التفكير البطيء والبحث (انظر على سبيل المثال: Knorr Cetina 2014).

ووفقاً لدراسة حديثة – على سبيل المثال – يميل الناس إلى أن يكونوا أكثر إبداعاً عندما يكونوا متعبين أكثر مما يكونوا في حالة نشطة. والسبب في ذلك يرجع عادة إلى أنهم لا يستطيعون تذكر كل ما كانوا يفعلون (Wieth and Zachs 2011). وباختصار يجب إضافة بعض التعقيد إلى التفكير البطيء مقابل التفكير السريع.

تطوير قواعدك الخاصة في الاستدلال

إن أعمال آبوت وبيكر مفيدة للغاية لعدد من الأسباب، ليس أقلها إنها تحتوي على العديد من قواعد الاستدلال المثيرة للاهتمام. ومن خلال قراءة هذه الأعمال، ستحصل أيضاً على احساس جيد عن وضعية الاستدلال في العلوم الاجتماعية، وهو الأمر الذي يسهل عليك تطوير مهاراتك الخاصة.

وهذه النقطة الأخيرة مهمة، لأن أكثر ما يهمك عند وضع النظرية ليس فقط الوصول إلى عدد من قواعد الاستدلال المثيرة التي طورها الأخرون، وهذه غالباً ما تكون مفيدة، وممتعة للقراءة، وجيدة للمعرفة. ولكن الأهم من ذلك هو تطوير مجموعة من قواعد الاستدلال الخاصة بك، والتي تساعدك على التنظير (انظر على سبيل المثال: Koedinger and Roll 2012: 791-93). فيجب استخدام الكتب، وفي جهة أخري يجب استخدام الإلهام، فلا ينبغي فقط أن تنسخ من الكتب ما تؤيده فقط.

وأثناء قيامك بعملية الاستدلال الذاتي هذه، سأقدم لك على سبيل المثال بعض القواعد الخاصة بي، والتي نمت لدي عبر السنين، وتساعدني على المضي قدماً عندما أحاول التنظير:

أفعل ما لا يفعله الأخرون. يمكننا التنبؤ في النظرية بالعديد من الأشياء التي يخرج بها الأخرون، لذا أحاول اختيار زاوية أخري.

استخدم اللاوعي الخاص بك. من أجل التوصل إلى شيء جديد، وأعلم أنه يجب علي بطريقة أو بأخري الوصول إلي ما هو عميق داخل كياني.

لا تتوقف مبكراً. عندما يكون لدي فكرة جيدة، لا أتوقف. وبدلا من ذلك أحاول المضي قدما قدر المستطاع، وفي نهاية المطاف ينتهي الأمر بالعديد من الأفكار الجديدة.

لا تضيع في اللغة. فمن السهل بالنسبة لي أن أضيع في الصياغات عندما افترض التنظير، لذا أحاول المناقشة أثناء تخطي الكلمات والمفاهيم المزعجة.

إن قواعدي في الاستدلال بطبيعتها عامة جدا، حيث وجدت عندما أحاول استخدام قواعد صارمة، بإنها عادة ما تقود إلى نوعاً من التفكير الميكانيكي. في حين أن بعض القواعد الخاصة بي تكون ذات طبيعة معرفية، إلا أن البعض الأخر يصعب التعبير عنه، وأكثر فطرية. في حين أن كلاهما ضروري، إلا أن الأخير – الفطري – في النهاية هو الأكثر أهمية من وجهة نظري.

٧

الفصل السابع
تدريبات عملية

الفصل السابع [*]
تدريبات عملية

"العمل على الفلسفة – مثل العمل في الهندسة المعمارية في كثيرٍ من النواحي – هو في الحقيقة عمل على النفس. على تصوراته الشخص الخاصة، وعلى كيفية رؤيته للأشياء (وماذا يتوقع المرء منهم).
لودفيج فيتجنشتاين، في كتابه الثقافة والقيمة
Ludwig Wittgenstein, Culture and Value [1]

وكما ظهر من كلام فيتجنشتاين، فإن العمل على الفلسفة هو عمل على الذات. ويري أنه مثل العمل في الهندسة المعمارية، ويميل المرء إلى إضافة العمل في الفلسفة إلى التنظير، وأحد أسباب ذلك يتمثل في أنه يمكنك التنظير بشكل جيد في العلوم الاجتماعية، إذا اكتسبت فقط طريقة جيدة في التفكير، ومجموعة جديدة من العادات العقلية.

لا ينطبق ما يقوله فينجشتاين فقط على الحالة التي يحاول فيها الشخص أن يتعلم كيفية التنظير في العلوم الاجتماعية، بل عندما يحاول تعليم الأخرين القدرة على التنظير. ويجب أن يكون الطلاب مستعدين "للعمل على أنفسهم"، ويجب أيضاً منحهم الفرصة على القيام بذلك.

إن الهدف من التدريبات في التنظير هو مساعدة الطلاب أن يصبحوا ماهرين في التنظير، واكتساب الثقة في مهاراتهم. وتعتمد هذه المهارة على الدراسة العملية بكيفية التنظير، إلى جانب المعرفة بالعلوم الاجتماعية. وسوف يتم مناقشة هذه المعرفة الأخيرة في الفصل التالي. وفي الوقت الحالي، سينصب التركيز على موضوع التدريبات، التي يمكن من خلالها تطوير المعرفة العملية بالتنظير.

إن التدريبات التي سيتم مناقشتها في الفصل نوعين: تلك التي يمكن للقارئ أن يفعلها بنفسه، وتلك التي يمكن استخدامها لتدريب الطلاب على التنظير. وكلاهما

---

* ترجم هذا الفصل الدكتور وليد رشاد زكي.

مرتبطان ببعضهما البعض، ومن المهم أيضاً البدء في تغيير طريقة تعليم الطلاب النظرية في العلوم الاجتماعية.

لا توجد حالياً تدريبات قائمة في التنظير، وخاصة النوع الذي سيتم الدعوة إليه في هذا الكتاب. غير أن ما هو موجود مجرد عدد صغير من التدريبات الإيحائية التي تم تطويرها من قبل علماء الاجتماع المهتمين بطلابهم، والذين يقومون بعمل إبداعي. وسأبدأ بتقديم بعض منها، وخاصة التدريبات التي تم تطويرها علي يد كلا من تشارلز لاف وجيمس مارش Charles Lave and James G. March، في كتابهما حول استخدام النماذج في العلوم الاجتماعية. وسوف أتحدث أيضاً عن مقاربة مختلفة في التنظير، تلك المقاربة التي استخدمها دييجو جامبيتا Diego Gambetta خلال دروسه في أكسفورد.

نماذج من تدريبات التنظير الحالية

يمكن وصف كتاب مقدمة النماذج في العلوم الاجتماعية (١٩٧٥) بأنه كتاب متطور، حيث بدأ كلا من لاف ومارش في تعليم القارئ كيفية بناء النظريات والنماذج في العلوم الاجتماعية. وقد ذهبا إلى أنه ينبغي أن يتم النظر إلى كتابهما على أنه" دليل عملي على التخمين speculation" (Lave and March 1993: 2)." ونعتقد بأن اللعب بالأفكار أمراً ممتعاً ... ونعتقد أن الاهتمام بجودة التخمين في كل العلوم الاجتماعية والحياة اليومية، سيكون جيداً" (Lave and March 1993: 3).

قدم كل من لاف ومارش في كتابهما عدة فصول منفصلة لعدد من النظريات في العلوم الاجتماعية، مثل اتخاذ القرارات الفردية، والتبادل، والانتشار. كما يقترحون للقارئ – خلال كتابهما- طرقاً للتعامل مع هذه النظريات، وتعلم كيف يمكن تطبيقها على أغراضهم الخاصة.

قدم كل فصل لمشكلة ملموسة، ويتم خلالها تشجيع القاري للتوقف عن القراءة عندما يواجه المشكلة ويحاول حلها، وفي هذا الموضع نجد عبارات بأحرف كبيرة من النوع التالي: **توقف وفكر** STOP AND THINK.

ولإعطاء إحساس بالمشكلة التي يستخدمها لاف ومارش، سأقدم أحد أفضل الأمثلة المعروفة. وهو: لماذا يعتبر لاعبو كرة القدم فاشلين في دراساتهم الجامعية؟ وهنا يتم تشجيع القارئ على الخروج بالأسباب المحتملة لذلك، وتأسيس نماذج تعتمد على ذلك.

يقترح المؤلفان على سبيل المثال، أن أحد أسباب اعتبار الرياضيين الجامعيين فاشلين، قد لا يكون لديهم الكثير من الوقت للدراسة، حيث يقضون معظم وقتهم في الرياضة. وقد يكون هناك سبباً أخر يتمثل في أن الأشخاص الذين ينجحون في مجالات الحياة هم أقل اهتماماً بالتفوق في مجال أخر. أو ربما يشعر الناس بالغيرة من أولئك الذين ينجحون، وبالتالي يطلقون عليهم وصمة الفشل. كما يتم تشجيع القارئ على معرفة كيفية التمييز بين النظريات المختلفة.

في حين أن كتاب لاف ومارش رائع في نواح عديدة، فمن الواضح أيضاً أن منهجهما في التنظير يختلف في نقطة واحدة عن المنظور الذي أدعو إليه هنا. وهو أن لاف ومارش لا يؤكدان علي أنه من الضروري أن يقوم الطلاب ببعض الأبحاث التجريبية حول الموضوع الذين يهتمون به قبل أن يبدأوا في التنظير عليه (cf. chapter 2).

وبدلا من ذلك، يقترح لاف ومارش أن يبدأ الطلاب من الفكرة الشائعة بأن لاعبي كرة القدم في الحرم الجامعي غالباً ما يعتبرون أغبياء ثم يحاولون معرفة سبب ذلك. وبعبارة أخري يتم التركيز على تدريب الطلاب على التوصل إلى عدد من الفرضيات وكيفية التمييز بينها.

ومع ذلك، فإن هذا يعني أن النظرة الحالية لبعض الموضوعات تعتبر أمراً مسلماً به، وهو أمر خطير دائماً، ويعيدنا إلى فكرة دوركايم عن التقاليد. ودعونا نبقي مع مثال لاعبي كرة القدم. هل يمكن أن يكون السبب وراء اعتبارهم أغبياء هو أن الرياضيون يميلون إلى العيش معاً في الحرم الجامعي، وخلق ثقافة جماعية تقلل من شأن الدراسة؟ ربما هناك أسباب أخري؟ ربما نعم، وربما لا، ولكن كيف نعرف، ما لم ندرس هذه الظاهرة تجريبياً؟

لقد اتخذ دييجو جامبيتا مقاربة أخري لتدريس التنظير، وتعد مقاربة مختلفة عما قدمه لاف ومارش. ففي فصوله الدراسية حول النظرية الاجتماعية، والتي كان يقوم بالتدريس فيها في جامعة أكسفورد منذ تسعينيات القرن الماضي، سمح لطلابه بالخروج بشكل مدهش من لغز التجريبي، والفكرة الأساسية هو أن هذا الأمر مهم في محاولات التنظير، ويدفعهم إلى إجراء البحوث الميدانية.

ويعرف جامبيتا اللغز A puzzle بأنه "افتراض" يتحدى توقعات الحس السليم أو تنبؤات بعض النظريات" (Gambetta no date: 1). وكان يستخدم في فصوله بعض الألغاز ذات الطبيعة الاجتماعية.

إن العديد من الألغاز التي يقوم جامبيتا بتدريسها في فصوله الدراسية مثيرة

للاهتمام بكل تأكيد، ومثيرة للتفكير. ويمكن للمرء أن يري بسهولة كيف يمكن أن يلهم الطلاب للقيام بالبحوث والانخراط في التنظير الإبداعي. وللسماح للقارئ بالاستفادة من ابتكار جامبيتا، أدرجت قائمة ببعض موضوعات الألغاز التي قدمها.

ويتمثل انطباعي في أن طريقة جامبيتا في تدريس الألغاز الخاصة به كانت ناجحة للغاية. وقد يساعد ذلك الطلاب على إدراك أنه ينبغي عليهم وضع نظرياتهم بأنفسهم، وربط هذا النشاط بالعمل التجريبي الجدي.

ومع ذلك، هناك نقطة إضافية أود طرحها، تتعلق بفكر جامبيتا حول عرض الألغاز على الطلاب. ففي الحقيقة إن الطلاب لم يخترعوا أو يكتشفوا هذه الألغاز بأنفسهم، حيث لم يتم تشجيعهم على الاستقلال. كما أن الطلاب لم يدرسوا بشكل صريح كيفية التنظير وتطوير مهاراتهم في مهام محددة مثل التسمية، والتعامل مع المفاهيم، والخروج بالتفسير، وما إلى ذلك.

نماذج من الألغاز من فصول جامبيتا الدراسية

لماذا يرتفع معدل الانتحار في اسكتلندا عنه في إنجلترا؟
لماذا يكون المستثمرون النساء أفضل من الرجال؟
لماذا يتناول المراهقون في بريطانيا الخمر أكثر من معظم المراهقين الأوربيين الآخرين؟
لماذا يزداد عدد الأشخاص التي تطلب الطلاق بعد الإجازة؟
لماذا زوجات الرجال العاطلين عن العمل أكثر عرضة للبطالة من زوجات الرجال العاملين؟
لماذا يعيش طلاب العلم فترة أطول من طلاب الفن؟
لماذا يتم سرقة كتب اللاهوت من المكتبات أكثر من الكتب التي تتناول موضوعات أخري؟

Source: Diego Gambetta, “Empirical Puzzles” (no date).

تدريبات عملية على التنظير في الفصول قليلة العدد

وكما سبق الإشارة، فإن ثمة حاجة ملحة للتدريبات في مجال التنظير، في حين أن هناك عدد قليل من المواد متوافر حالياً عن هذا الموضوع، ويحتاج الأمر إلى تقديم إجابات للأسئلة التالية: هل يمكن تعليم التنظير عن طريق المحاضرات، أم ينبغي عليك القيام بذلك من خلال التدريبات العملية؟ هل يجب عليك تعليم

التنظير مع النظرية الاجتماعية أم يجب تعليمها بشكل منفصل؟ وكيف يمكنك تعليم التنظير لعدد صغير من الطلاب مقابل عدد كبير من الطلاب؟ وما هي الاختلافات بين تدريس التنظير لطلاب الدراسات العليا وطلاب المرحلة الجامعية؟

نأمل أن يبدأ الكثير من الناس بتدريس التنظير في الفصول الدراسية، ونأمل أن يشاركوا تجاربهم. ولكن بسبب النقص الحالي في المادة العلمية، سوف أصف كيف قمت بتدريس النظرية، وما هي التدريبات التي استخدمتها. وسوف أصف أيضاً تجربة مثيرة للاهتمام في تدريس التنظير للطلاب الجامعيين في علم الاجتماع والتي استمرت منذ التسعينيات.

فعلي مدار السنوات القليلة الماضية، قمت بتدريس حلقات دراسية لطلاب الدراسات العليا حول التنظير في جامعة كورنيل Cornell وجامعتين أخرتين انتسبت لهما. وكان عدد الطلاب صغيراً، وكانت كل حلقة دراسية تستمر من ساعتين إلى ثلاث ساعات.

وخلال الساعة الأولي، ألقيت محاضرة حول التنظير، وتركت وقت للأسئلة والمناقشة. وأعقب ذلك استراحة، وجلسة بعدها يقدم فيها الطلاب ممارساتهم في التنظير. وخلال الساعة الثانية أحاول أن أقول القليل جداً، وإذا قلت شيئاً، فإنه يكون لغرض واحد، وهو حث الطلاب وتشجيعهم على التحدث.

ولقد حاولت خلال الساعة الأولي أن ألقي محاضرة حول كل مرحلة من مراحل دورة التنظير، وحول الموضوعات ذات الصلة. وهذا يعني أنني قد تحدثت عن الحاجة إلى بدء عملية التنظير من خلال ملاحظة شيئاً ما بطريقة واسعة ولكن غير نظامية، ثم تسمية الظاهرة، وهكذا. وبمجرد الانتهاء من ذلك، تحدثت عن موضوعات مثل الذاكرة، والخيال، والحدس، وتوضيح أهمية بعض العلوم المعرفية للتنظير.

كما أنني خلال الساعة الأولي أخلط أحياناً بين تدريب التنظير وإلقاء محاضرة عن النظرية. وفي هذه الحالات بدأت الدورة التدريبية عن طريق شرح كل ما يتعلق بالتنظير، وقلت أيضاً أنك إذا كنت مهتماً بالتنظير، فسوف تحتاج إلى قراءة الأعمال بشكل نظري، ومن منظور مختلف عما يحدث في العادة. فما يقال في النص يكون دائماً محل اهتمام، ولكنك تزيد معرفتك أيضاً من خلال معرفة كيف وصل المؤلف إلي هذه النقطة، وما يمكنك تعلمه من هذا.

وانطباعي العام هو أن كلا المقاربتين تعملان بشكل جيد، وكلاهما أفضل من الأخرى، وقد وجدت أيضاً اعتماد البعض إلى حد ما على قدر المعرفة التي يمتلكها

الطلاب حول النظرية الاجتماعية. فالعديد من الطلاب يأخذون دورة واحدة فقط في النظرية الاجتماعية خلال تعليمهم العالي، وعندما يكون هذا هو حالهم، فإن منحهم بعض المعرفة في النظرية والتنظير في نفس الوقت يعد أمراً ضرورياً.

وعند تدريس التنظير، كرست الساعة الثانية لمناقشة الممارسات العملية، وحاولت اتباع المبدأ القائل بوجوب حصول الطلاب على فرصة للتحدث، وفي إطار ذلك، يجب أن يحصل الجميع على نفس القدر من الوقت. وعادة ما يستخدم الطلاب الوقت المخصص للتحدث عن ممارساتهم، وما توصلوا إليه، وما حدث لهم عند محاولة تنفيذ الممارسة.

لقد جربت نوعين من التدريبات في التنظير، وقمت بممارسة كلاهما، بواقع تمرين في كل اجتماع من الدورة التدريبية. وقد توصلت إلى استنتاج مؤداه، أن أول نوعين من التدريبات لم تكن جيدة جداً، ومع ذلك، سأصف ذلك لإعطاء فكرة عما حاولت تحقيقه.

كان النوع الأول من التدريبات التي قمت بتجربتها يهدف إلى تعليم الطلاب كيفية تنفيذ الدورة الكاملة للتنظير، من بداية اختيار الموضوع إلى التفسير التجريبي. واعتقدت أن الطلاب سيقومون بذلك مراراً وتكراراً خلال الدورة التدريبية، وسيحصلون على جوهرها، وسرعان ما يصبحون قادرون على التنظير من تلقاء أنفسهم.

لقد أوضحت لنفسي أن المهمة الأولي عندما تنظر، هي أن تخرج بموضوع تهتم به حقاً، وأن تمتلك نوعاً من الانجذاب له. ولكن كيف يمكن القيام بذلك في التدريب؟ كان جوابي ما يلي: لما لا ندع الطلاب يقرأون مقالة ملهمة، ويختارون شيئاً يعتقدون أنه مثير للاهتمام، وبمجرد قيامهم بذلك، عليهم أن يحاولوا استكشاف هذا الموضوع من خلال التداعي الحر للمعاني.

لقد كان الغرض من استخدام الطلاب أسلوب التداعي الحر للمعاني أثناء المناقشة الجماعية، هو أن يطوروا موضوعاتهم في اتجاهات جديدة وابداعية. كما يجب عليهم أن يشعروا بالحرية، كما أخبرتهم بتغيير موضوعاتهم إذا صادفوا شيئاً أكثر إثارة للاهتمام أثناء هذه العملية. فعند التفكير في موضوع X قد يبدأون التفكير في Y وينتهي بالموضع Z.

وبمجرد الاستقرار على موضوع جيد، تم إخبار الطلاب بأنه من الصعب عليهم محاولة تسميته، وتطوير بعض المفاهيم، وما إلى ذلك. فيجب أن يستمروا في هذا الطريق حتى يتوصلوا إلى تفسير مؤقت، وأخبرت الطلاب بأنه من الصعب

في كثير من الأحيان إكمال دورة التنظير كاملة، وأنهم قد لا يتمكنون من الوصول دائما إلى مرحلة تقديم التفسير.

وكان هناك سبب آخر لجعل الطلاب ينخرطون بشكل متكرر في مناقشات التداعي الحر خلال الدورة، يتمثل في جعلهم يدركون بأنه بإمكانهم استخدام طرق معينة في التفكير، بعد أن كان من الطبيعي لديهم أن يرتبطوا بالنظرية ليصبحوا أفضل في التنظير. وكانت هذه الطريقة أيضا تستهدف جعلهم يركزون بشكل مباشر على أنفسهم، ويدركون مدي الإبداع الذي يمكن أن يكونوا عليه.

وقد اخترت نصوص العلوم الاجتماعية التي اعتقدت أنها مليئة بالأفكار، وبالتالي ستكون ملهمة. وبعض النصوص التي استخدمتها هي: "تقنيات الجسد" Body Techniques بقلم مارسيل موس Marcel Mauss، و"علم اجتماع الإحساس" Sociology of the Senses، بقلم جورج زميل Georg Simmel، و"علم الاجتماع الغنائي" Lyrical Sociology بقلم أندرو آبوت Andrew Abbott.

وأسمح أحياناً للطلاب بقراءة نصوص الشعراء والفلاسفة، والسبب في ذلك هو أنني أردت منهم أن يدركوا أن العمل في هذين المجالين – الفلسفة والشعر – يمكن أن يكونا ملهمان جداً لعلماء الاجتماع. وبالنسبة للفلسفة كنت استخدم نصوص مثل ما هو التنوير؟ ?What Is Enlightenment لكانط، وفي الشعر اعتمدت على عمل إيميلي ديكينسون Emily Dickinson ومن أمثلة قصائده التي اعتمدت عليها "ذكريات لها معني وحاضر" Remembrance has a rear and front، و"القلب يطلب السرور أولاً" The heart asks pleasure first.

وبعد فترة من تعليمي التنظير للطلاب بهذه الطريقة، بدأت أدرك أن فكرة استخدام نص ملهم لمساعدة الطلاب على اختيار موضوع للتنظير بمثابة نقطة ضعف خطيرة. وذلك لأن الطلاب لم يتعلموا الملاحظة التجريبية، ولم يكن لديهم الكثير من التنظير، باستثناء النص نفسه وما كانوا يعرفونه بالفعل.

استهدفت فكرة انخراط الطلاب في التداعي الحر، جعلهم يشعرون بأنهم مبدعين، وأن لديهم مصدراً للإبداع يكمن داخل أنفسهم يمكن الاعتماد عليه، ومع ذلك لم يكن ذلك بمثابة بديلاً للملاحظة. ولاحظت أيضاً أن الطلاب يميلون إلى اختيار موضوعات لديهم بالفعل بعض المعرفة عنها، وهذا ما جعلني أدرك أخيراً، أنه سيكون من الأفضل لو أتمكن بطريقة ما من تضمين مرحلة الملاحظة في التدريبات.

بناء على ذلك، قمت الآن بتغيير الجزء الأول من التدريب، واليوم أطلب من

الطلاب أن يختاروا موضوعاً يهتمون به، ولكنهم لم يعملوا عليه. والسبب في جعلهم يختارون موضوعاً جديداً تماماً هو أن العديد من الطلاب قد أخبروني بأنهم يشعرون بحرية أكبر في التنظير عندما لا يكونوا على دراية بالموضوع الذي يعملون عليه.

ويطلب من الطلاب أيضاً إجراء بحث سريع حول الموضوع الذي اختاروه، وبإمكانهم استخدام أي مصدر يعتقدون أنه يمكن أن يعلمهم شيئاً عن الموضوع، ولأن الوقت قصير، فإن الإنترنت هو أحد طرق إجراء البحث، بالإضافة إلى العديد من الطرق المختلفة. وبدلا من ذلك، يمكن إجراء بعض المقابلات، وربما يتم الجمع بين كل من الاستبطان أو الملاحظة الذاتية، والفحص الفيزيقي لموضوع البحث.

وبعد القيام بملاحظات مصغرة من هذا النوع، سيقوم الطلاب كما هو الحال في المرحلة الأولي من التدريب، بإعطاء اسم للظاهرة التي اختاروها، وتطوير المفاهيم المتعلقة بها، واقتراح التفسير، وبينما يشقون طريقهم خلال كل مرحلة من هذه المراحل، أقول لهم إن عليهم أن يستخدموا مفاهيمهم، وتصنيفها، وكذلك استدلال الفروض، وتقنية التدعي الحر يمكن أن تكون مفيدة في هذا الشأن.

وبما أنني لا أزال اعتقد أنه من المهم للطلاب أن يمروا بالدورة الكاملة للتنظير عدة مرات، فإنني أحدد للطلاب ثلاثة من هذه التدريبات خلال الفصل الدراسي. وهذا يعني عملياً أن كل دورة تخصص لها ثلاثة أسابيع أو ثلاثة لقاءات (في نظام الدراسة ذات الثلاث فصول).

وخلال الأسبوع الأول يتم اختيار الموضوع وملاحظته. وخلال الأسبوع الثاني يتم تسميته، وتطوير المفاهيم، وربما تنميطها. وخلال الأسبوع الثالث، يتم بذل الجهد للوصول إلى التفسير.

ووفقاً للجدول الزمني فإن تجربتي في التدريب تعمل بشكل جدي، وقد تعثر بعض الطلاب في بعض الأحيان خلال المرحلة الثانية أثناء الخروج من الملاحظة إلى المرحلة الثانية. وردي على ذلك يتمثل في التأكيد علي أن الجهد المبدئي يجب أن يكون دائماً هو الانتقال من الملاحظة إلي تكوين المفاهيم وما شابه ذلك إلي التفسير، ولكن الأمور قد تنتهي بشكل مختلف قليلاً.

وفي آخر فصل قمت بتدريسه في جامعة كورنيل (خريف ٢٠١٣) شعر بعض الطلاب بقوة في المرحلة الأولي، وأنها كانت أكثر من مجرد طرح موضوع وإبداء الملاحظات. وفضلوا الخروج بموضوع في المرحلة الأولي. وفي المرحلة الثانية،

قاموا بإجراء بحث تجريبي ثاني أكثر تركيزاً، بالإضافة إلى مشاركة أفكارهم حول المفاهيم وما شابهها مع الأخرين في الفصل. ولم أقدر بعد ما إذا كان ينبغي لي إجراء تغيرات وفقا لذلك.

وخلال كل اجتماع في الفصل كان الطلاب يقومون بكتابة تقرير عن ما قاموا به. وفي إطار التحضير لهذا، وكطريقة لتسجيل أفكارهم أيضاً، تم إرشادهم لكتابة كيفية التصرف، وذلك باستخدام صفحة واحدة أو صفحتين. ولا أعطي أية معلومات حول كيفية تدوين الملاحظات، حيث أريد من الطلاب تطوير قدراتهم الخاصة لتسجيل ما يعتبرونه مهماً في محاولاتهم للتنظير وما إلى ذلك.

ولا يجوز تسليم الملاحظات أو اعتمادها بطريقة أو بأخرى، أو رفضها من قبل المدرس، ويتم ذلك بشكل حصري لجميع الطلاب. ولا أريد أن يشعر الطلاب بأن المدرس يقف خلفهم عندما يكتبون ملاحظاتهم، أو يهمس في أذنهم بأن هذا ممتاز، وهذا ليس عظيماً أو ما شابه.

إلى جانب هذه المهام الأسبوعية، يجب على الطلاب أيضاً كتابة ورقة عن تجربتهم، والتي أصفها لهم بأنها نوعاً من التنظير الذاتي. وفي هذه الورقة، سيقوم الطلاب بتسجيل كيفية محاولتهم في عملية التنظير خلال الدورة، وما يعتقدون من وجهة نظرهم أنه ناجح، وما لم يفعلوه بشكل جيد. وهذه الأوراق كما أقول يجب أن تتراوح ما بين عشرة إلى عشرين صفحة.

يطلب من الطلاب في الورقة التي يكتبونها التعليق على كل التدريبات أثناء الدورة. كما يتم إخبارهم بأنهم يستطيعون تضمين مقتطفات من ملاحظاتهم المكتوبة، حيث أنه من المهم أن يكونوا قادرين على توثيق كيفية سير الأمور في الوقت الذي يحاولون فيه التنظير. وهذا يمثل محاولة من جانبي للاعتماد على اقتراح بوليا، في أنه من المفيد دراسة كيفية حل المشكلة بعد الانتهاء منها.

إن الأوراق التي تلقيتها في هذه الدورات من بين أكثر الأوراق – على الاطلاق– التي أثارت لدي الاهتمام والحيوية. وانطباعي العام هو أن الطلاب أيضاً يحبون أن تركز الدورة بشكل مباشر عليهم، وعلي كيفية قيامهم بتطوير قدراته الخاصة علي التنظير.

توضح الاستجابة الإيجابية التي تلقيتها في هذه الدورات– من وجهة نظري– أنها تلبي حاجة عميقة لدي الطلاب في تعلم التنظير بطريقة جيدة، وتركز على كيفية التنظير من خلال الممارسة، وليس من خلال محتوي النظريات فقط.

تدريبات عملية على التنظير في الفصول كبيرة العدد

لم أحاول قط تعليم التنظير للطلاب الجامعيين، ويرجع ذلك بشكل أساسي إلى أنني لم أتمكن من إيجاد طريقة للقيام بذلك بفاعلية. فعندما أقوم بتدريس التنظير أشعر بأنه من الضروري التركيز على كل طالب، والسماح لكل طالب بالتحدث، والطلاب الذين يدرسون في مرحلة ما قبل التخرج عددهم كبير جداً بالنسبة لتطبيق هذه المقاربة.

كيف تقوم بتدريس التنظير لفصل كبير العدد؟ وثمة شيء واضح يتمثل في كون الطلاب الجامعيين مهتمين جداً بالنظريات والمفاهيم. ووفقاً لمسح أجرته مؤخراً الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع the American Sociological Association (ASA) نجد أن المفاهيم المثيرة للاهتمام هي الدافع الأول وراء رغبة الطلاب في الالتحاق بقسم علم الاجتماع (ASA 2013: 4). وبطريقة أخري، قد يكون أحد الطرق التي تجعل الطلاب مهتمين بالتنظير، يتمثل في تخصيص دور مهم للمفاهيم في التدريس.

وعند التفكير في مشكلة كيفية تدريس التنظير لعدد كبير من الطلاب الجامعيين، فقد صادفت محاولة واحدة للقيام بذلك. حدث ذلك في تسعينيات القرن الماضي علي يد جان رينهارت Jane Rinehart التي وصفت تجربتها في مقال يحمل عنوان "تدريس علم الاجتماع" Teaching Sociology (Rinehart 1999). كما تم استخدام مقاربة رينهارت بنجاح في جامعة أخري بعد عدة سنوات (McDuff 2012).

تعمل رينهارت في جامعة جونزاجا Gonzaga، وهي جامعة خاصة صغيرة. واستوحت مقاربتها من نظرية التعلم الاجتماعي، وقد وصفت مقاربتها التعليمية بأنها شكل من أشكال التنظير التعاوني.

والطريقة التي عمل بها التنظير التعاوني في التسعينيات كانت كما يلي: في الغالب كان يتألف الطلاب في فصل النظرية الاجتماعية الكلاسيكية من كبار السن، وكان عددهم يتراوح ما بين عشرين إلى ثلاثين. تم تقسيمهم إلى مجموعات صغيرة، وعادة لا يمتلك الطلاب معرفة جيدة.

وفي كل فصل كان يعطي لكل طالب مهمة فردية، ثم يتم مناقشتها في المجموعة. ثم يقدم بعد ذلك استخلاصات للفصل بأكمله، حيث تتم مناقشات أوسع.

وبدأت الدورة بتدريب جماعي بعنوان "الجميع يفكر" كان موضوعها يتمثل في

"أننا جميعاً منظرين" وتم إجراء بعض التدريبات لجعل الطلاب يدركون أنهم نظروا بأنفسهم لما حولهم، ولكن يجب عليهم أيضاً أن يكونوا واعيين لهذا، والأفضل في ذلك. وشملت الأمثلة في التدريبات موضوعات مثل تعاطي المخدرات، واضطرابات الطعام، والاحتيال في مجال الأعمال.

استحضرنا في الفصل أيضاً – على حد تعبير رينهارت– الكلاسيكيات مثل ماركس وفيبر وما إلى ذلك، وذهب رينهارت إلى أنه ليس من المهم فقط للطلاب معرفة أعمال هؤلاء الرواد، ولكن أيضا معرفة كيف تم إنتاجها. حيث تقول،

من الأهمية بمكان في هذا الشأن كسر تعويذة النظرية والتي ترتدي قناعا لإنتاجها، أريد من الطلاب أن يبتعدوا عن النظريات الكبري باعتبارها "أشياء ثابتة"، وإلى أن النظرية تتكون من حركات. وبدلا من هذه الطريقة يتم تدريسها بطريقة يضعها ويصوغها كل منظر. أريد أن يفهموا هذه الحركات، وأسبابها، ونتائجها. وإن تأكيد الاختيارات يحول النظريات إلى أفعال (Rinehart 1999: 222).

يمكن شرح الطريقة التي تعلم بها الطلاب حركات ماركس وغيرها فيما يلي: قيل لهم أنه بإمكانكم الحصول على أفضل أسلوب للتعامل مع الطريقة التي ينظر بها أحد الأشخاص، وذلك من خلال دراسة أفكاره أو أفكارها، ويتم ذلك بمساعدة نموذج إرشادي a paradigm. وبالنسبة لكل الكلاسيكيات يتم إخبار الطلاب بإعداد نموذج إرشادي يختصر الأفكار الرئيسية لماركس وفيبر، وما إلى ذلك. ومن خلال مواصلة هذه الطريقة، شرحت رينهارت أنه سيكون من الأسهل على الطلاب أن يستعينوا بالكلاسيكيات عندما يحللون موضوعاً ملموساً.

وكما أشرنا سابقاً، فقد تم استخدام مقاربة رينهارت في تدريب التنظير في الآونة الأخيرة، من قبل إيلين ماكدوف Elaine McDuff في جامعة ولاية ترومان (McDuff 2012). ومرة أخري كانت النتيجة إيجابية. حيث تخلى الطلاب عن خوفهم الأولي من النظرية، وشعروا في نهاية الدورة التدريبية بأنهم قادرين على ممارسة التنظير بأنفسهم، ولو بقدر قليل.

وعندما أرادت ماكدوف ربط التنظير ليكون أقرب إلى التحقق، حدث أمر يجب الإشارة إليه. ففي إحدى دوراتها حاولت تعليم الطلاب ليس فقط كيفية التنظير، ولكن الانتقال أيضاً من خطوة التنظير إلي اختبار الفرضيات.

وكانت النتيجة سلبية:

لقد وجدت أن تشجيع الطلاب على تضييق تركيزهم من التنظير العام إلى اختيار

الفروض في وقت مبكر من الفصل الدراسي قلل من اهتمامهم بتعلم التفكير بشكل نظري. فبدلاً من رؤية التنظير كنشاط ذي قيمة متأصلة، تعلموا أن النظرية لها قيمة فقط تتعلق بالأهداف العلمية الضيقة التي يركزون عليها (McDuff 2012: 173).

ونتيجة لانتقادات الطلاب قامت ماكدوف بإزالة الجزء الخاص باختبار الفرضيات من مسارها في التنظير. وتذكرت أن الطلاب قالوا في وقت سابق، أنه سيكون أمراً رائعاً إذا تم تعليمهم كيفية التنظير للمشكلات اليومية، فهي الآن ضمنت بعض القراءة الجديدة لهذا النوع. وتقول إن النتيجة كانت إيجابية للغاية، فقد قدمت اقتراحات الطلاب ثقة أكبر علي "التفكير بشكل نظري" (McDuff 2012: 174).

ومن وجهة نظري فإن رينهارت كانت علي حق عند البدء من فكرة الطلاب، مثلهم مثل الأشخاص المشتركون والمنخرطون في "التنظير" في حياتهم اليومية. واعتقد أيضاً أن محاولة تعليم الكلاسيكيات بطريقة جديدة، ومواجهة الخوف من النظرية يعد أمراً ممتازاً.

وربما يكون من المفيد أيضاً تعليم الطلاب شيئاً عن العناصر التي تشكل النظرية، فمعرفة مفهوم ما، وشرحه، وما إلى ذلك يعد أمراً ضرورياً. ذلك إذا كنت تبغي فهم ما هي النظرية، وكيف تسير في بناء واحدة منها.

يمكنك أيضاً أن تطلب من الطلاب تفكيك النظرية إلى عناصرها المختلفة. ويمكن القيام بذلك من خلال النصوص التي كتبها ماركس وفيبر، وهكذا، وبهذه الطريقة سيحصل الطلاب على الإحساس بما تتطلبه إنشاء نظرية جديدة.

أود أن تكون بعض محاولات التدريبات تستهدف الطالب الفرد بدلا من المجموعة. ومثلما لا يمكنك تعلم السباحة أو ركوب الدراجة في مجموعة، يجب أن تتعلم كيف تنظر بنفسك. فهذه ليست مهمة يمكن أن يقوم بها شخص أخر من أجلك.

الحاجة إلى تدريبات جديدة على التنظير

يبدو لي بشكل عام أننا بحاجة أيضاً إلى تجربة أنواع مختلفة من التدريبات التي يمكن أن تساعد الطلاب على كيفية التنظير في العلوم الاجتماعية. وينطبق ذلك على التدريبات التي تستهدف طلاب الدراسات العليا، وكذلك الطلاب الجامعيين.

إلى جانب التدريبات التي تم وصفها في هذا الفصل، يمكن للمرء أن يتخيل بسهولة عدد من التدريبات الأخرى. وتمثل بعض هذه الأهداف في جعل الطلاب

ينتجون نظريات كاملة، وأن يفعلوا ذلك بروح التنظير الذاتي، وأنه ليس من الضروري أن يكون الطالب مثل ماركس أو فيبر لكي ينشئ نظرية.

ويجب أن نضع في الاعتبار أنه من الممكن أيضاً تطوير تدريب لكل عنصر من عناصر التنظير. وهذا من شأنه أن يتدرب الطلاب على كيفية التحسن في الملاحظة، وإنشاء المفاهيم، وإجراء المقارنات، والوصول إلى التفسير، وما إلى ذلك.

دعوني اقترح على سبيل المثال، تدريبين بسيطين يستهدفا تعليم الطلاب أن يصبحوا أفضل في تطوير الأشكال الاجتماعية social forms، واستخدام الاستعارات. وفي سبيل تعلم كيفية إنشاء شكل اجتماعي، يمكن للمرء أن يقدم للطلاب مجموعة من ثلاث ظواهر، وأن يطلب منهم محاولة التوصل إلى شكل اجتماعي قائم على هذه الظواهر.

وفيما يلي ثلاث مجموعات، اثنان منها من الأبحاث الحالية، وواحدة تم إعدادها لهذه المناسبة:

المدارس الداخلية – السفن– السجون.

لعب كرة القدم – الصلاة – التخلي عن المال.

مطران– طبيب عظام – موظف مبيعات في محل ملابس(٢)

وفيما يتعلق بتطوير المهارة في استخدام الاستعارات، كثيراً ما وجدت أنه من المفيد التصرف وفقاً للنحو التالي: خذ بعض الموضوعات التي تهمك ثم خذ شيئاً آخر لمقارنته. افرض أنك مهتم بالشركات، خذ فكرة الشركة وتقارنها على سبيل المثال، مع المنزل والشجرة، والأغنية، انظر إلى أين يأخذك هذا التمرين.

إن ما تجده عند الانخراط في هذا النوع من التدريبات، هو أنك ستخرج بالكثير من الأفكار الغريبة، بعضها مفيد، والبعض الآخر عديم الفائدة، وسوف تفاجئ نفسك.

ستجد أيضاً أنه حتى إذا كان التدريب يدور حول العثور على استعارة جديدة أو شكل اجتماعي، فقد تحصل على أفكار حول مجموعة من الموضوعات الأخرى التي يمكن أن تكون مفيدة للغاية. ويمكنك على سبيل المثال، الحصول على بعض الإلهام لكيفية إنتاج مفهوم جديد، وتصنيف جديد، وتفسير جديد، وما إلى ذلك. وغالباً ما يكون التنظير نوعاً من النشاط غير المباشر.

وفي تدريبات التنظير ينبغي استخدام ما يسمي بروتوكولات التفكير بصوت عال think-aloud protocols (TAPs). وقد طور هربرت سيمون Herbert Simon

وزميل له هذا النوع كطريقة لاستخدام البيانات الذاتية بطريقة أكثر موضوعية (انظر على سبيل المثال: Ericsson and Simon 1993). وقد ذهب سيمون إلي أن هذه البروتوكولات مفيدة للغاية، ويمكن استخدامها لعدد من الأغراض، وقد ألهم ذلك سيمون نفسه لتطوير نظريته في حل المشكلات (Simon 1991b: 384–85).

في طريقة التفكير بصوت عال عادة ما تصف الموضوعات ما يفكرون فيه على أنهم يؤدون مهمة معينة. وربما على سبيل المثال تعُطي مشكلة لحلها، فما يتم التفكير فيه أثناء القيام بالمهمة يتم تسجيله، ودراسته (انظر على سبيل المثال: Nersessian 2008: 61–90).

ويبدو لي أن هذا الإجراء يمكن أيضاً استخدامه للتنظير. ويمكنك على سبيل المثال، التحدث بصوت عال أثناء قيامك ببعض التدريبات، بناء على اقتراح من المعلم، أو عند محاولة التنظير على بعض البيانات الخاصة بك. ويمكنك على سبيل المثال تسجيل ما تقوله على هاتفك الذكي ثم نقله ودراسته.

ويمثل ذلك طريقة مثلي للتمكن مما تقوم به في الواقع عندما تنظر. فهو يشجع على معرفة أفضل بنفسك، حتى لو كان يعتمد ذلك بشكل كبير على سرعة ودقة ما يدور في ذهنك. ويجب أن يكون واضحاً لديك أيضاً، أنه من غير الممكن إغفال المعرفة الضمنية التي تشكل جزء من عملية التنظير.

إن التدريب الذي وجدته مفيداً في تعلم الطلاب للنظرية الاجتماعية بطريقة ذات معني، هو تشجيعهم على إنشاء قاموس خاص بهم في علم الاجتماع أو أي علم اجتماعي يدرسونه. فعندما يقرأون "ثروة الأمم" لآدم سميث، أو الانتحار لدوركايم، وما إلى ذلك، يمكن أن يطلب من الطلاب إنشاء مداخل لما يرون أنه ضروري في هذه الأعمال.

وتتمثل ميزة هذه الطريقة في فصل المفاهيم، وما شابهها عن الشخص الذي جاء بها، فبدلاً من تعلم التفكير من ما يقوله فيبر أو دوركايم أو ماركس، يكون هناك محاولة معرفية "حقيقة" حول المؤلف. ويركز الطلاب على المفاهيم والحجج بأنفسهم. كما يمكنهم التفكير في كيفية تحديد مصطلح أفضل، وكيفية إعادة صياغته بطريقة مفيدة لهم في المستقبل، والقضايا ذات الصلة.

ومن مزايا هذا التدريب أيضاً أنه يمكن الطلاب أيضاً من الإضافة إلى القاموس، بمجرد الانتهاء من الدورة التدريبية، ويمثل القاموس طريقة جيدة لتخزين المعلومات والأفكار والوصول إليها.

والموضوع الأخير الذي سيتم تناوله في هذا القسم هو ما إذا كان من الممكن تعلم التنظير بمساعدة منهج الحالة. فقبل سنوات عديدة كان هناك تحول في منهجية الحالة في مدارس القانون الأمريكية، ومدارس الأعمال، على أساس أن الطلاب في المقام الأول بحاجة إلى تعلم مهارة عقلية. وبما أن التنظير هو مهارة عملية، فقد يجادل المرء بأنه يجب استخدام منهجية الحالة أيضاً في الفصول الخاصة بالتنظير، وخاصة عندما يكون لديك عدداً كبيراً من الطلاب في الفصل.

وعندما تقوم بالتدريب على التنظير، سيكون من المثير للاهتمام أن يكون هناك نقاش حول إيجابيات وسلبيات استخدام منهجية الحالة. وأنا شخصياً أشعر بشيء من الريبة حول استخدامها في التنظير الاجتماعي، والسبب في ذلك يرجع إلى أن الهدف من تعليم الطلاب في مدارس القانون هو كيفية تطبيق القانون القائم علي حالة محددة بطريقة صحيحة، وكذلك الحال في مدارس إدارة الأعمال، فإن الهدف فيها يتمثل في تعليم الطلاب القدرة علي اتخاذ القرار الصحيح عند مواجهة مشكلة محددة.

ومع ذلك فإن الوضع في التنظير مختلف – إلى حد ما– إذ يجب علي الطالب أولاً أن يبحث بنفسه عن الموقف الواقعي، فتقديم الحالة لا يشجع على التنظير الجيد، كما أن فكرة وجود إجابة واحدة صحيحة لا تتماشي مع مشروع التنظير.

ومع ذلك، فإن التركيز على تطوير المهارات العملية بدلا من المهارات النظرية، والقيام بذلك عن طريق حل المشكلات التجريبية، يعد ذلك بمثابة ميزة إيجابية لمنهجية الحالة. وإذا تمكن المرء بطريقة ما من تجاوز القيود التي ذكرتها للتو، يمكن استخدام منهجية الحالة. وربما يمكن أن تستخدم أيضاً لتعليم التنظير في الفصول الكبيرة.

دور المعلم/ القائم بالتدريس

من المعقول أن نفترض أنه مثلما تختلف التدريبات في التنظير عن الاختبارات والموضوعات الورقية التقليدية التي تستخدم في دورات النظرية، فإن دور الأستاذ الذي يقوم بتدريس التنظير أكبر من النظرية.

في تدريس النظرية يتحدد الهدف في المقام الأول في نقل كم معين من المعرفة للطلاب. وفي المقابل نجد في تدريس التنظير أن الهدف هو تعليم الطلاب مهارة خاصة بهم. في الحالة الأولي – تدريس النظرية– قد يرغب المعلم في

العمل كمرشد متنور، وفي الأخير – التدريب على التنظير– يعمل أكثر كمدرب. ففي العديد من الألعاب الرياضية، نجد أن المدرب شخص كبير السن لا يمكن أن يكون نشطاً في اللعبة نفسها، ولكنه يعرف بعض الأشياء التي يمكن أن تساعد اللاعبين الصغار ذو اللياقة البدنية العالية على الأداء بشكل أفضل.

وقد اهتم بوليا بكيفية تعليم الرياضيات للطلاب بطريقة فعالة، وأصر على أن المعلم يجب ألا يخبر الطلاب بالحل فحسب، بل يجب أن يعلمهم حل المشكلات بأنفسهم. وإذا كان الطالب غير قادر علي حل المشكلة، يجب علي المعلم محاولة التلميح له من أجل المضي قدماً، أو اقتراح بعض المشكلات المماثلة، أو بطريقة أو بأخرى يحاول دفع الطلاب نحو حلها.

وبعد عدة عقود من ترجمة أفكاره حول كيفية حل المشكلات إلى تدريبات فعالة داخل الفصول الدراسية، صاغ بوليا رأيه في علم التربية في نص قصير بعنوان "الوصايا العشر للمعلم" Ten Commandments for the Teacher. ومن الصعب عندما تقرأ هذه الوصايا عدم التفكير في أن العديد منها مفيد لمعلمي التنظير. وخذ على سبيل المثال هذه الوصية "أدرك أن أفضل طريقة لتعلم أي شيء هو اكتشافه بنفسك" (Polya 1959: 525).

ويتلخص منهج بوليا في تدريس الرياضيات، في أن التعلم الأكثر فاعلية يكون من خلال اكتشاف كيفية القيام بذلك بنفسك. ومن طرح بوليا، نجد أنها فلسفة مناسبة بشكل خاص لعقلية الأمريكان، لأنهم يملكون منهجاً عملياً للغاية في النظر للأشياء، كما يحبون إصلاح الأشياء بأنفسهم.

وفي المقابل نجد في أوربا أن الموقف مختلف تماماً:

لقد تمت كتابة كتاب كيف تحلها مرتين، مرة عندما كنت في زيورخ بألمانيا، وكتبت مسودة باللغة الألمانية، والثانية عندما جئت إلى أمريكا، وفي هذا الصدد كان مجيئي إلى أمريكا مفيداً، وتوقع ذلك لي هاردي Hardy – أحد المتعاونون مع بوليا– لأنه في هذا البلد، كان هناك اهتمام بكتب "كيف". وعندما أخبرته عن كتاب "كيف"، رد قائلا، "أوه، يجب أن تذهب إلى أمريكا" (Polya 1979: 19).

الوصايا العشر للمعلمين (من بوليا)

١- كن مهتماً بموضوعك.
٢- اعرف موضوعك.
٣- حاول قراءة وجوه طلابك. حاول أن تري توقعاتهم، وصعوباتهم، وضع نفسك مكانهم.
٤- أدرك أن أفضل طريقة لتعلم أي شيء هو اكتشافه بنفسك.
٥- اعط لطلابك المعرفة وليس المعلومات، واعطهم المواقف العقلية، وعرفهم العمل المنهجي.
٦- دعهم يتعلمون التخمين.
٧- دعهم يتعلمون البرهان.
٨- ابحث عن مميزات المشكلة الحالية، والتي قد تكون مفيدة في حل المشكلة القادمة – وحاول أن تكشف النقاب عن النمط العام الذي يكمن وراء الوضع الحالي.
٩- لا تفصح عن سرك بالكامل في آن واحد – دع الطلاب يخمنون قبل أن تخبرهم – دعهم يكتشفون بأنفسهم قدر الإمكان.
١٠- اقترح عليه – ولا تجبره على الاستنطاق.

Source: George Polya, "Ten Commandments for Teachers" (1959: 525–2 6).

لم تكن النقطة الرئيسية في التدريب – كما ذهب بوليا- هي تزويد الطلاب بالمعلومات، ولكن بطريقة ما جعلهم يطورون المعرفة لكيفية حل المشكلات الرياضية بأنفسهم. ويجب أيضاً تعليمهم كيفية التخمين. "دعهم يتعلمون التخمين"، وأشار بوليا إلى ذلك في وصيته السادسة للمعلم (Polya 1959: 525).

إن فلسفة التدريب التي ألهمت جان راينهارت – كما أشرنا سابقاً- هي نظرية التعلم التعاوني (انظر على سبيل المثال: Bruffee 1993). فعلى غرار بوليا، هي لا تريد أن تلعب دور معلم النظرية القديم، الذي يحاضر للطلاب، ويشرح لهم فقط ما قاله بعض المنظرين.

ووفقاً لمقاربة التعلم التعاوني، يجب على الطلاب مشاركة المسئولية مع المعلم لما يجري في الفصل الدراسي. يشارك المعلم في المحادثات مع الطلاب، ويجب أن يكون على استعداد لتجربة أساليب مختلفة للتعليم والتعلم. وقد وصفت رينهارت

الطريقة التي تدرب بها في الآونة الأخيرة بأنها "التدريب مع إغلاق الفم" teaching with the mouth shut (Rinehart 2012).

وكما أشارت رينهارت، فإن أفكار التعلم التعاوني تسير بشكل جيد مع تدريس التنظير.

عندما يستخدم المعلمون أساليب التعلم التعاوني في مسار النظرية الاجتماعية، يتم تحويل سلبية الطلاب والمخاوف بشأن النظرية (كمجموعة من المفاهيم الصعبة التي يتعين على الطلاب دراستها من أجل الامتحانات) إلى ممارسة مثيرة للتنظير (نشاط يتم تعلمه عن طريق أداءه مع الأخرين في الفصول الدراسية وخارجها). وهذه الممارسة لا تخلو من الصراعات والاخفاقات، ولكنها تمثل شكلاً قوياً من أشكال مقاومة الخمول والروتين (Rinehart 1999: 216).

وأخيرا، أتفق مع بوليا ورينهارت، فيما يتعلق بالطلاب، وفي تقليل أهمية دور المعلم، والتركيز بدلا من ذلك علي الطالب الفرد. أنت لا تتعلم النظرية من خلال الاستماع إلى محاضرات، حول "كيفية القيام بذلك" ولا سيما لإلقاء محاضرات حول كيفية قيام الأشخاص ذات المواهب الفائقة بفعل ذلك. إن مفتاح تعلم كيفية التنظير في العلوم الاجتماعية هو نفس طريقة تعلم كيفية استخدام المناهج: من خلال القيام بذلك بنفسك.

ولتوضيح بعض الأمور حول كيفية وضع الطالب في المركز، يمكنك أيضا استلهام مثال سقراط. وباستحضار سقراط في هذا السياق لا أنكر كثيراً الطريقة السقراطية(*) في نسختها الحديثة، والتي بموجبها يدعو المعلم الطلاب في الفصل، ويطرح أسئلة يعرفونها ويتم الإجابة عليها بشكل حدسي (الاستعادة (anamnesis). ومن وجهة نظري، فإن طرح الأسئلة بهذه الطريقة يؤدي في كثير من الأحيان إلى شل حركة الطلاب وغرس الخوف فيهم بدلا من إطلاق سراحهم.

ولكن على الرغم من حقيقة أن سقراط عاش منذ أكثر من ألفي عام، وعلى

---

* تعتمد الطريقة السقراطية على مرحلتين أساسيتين، ولا شك أن هاتين المرحلتين كان سقراط يستخدمهما في مواجهة السفسطائيين، الأولي هي التهكم: وهي المرحلة التي كان يدعي فيها سقراط الجهل، ويقوم بسؤال خصمه مجموعة من الأسئلة التي يدعي سقراط أنه لا يعرف الإجابة عليها. ولعل هذه الخطوة هي التي قصدها سويدبرج في تعليم التنظير، حيث يري أن المعلم يجب أن يكون مرشداً للطلاب يطرح أسئلة أكثر مما يقدم إجابات، دون أن يشل حركة الطلاب من خلال هذه الأسئلة. أما المرحلة الثانية فهي مرحلة التوليد: وهي المرحلة التي يولد فيها المعارف والحقائق من خلال الإجابة على أسئلة مرحلة التهكم. وخلال هذه المراحل كان سقراط يقول أنا مثل أمي: أمي قابلة – أي مولدة – تولد الأطفال، وأنا أولد الأفكار. وفي هذا الشأن يريد سويدبرج أن يكون المعلم هكذا يقوم بتوليد الأفكار من عقول طلابه. (المترجم)

الرغم من حقيقة أن الفصل الحديث ليس فيه من القواسم المشتركة مع السوق في أثينا حيث مارس سقراط فلسفته، إلا أنه لا يزال شخصية ملهمة للغاية. وهناك الكثير لنتعلمه منه أيضاً اليوم.

أود أن أقول أن ما أفكر فيه بشكل خاص هي الطرق الثلاث التي يجب أن يقوم بها الفيلسوف – كما أشار سقراط – وهي ملهمة لمعلم التنظير، فيقول سقراط، يجب أن يعمل الفيلسوف كقابلة a midwife، ولادغة stingray، وذبابة ماشية a gadfly.

فلا تلد القابلة طفلة بنفسها. وبدلا من ذلك، تساعد في ولادة طفل آخر. فالركل والصراخ يكون من قبل الطلاب، وليس من قبل المعلم. ويجب علي المعلم التدخل فقط إذا كان هناك شيء على وشك الخطأ.

وفي رأيي، فإنه من الجيد أن تلتقط هذه الطريقة لتدريب التنظير. حيث يجب أن يفهم الطلاب، أن بإمكانهم أن يلدوا شيئاً ثميناً، وأن المعلم هنا للمساعدة في الولادة، ودوره مهم للغاية، ولكنه ثانوي بالنسبة للولادة.

وعندما يتحدث الطالب عن بحثه، فإن مهمة المعلم هي إظهار أن أفكار الطالب تتمتع بإمكانية النمو والحياة. ويمكن القيام بذلك عن طريق إعادة أفكار الطالب إليه وقراءاته: انظر ما يمكنك فعله، خذ ما أنجزته بجدية. إنه حي يتغذى الأن (الطفل) واجعله ينمو.

ووفقاً لما ذهب إليه سقراط، فهناك أيضاً حقيقة مؤداها أنك تستطيع أن تلد شيئاً جديداً ومثيراً للاهتمام، ويحدث ذلك فقط إذا قررت أن تبحث عن الحقيقية وانفصلت عن الرؤية الحالية للأشياء. يتطلب التنظير إزالة جميع الأفكار المسبقة عن الظاهرة واستبدالها بالمعرفة الحقيقة. وكما يقول سقراط حملا كاذباً، يجب أن يكون هناك طفل حقيقي هناك.

٨

الفصل الثامن
دور النظرية

الفصل الثامن *
دور النظرية

"يهدف العلم إلى الكشف عن الحقائق، ووضع نظرية مُرضية بخصوصها، والنظرية لا تفقد بالضرورة فائدتها بعدم كونها حقيقية أو متطابقة مع الحقائق".

تشارلز بيرس وكريستين لاد فرانكلين، في مقالتهما "النظرية"
Charles S. Peirce and Christine Ladd-Franklin, "Theory" (1)

حتى الآن، تم توضيح أن الاستدلال والتدريبات العملية، هي بمثابة أساليب لإعدادك وطلابك للتنظير. إلا أنه يوجد الكثير الذي يجب قوله في هذا الموضوع. وأهمية هذا الموضوع لا ترتبط بالتنظير بوجه عام، ولكن ترتبط بفكرة التنظير في علم الاجتماع. ومثلما يتحدث الفرد عن العقل القانوني، أو القدرة على النظر إلى الأشياء من وجهة النظر القانونية، يمكن الحديث عن القدرة على النظر إلى الواقع من وجهة نظر اجتماعية. ومناقشتي هنا تتركز على أن التنظير الاجتماعي الناجح، يتطلب أن تكون لديك القدرة والمهارة على ذلك.

ماذا يعني النظر إلى الأشياء من وجهة نظر اجتماعية؟ وكيف يتم تطوير هذه القدرة؟ وهاتان قضيتان على درجة من الأهمية، ليس فقط بالنسبة لهؤلاء الذين يريدون التنظير الإبداعي، ولكن لأي شخص مهتم فعلا بعلم الاجتماع.

ولكي تكون منظراً ماهراً في علم الاجتماع؛ تحتاج لقدر من المعرفة بالنظرية الاجتماعية، وأن تكون قادراً على معالجة ذلك بشكل جيد. على سبيل المثال: يجب عليك أن تأخذ المفهوم من نظرية ما، وتجمعه مع مفهوم آخر من نظرية ثانية، وقد تحتاج إلى إهمال جزء معين من النظرية، وأن تستبدله بفكرة جديدة من عندك، وهكذا.

وافتقارك كمنظر للمعرفة بالنظرية الاجتماعية، وتركيزك بشكل أساسي على وضع نظرية ومفاهيم خاصة بك، وما شابه ذلك، سوف يجعلك عرضة للخطر، وسوف تكون مثل "هاوي الفن أو غير محترف"، الذي تحدث عنه "فيبر" في "العلم

---

* ترجم هذا الفصل الدكتور خالد كاظم أبو دوح.

كحرفة" Science as a Vocation. وهنا لن تكون قادراً على الاستفادة من فكرتك، والسبب ما يلي:

"تنمو الفكرة عادة من خلال العمل الجاد، على الرغم من أن ذلك ليس هو ما يحدث دائما. وفي العلم؛ قد تكون لدي "الهاوي" فكرة لها نفس أهمية فكرة الخبير، أو قد تكون ذات أهمية أكبر. ونحن ندين بالكثير من أفضل أفكارنا لحل مشكلة معينة، وبالكثير من أفضل تصوراتنا للأشخاص الهواة. ويختلف الهاوي عن الخبير – كما قال "هيلمهولتز" Helmholtz، عن "روبرت ماير" Robert Mayer– أنه ينقصه فقط اليقين التام في أساليبه العملية. هو في العادة ليس في وضع يمكنه من التحكم في فكرته بكل تفاصيلها. والفكرة هنا لا تحل محل العمل. ومن ناحية ثانية، لا يمكن للعمل أن يحل محل الفكرة، أو يتخلص منها، قليلاً مثل الحماسة. وكلا من العمل والحماسة – وفوق كل ذلك كلاهما معا – يستطيعان جعل الفكرة تخرج، أو يغريانها على الخروج" (Weber 2004: 271).

ما يجب أن نعرفه من النظرية الاجتماعية

والمعرفة بالنظرية بهدف أن تكون جيداً في التنظير، لـيس مجـرد امـتلاك معرفة عن تاريخ النظرية الاجتماعية. ورغم أنه من المفيد أن يكون لديك بعـض من مهارات المؤرخ الفكري، عندما تحاول إبراز ما يعنيه المفهوم، ولمـاذا تبـدو النظرية بالطريقة التي تبدو عليها، إلا أن ذلك ليس هو نوع المعرفة التـي تحتـاج إليها بشكل أساسي، لكي تكون جيداً في التنظير.

وبناء على ما سبق، ما نوع المعرفة التي يجب أن تكون لديك؟ وهذا سـؤال صعب، ويحتاج إلى الإجابة عليه. ولهذا تبدو المناقشة التي يشارك فيها عـدد مـن المهتمين بهذه القضية مفيدة. من المهم أن يكون لدينا نوعان مـن المعرفـة؛ أولاً: أنت تحتاج إلى أن تكون لديك معرفة عميقة بما يجعلك تنظر لشيء ما من منظور اجتماعي. وثانياً: يجب على أن تكون على دراية ومعرفـة بعـدد مـن المفـاهيم والآليات والنظريات المختلفة.

ويتأسس النوع الأول من المعرفة على علم الاجتماع. ويعني معرفـة قـضايا مثل: ما الذي يطلق عليه "اجتماعي"؟ وما أسبابه؟ وما تأثيراته؟ وكيف يحدث التغير الاجتماعي؟

ويجب على الفرد أن يكون متمكناً ومتخصصاً في هذا النوع مـن المعرفـة، بشكل حقيقي وعميق، وأنا أعني بمصطلح "متخصص"، أن تكـون هـذه المعرفـة

متجذرة في عقلك بشكل واضح، وأنك مستوعبها بشكل كامل. وهذه الحالة تعني أنك تدرك أن المعرفة تنبع من داخلك وليس من الخارج. ولن تحتاج إلى إعادتها للذاكرة عندما تقوم بالتنظير، لأنها جزء من تفكيرك بالأساس.

وعندما تصبح متخصصاً في بعض المعارف بالفعل، فإنك لن تكون قد استوعبت هذه المعرفة فقط، لكنك أيضا تصبح في وضعية تسمح لك بسهولة استخدام هذه المعارف، وتحويلها وتوظيفها حسب أغراضك وأهدافك، كلما تقدمت في بحثك.

ولأن ذلك يحدث، فإن مصطلح "متخصص"، يحتوي على معنى آخر غير الاستيعاب، وهو "الإيحاء". وفي عالم الفن مصطلح "متخصص" يعني أنك تجعل عمل شخص آخر عملك أنت. والأعمال الجاهزة بواسطة الفنانين من أمثال "مارسيل داتشامب" Marcel Dutchamp، و"إيليان ستورتيفانت" Elaine Sturtevant، تكون أمثلة على هذا النوع من التخصص. وبالمثل أنت تريد أن تجعل أفكار علماء الاجتماع هي أفكارك أنت.

ويقترب نوع المعرفة العميقة بماهية الاجتماعي، مما حاول "إيفرت هيوز" Everett C. Hughes، أن يدركه بتعبيره "العين السوسيولوجية" The Sociological Eye. (Hughes 1984b)، ويشير هذا التعبير إلى نمط الرؤية التي تسمح لك بالتخلص مما هو غير مناسب، وتركز على ما هو اجتماعي في ظاهرة معينة. وفقط عندما تصبح هذه الطريقة الخاصة بالنظر إلى الأشياء فطرية تقريبا، من الممكن أن تُنظر جيداً.

والتركيز على ما هو اجتماعي، بهذه الطريقة، مهارة متميزة، ليس من السهل اكتسابها. وليس واضحا بما يكفي، كيفية اكتساب هذه المهارة، على الرغم من قراءة علم الاجتماع بكم كبير، وإجراء البحوث في علم الاجتماع، والتعامل مع علماء الاجتماع المميزين، كلها تكون مفيدة جدا في هذا السياق.

عند مناقشة ما يشكل "ما هو اجتماعي"، من المفيد الإشارة إلى المصطلح السوسيولوجي الفرنسي "الانفصال عن" break، (الانقطاع rupture). فلكي نكون قادرين على رؤية الجوانب والملامح الاجتماعية لشيء ما، يكون من الضروري، طبقا لرؤية "بيير بورديو" Pierre Bourdieu، أن نخالف وبشكل حاسم الطريقة التقليدية للنظر في الأشياء ومعالجتها (Bourdieu et al. 1991: 13–31).

ويتشابه ذلك مع ما يعنيه "دوركايم" من مصطلح "الأفكار المسبقة"

Preconceptions، ولأننا جميعاً نعيش في المجتمع، فكلنا لدينا مفاهيم مسبقة عن ما يحدث، ويجب ترك هذه المفاهيم جانبا من أجل رؤية الحقائق الاجتماعية.

وإنني أعتقد أن هناك أربعة أسئلة بالتحديد، يجب تناولها، لكي نقوم بالتنظير، بشكل جيد في علم الاجتماع، أو العلوم الاجتماعية عامة:

١- ما هو "الاجتماعي"؟
٢- ما هي أسباب وتأثيرات ما هو اجتماعي؟
٣- كيف يتغير ما هو اجتماعي؟
٤- ما الذي يجعل موضوعك هاماً؟

ويبذل عدد كبير من علماء الاجتماع الوقت الكثير، من أجل تناول هذه الأسئلة، ليس لأنها أساسية فحسب، بل لأن الإجابة عليها صعبة جدا، ولا توجد أية إجابات محددة لها، لكن كلها مجرد محاولات لاستكشافها.

وبالنسبة للسؤال الأول - ما هو "الاجتماعي؟ - من الواضح أن نقطة الانطلاق في علم الاجتماع، تبدأ من حقيقة أن البشر يقضون حياتهم في جماعات ومجتمعات، ونتيجة لذلك يتشكل الاجتماعي. ويوجد أيضا في هذا السياق السؤال الصعب عن دور البيولوجيا البشرية Human biology "علم الأحياء البشرية" في ذلك.

السؤال الثاني - ما هي أسباب وتأثيرات الاجتماعي؟ - هو سؤال محوري لعلم الاجتماع، والإجابة الأساسية على هذا السؤال، هي أن علماء الاجتماع يحاولون تفسير تأثيرات كل ما هو اجتماعي بالإشارة إلى الاجتماعي، مثلما يحاولون تحديد أسباب الاجتماعي بالإشارة إلى الاجتماعي. ويتم تنفيذ ذلك إما بالتركيز على المستوي الفردي، أو على مستوي الجماعات. ومرة أخرى من الصعب شرح كيفية تنفيذ ذلك بالضبط.

ومرة أخرى، ما دور الناحية البيولوجية؟، ويوضح البحث الحالي أن مختلف الناس يتأثرون ببيئاتهم بطرق مختلفة، وذلك حسب تكوينهم الوراثي. وليس معروفاً بشكل دقيق طبيعة ذلك التفاعل، بين الناحية البيولوجية والاجتماعية. ولكن بشكل عام الناحية البيولوجية مهمة لفهم دور الناحية الاجتماعية.

والسؤال الثالث - كيف يتغير ما هو اجتماعي؟ - حقيقي أن الكائنات البشرية تعيش وتعمل في جماعات ومجتمعات، وكذلك الكثير من أنواع الحيوانات، إلا أن ما يميز الكائنات البشرية مستوي التغير الذي يمكن أن تحققه في الناحية

الاجتماعية. والأسئلة الخاصة بكيف يحدث ذلك ولماذا؟ تبدو أسئلة من الصعب الرد عليها (أو الإجابة عنها).

ومن الصعب بشكل أكبر أن نذكر بدقة، لماذا تم ضم السؤال الرابع والأخير، إلى مناقشة ما هو ضروري بالنسبة للتنظير الجيد في علم الاجتماع: ما الذي يجعل موضوعك مهم؟ والإجابة السريعة تكون أنه إذا لم تقم باختيار موضوع جيد لتحليله ودراسته، فإن النتيجة سوف تكون تافهة، وسوف يكون لديك حيز قليل للتنظير الاجتماعي الهام والمثير. (for example, Klein 2014). وتسمح العين السوسيولوجية، برؤية بعض الأشياء والموضوعات بشكل واضح، والبعض الآخر بشكل أقل وضوحاً.

وبهذا المعنى سؤال "ما الذي يجعل موضوعك مهماً؟ يكون سؤالاً محورياً – ويرتبط بإمكانية أو عدم إمكانية تنفيذ محاولة التنظير الاجتماعي، بل وأيضا تنفيذ أي مشروع بحثي. وهناك إجابة مقترحة، وهي أنه إذا لم يتضمن موضوعك في النهاية قدراً من الأهمية الوجودية والاجتماعية، فسوف يكون المغزى من بحثه وتنظيره ضعيف.

وحقيقة، تحديد الأهمية الوجودية لشيء ما، أسهل من تحديد أهميته الاجتماعية، وقد يرتبط ذلك بسهولة تحديد معني الأهمية الوجودية، مقابل صعوبة تحديد معني الأهمية الاجتماعية. والفكرة الوحيدة التي أريد أن أوضحها في هذه المرحلة، هي أنه يجب أن يحتوي موضوعك على سمة خاصة به – والكثير من الموضوعات تفتقر إلى هذه الخاصية. وأنت تحتاج إلى موضوع جيد لتقوم بتنظيره بشكل مميز.

وسوف أعود إلى هذا السؤال بعد ذلك. والآن سوف أتطرق لموضوع آخر، وبمصطلحات محسوسة. كيف تُعلم نفسك أن تنظر إلى الأشياء من وجهة نظر اجتماعية؟ وكما ذكرنا في السابق، من المحتمل أنه توجد طرق مختلفة لفعل ذلك. وفي حالتي أنا وجدت ضالتي في كلاسيكيات علم الاجتماع، التي كانت مفيدة جداً لي، وأنا أقصد بالكلاسيكيات، مجمل الأعمال التي صدرت خلال الفترة من عام ١٨٩٠م، إلى العام ١٩٢٠م.

وسبب أن الكلاسيكيات مفيدة جداً، هو أنها كانت واضحة جدا بخصوص الرؤية الجديدة التي تحاول تأسيسها، وكان هناك حاجة إلى أن يكون علم الاجتماع مميز عن العلوم الأخرى، كان ذلك عملاً ضرورياً في هذا التوقيت. وأضف إلى ذلك أن الكلاسيكيات، تتضمن معاني ومفاهيم مميزة، بالنسبة لاختيار الموضوعات

العظيمة، مثال الموضوعات الكبرى لشخص مثل "فيبر"، وصولاً للموضوعات الصغرى لعالم اجتماع مثل "زيمل".

ويوجد نصان في علم الاجتماع من الصعب تجاوزهما، نظرا لأسلوبهما الشامل في شرح المنظور الاجتماعي؛ الأول: كتاب "إيميل دور كايم" "قواعد المنهج في علم الاجتماع"، والثاني: الفصل الافتتاحي من كتاب "ماكس فيبر" المعنون "الاقتصاد والمجتمع" (الفصل الأول: المفاهيم السوسيولوجية الأساسية). وكلا هذين الكتابين يغطيان معني مصطلح "الاجتماعي" وما يقصد به، ويوضحان بشكل دقيق ما هو التفسير السوسيولوجي.

هذان الكتابان يعرفان "الاجتماعي" بطرق مختلفة، توحي لنا بأن ما هو "اجتماعي" لو معني متفق عليه في علم الاجتماع، وهذا صحيح بالفعل، منذ مائة عام ماضية، وحتى وقتنا الراهن.

وبالنسبة لفيبر يشير مصطلح "اجتماعي"، إلى الفعل المرتبط بسلوك الفاعلين الآخرين. ويوضح أن التفسير السوسيولوجي يجب أن يأخذ في اعتباره المعنى، الذي يضفيه الفاعل على فعله، ويستثمر فيه بناء على ذلك. وبدون هذا المعنى لا يوجد فعل، ولا يوجد فعل اجتماعي.

وبالنسبة لدوركايم، يشير "الاجتماعي لمعنى آخر – وبالتحديد يشير إلى النشاط الذي يقوم به الفرد ويرتبط بالجماعة. والجماعة توجد عند مستوي مختلف عن الفرد. وما يميز الكائنات البشرية عن الحيوانات الأخرى التي تعيش في مجموعات، هو قدرة الكائنات البشرية على نقل المعلومات حول المؤسسات من جيل لآخر، وأيضا القدرة على تغيير هذه المؤسسات بطرق أساسية.

وتفسير تأثير ما هو اجتماعي، بالنسبة لفيبر يحتاج إلى أن تركز في البداية على الأفعال الاجتماعية للأفراد، وبعد ذلك تتبع الطرق التي تتطور من خلالها هذه الأفعال، وما هي نتائجها. وحسب رؤية "دور كايم" يمكن تفسير الواقعة الاجتماعية من خلال واقعة اجتماعية أخرى. ويضيف أنك تحتاج إلى أن تتعرف على أسباب بعض الوقائع الاجتماعية، بالإضافة إلى الوصول إلى وظيفتها.

وفي النهاية، ما الذي يقوله كلا من "فيبر" و"دوركايم"، رداً على السؤال الرابع، "ما الذي يجعل موضوعك مهم؟"، لدي "دوركايم" إجابة واضحة: التحليل الذي لا يتناول سبب تماسك المجتمعات أو تفككها وانهيارها، لا يكون ذو قيمة علمية كبيرة، أو قيمة أخلاقية. وبأسلوب آخر، وفقا لدوركايم ما هو اجتماعي وما هو أخلاقي، يقتربان من بعضهما لبعض، ويكونان شيئا واحدا، أو نفس الشيء.

بينما كان "فيبر" أكثر حذراً من "دوركايم"، عندما يناقش ماهية الموضـــوعات التي يجب أن يختارها الباحث الاجتماعي. وفي رأيه يجـــب أن يتنـــاول التحليـــل السوسيولوجي القيم الثقافية الخاصة بالعصر، والأسئلة التي تثيرها. ومع ذلك، تميل هذه القيم إلى التغير كلما حدث حراك في المجتمع، فما يجده جيل ما مهما، قـــد لا يكون مهما بالنسبة للجيل التالي.

والفكرة هنا ليست ما إذا كانت إجابات "فيبر" و"دوركايم" صحيحة أم لا، المهم هو أنه يجب على عالم الاجتماع أن يكون قادراً على النظر بشكل تلقائي في الواقع الاجتماعي وتحليله، على ضوء الكشف عن أسباب وتأثيرات الوقـــائع الاجتماعيـــة على المجتمعات، والكيفية التي تتغير بها. وكل من "فيبـــر" و"دوركـــايم" يأخـــذانا مباشرة إلى هذه الأسئلة، ويجعلانا نتطرق لها ونفكر فيها.

والنوع الثاني من المعرفة الضرورية للتنظير الإبداعي، حسب رؤيتي، يختلف تماماً عن نمط المعرفة الذي ناقشناه للتو. إنه لا يرتبط كثيرا بقدراتك العامة علـــى فهم الأشياء، من خلال وجهة النظر الاجتماعية، بقدر ارتباطه بقدرتك على تنفيـــذ التحليل الاجتماعي بكفاءة، وبأسلوب مميز. وما يكون ضروري بـــشكل خـــاص، معرفة عدداً كبيراً من المفاهيم والآليات والنظريات الاجتماعية.

ومن المفيد أن تعرف عدداً من المفاهيم والآليات والنظريات الاجتماعية، حتى يكون لديك المخزون المعرفي الذي تختار منه، عندما تحـــاول التنظيـــر لظـــاهرة اجتماعية معينة. وحقيقة أنه كلما زاد مخزونك المعرفي، كلما كان ذلـــك أفـــضل. ولقد ذكرت خلال الفصل الثالث بعض المؤلفين، الذين كانت أعمالهم غنية بـــشكل كبير بالمفاهيم، مثال: "فيبر"، و"زيمل"، و"ميرتون". ولكي أكون أكثر تمسكاً برأيي، أنا أشير للقارئ على الجدول رقـــم (١)، الـــذي يتـــضمن عـــدداً مـــن المفـــاهيم السوسيولوجية الأساسية، كما يراها "فيبر"، وكيف عرفها.

ومن المفيد أيضا، أن يكون لديك قدراً من المعرفـــة بـــالكثير مـــن الآليـــات الاجتماعية Social Mechanisms، بقدر الإمكان. ومن خلال قراءة أعمال عـــدد من المؤلفين أمثال:

المفاهيم الأساسية لعلم الاجتماع، طبقا لما ورد في كتاب "ماكس فيبر" المعنون "الاقتصاد والمجتمع"

١- علم الاجتماع والفعل الاجتماعي:

علم الاجتماع هو العلم الذي يحاول أن يعطي وصف سببي لمسار الفعل الاجتماعي ونتائجه، من خلال الفهم التفسيري لهذا النمط من الفعل. والفعل الاجتماعي هو كل سلوك ذو معنى، ويكون موجه للآخرين.

٢- أنواع الفعل الاجتماعي (الفعل العقلاني الذرائعي، الفعل العقلاني الموجه نحو قيمة مطلقة، الفعل العاطفي، الفعل التقليدي):

يختلف الفعل الاجتماعي حسب غايات الفاعل؛ الذي يحسبها بشكل عقلاني (الفعل العقلاني الذرائعي)، أو حسب القيم التي توجه الفعل (الفعل العقلاني الموجه نحو قيمة ما)، أو حسب الحالة العاطفية (الفعل العاطفي الوجداني)، أو حسب العادات والتقاليد الراسخة (الفعل التقليدي).

٣- العلاقة الاجتماعية:

تتألف العلاقة الاجتماعية من فاعلين أو أكثر، يوجهون سلوكهم نحو بعضهم البعض. وإذا تضمنت أفعالهم على معني مختلف، فالعلاقة بينهم متباينة.

٤- موجهات الفعل الاجتماعي (العرف، العادة، المصلحة الذاتية)

يطلق على التجانسات الإمبيريقية مصطلح "العرف" عندما يكون وجودها مؤسس على الحدوث المنتظم لفعل ما. والعادة عندما تكون مؤسسه على الاستخدام المنتظم والممتد لفترة زمنية طويلة. وتتحدد من خلال المصلحة الذاتية إذا كانت الأفعال موجهة نحو توقعات معينة بالاعتماد على العقلانية الذرائعية.

٥- النظام الشرعي:

هو النظام الذي يتضمن الطرق التي تؤدي بها الأفعال وفق معنى معين (القواعد أو المبادئ) والتي توجه الأفعال نحوها. وإذا وجه الفاعلون أفعالهم وفقا لاعتقاد معين بهذا النظام، سوف يطلق على هذه الأنظمة بأنها شرعية.

٦- العرف والقانون:

العرف هو النظام الذي يواجه انحرافات الأفعال عن المتفق عليه من خلال الاستهجان والرفض. والقانون هو النظام الذي يواجه هذه الانحرافات وعقاب مرتكبيها بالقهر المادي أو النفسي، من خلال مجموعة من الأفراد.

٧- أسس الشرعية:

تتأسس شرعية النظام على؛ التقاليد، والإيمان أو الاعتقاد، والقانون.

٨- الصراع والمنافسة والانتخاب:

يعد الصراع علاقة اجتماعية، يتم خلالها تنفيذ الفعل بشكل مقصود، ويوجه هذا الفعل ضد إرادة الفاعلين الأخرين.

والمنافسة هي نوع سلمي من أنواع الصراع على بعض المميزات والمنافع.

الانتخاب يحدث عبر الصراع والمنافسة، ويعني هيمنة الذين نجحوا أو قاموا بما يتوجب عليهم القيام به في الحالتين.

٩- العلاقات الاجتماعية والارتباطية:

العلاقات الاجتماعية العامة هي العلاقات التي تؤسس على شعور الفاعلين بانتمائهم إلى بعضهم البعض، مثال الأسرة والأمة.

أما العلاقات الارتباطية هي تلك العلاقات التي تؤسس على دوافع عقلانية، مثال السوق والشراكة.

١٠- العلاقات المفتوحة والمغلقة:

العلاقات الاجتماعية المفتوحة هي تلك العلاقات التي يمكن للفرد الانضمام لها إذا أراد ذلك، وتكون مغلقة إذا لم يستطيع الفرد ذلك.

١١- التمثيل والمسئولية المتبادلة:

يحدث التمثيل عندما تُسند أفعال بعض الأعضاء إلى أفراد آخرين، ليقوموا بها نيابة عنهم. والمسئولية المتبادلة هي أن يُسند فعل شخص واحد في العلاقة الاجتماعية إلى كل الفاعلين الآخرين.

١٢- التنظيم:

يتأسس التنظيم عندما يتم تنفيذ نظام العلاقة الاجتماعية المغلقة أو المحددة بواسطة مجموعة أفراد أو شخص في السلطة.

١٣- نظام الاتفاق الحر، نظام الجبر والإذعان في المنظمات:

قد يكون النظام في المؤسسات إما متفق عليه اختيارياً، أو يتم فرضه وإجبار الأفراد على قبوله.

١٤- النظام الإداري والتنظيمي:

القواعد التي تحكم أفعلا المنظمة يطلق عليها "إدارية"، وإذا تـم ضـم منـافع الأعضاء يطلق عليها تنظيمية.

١٥- المشروع، المنظمة الرسمية، الاتحاد التطوعي، والاتحاد القسري:

المشروع هو عبارة عن مؤسسة عقلانية، وعندما يكون أعضائها عقلانيـون منظمة رسمية. ومن خلال السلطة التي تكون على الأعضاء، يكـون التنظـيم أو المؤسسة إجبارية أو تطوعية.

١٦- القوة والسيادة:

توجد القوة عندما يفرض فاعل ما إرادته في العلاقة الاجتماعية، على الـرغم من المقاومة. وعندما تطيع الجماعة الأمر وتخضع، تتحقق السيادة. ويتحقق النظام والانضباط عندما تصبح السيادة عادة.

١٧- التنظيم السياسي والتنظيم الديني:

التنظيم السياسي هو التنظيم الذي يقوم على فرض النظام عبر القهر المـادي. بينما التنظيم الديني يعتمد على القهر والإجبار النفسي عبر منح الفوائد الدينيـة أو حرمان الأفراد منها. تمثل الدولة تنظيم سياسي ولديها أفراد يحتكرون العنف البدني المشروع. والكنيسة تنظيم ديني جبري، ويمتلك أفرادها شرعية اسـتخدام القـسر بالاعتماد على الدين والقيم الدينية. والطائفة تنظيم ديني طـوعي، يـشترط علـى الأفراد الذين يريدون الانضمام إليه تأهيل ديني معين.

تعليق:

يمكن لهذه المفاهيم أن تكون موجودة في الفصل الأول من كتاب "ماكس فيبر" المعنون "الاقتصاد والمجتمع"، وعنوان الفـصل "المفـاهيم الأساسـية فـي علـم الاجتماع". وبالنسبة لمفهوم التنظيمات أو المؤسسات، من الـصعب فهمـه باللغـة الإنجليزية في بضع جمل. لقد اعتمدت على ترجمة "تالكوت بارسـونز"، وهنـاك ترجمة أخرى لكلا من "روس وويتش" (Weber 2004: 311–58).

"توماس شيللنج" و"ألبرت هيرشمان"، و"ألكسيس توكفيـل" يمكـن أن تعـرف بشكل سريع عدداً من الآليات، التي تكون مفيدة جدا لك عنـدما تقـوم بـالتنظير. ويجب عليك عمل فهرس بأهم "الآليات" الاجتماعية، ولكن ذلك بعدما تقوم بقـراءة العلماء السابق ذكرهم.

وعندما تبني مخزنك من المفاهيم والآليات والنظريات، يكون من المهم أيضا أن تختار علماء الاجتماع أصحاب الخيال والإبداع، ويوجد الكثير من لعلماء المبدعين، الذين يمكن الاختيار من بينهم؛ أمثال "هايك" Hayek، و"زيمل"، و"شومبتير" Schumpeter، و"فرويد"، و"جوفمان" وغيرهم. ويوجد أيضا عدد من الدراسات الرائعة لعدد من المؤلفين ذوي الشهرة الأقل.

ولأنه لا أحد يستطيع قراءة كل شيء، يكون من الجيد انتقاء عدد محدود من الأعمال، التي تتضمن عدد كبير من المفاهيم والنظريات. ويفضل التصفح والقراءة السريعة، وذلك عكس القراءة البطيئة التي قد تحتاج إليها عندما تحاول معرفة ماذا يعني "الاجتماعي".

وإني أري، أنه من المفيد أن تعيش مع الكثير من الكتب والنظريات، مثلما وضح ذلك "كينز" Keynes، في حوار إذاعي معه عام ١٩٣٦م، وكان يقصد بذلك القارئ العادي، ولكن ما قاله ينطبق على "المنظر"، حيث أشار إلى أن الكتب فكر في النظريات:

"ويمكن أ أختتم كلامي بنصيحة بسيطة وعامة، من شخص يقال عنه أنه قارئ خبير، إلى الذين تعلموا أن يقرأوا، ولكن لم يحصلوا على الخبرة بعد. يجب على القارئ أن يكتسب معرفة عامة وواسعة من خلال الكتب، ويجب أن يتعامل معها بكل حواسه، ويجب أن يشعر بملمسها ورائحتها. وكذلك يجب على القارئ أن يتعلم كيف يأخذ الكتب بن يديه، ويتصفحها بسرعة، ويصل في ثواني قليلة إلى أول انطباع حدسي عن ما تحتويه هذه الصفحات. وكذلك يحتاج القارئ عبر الوقت أن يلمس ألاف الكتب عشرات المرات، طالما هو يقرأ. ويجب ن ينظر إلى الكتب نظرة الراعي إلى الأغنام، ويحكم عليها بنظرة سريعة، وعلى القارئ أن يعيش مع كتب أكثر عدداً، من تلك التي قرأها، ويعرف من صفحاتها غير المقروءة السمة العامة والمحتوى، وهي موجودة حوله." (Keynes 2010: 172).

الافتراضات، التخمينات، والمرتكزات

من خلال خطة كيفية التنظير في هذا الكتاب، تم التأكيد على أهمية الملاحظة. فلا يمكن أن يحدث تنظير جيد في العلوم الاجتماعية بدون ملاحظة، ولقد قيلت هذه الحقيقة مرارا وتكرارا. وإضافة إلى ذلك هناك شكل هام من أشكال التنظير ليس إمبيريقياً بطبيعته، وقد حان الوقت لقول شيء ما عنه.

وإذا كان التنظير الذي تم تقديمه في الجزء الأول، يطلق عليه "التنظير المبني على الملاحظة"، هذا النوع من التنظير، يمكن أن نطلق عليه "التنظير الأساسي"، ولا يكون مبني على الملاحظة، ولكن يمكن القول إن علاقة هذا النوع من التنظير بالملاحظة، علاقة باهتة وضعيفة، ويبعد هذا النوع من التنظير عن الملاحظة التجريبية بعدة خطوات.

ويتناول التنظير الأساسي مجموعة أسئلة، جميعها تطرح فيما قبل الملاحظة، مثال: ما الحقيقة؟ وما المفهوم؟ وماذا يقصد بالسببية؟ وأنا قمت بصياغة هذه الأمثلة من الأسئلة، بهدف التأكيد على ضرورة تناولها بواسطة الشخص الذي يطمح إلى أن يكون جيداً في التنظير.

والتوصل إلى نظريات جديدة، يتناول مثل هذه الأسئلة، بل أن تناول هذه الأسئلة مثل مهمة ضرورية. ولأن هذه الأسئلة ذات طبيعة أساسية جدا، فإنه من الصعب جدا الوصول إلى إجابات جديدة عنها. والمنظرون النابغون في مثل هذا النوع من التنظير يندر وجودهم.

وبينما يكون من الصعب جدا، الوصول إلى الإبداع عندما نكون بصدد أساسيات وافتراضات العلوم الاجتماعية، إلا أنه من المهم إعطاء اعتبار كبير لها. وأحد أسباب ذلك أنها بطرق كثيرة تجعل العلم الاجتماعي ممكناً

ومن المصطلحات التي قدمها "جون ديوي" John Dewey و"أرثر نبلي" Arthur Bentley في أربعينيات القرن العشرين، في مقالاتهما "الابستمولوجيا"، مصطلح "الافتراضات" *postulation*، وهما يفسران سبب اختيارهما هذا المصطلح على النحو التالي:

"تشير القواميس إلى معنيين لكلمة "الافتراضات". الأول: يشير إلى شيء ما مسلم به جدلا، باعتباره الأساس الصحيح للاستدلال أو الاعتقاد. الثاني: هو شرط ومصدر للمزيد من العمليات. وأسلوبنا يتناول النوع الثاني، ونحن سوف نحدد ذلك بالحديث عن "الافتراضات" السلم بها جدلاً، وليس الشروط. والأولي تكون ملائمة بشكل أكبر، على الرغم من أنها قد تكون غير متقنة، أو غير كافية في بعض الأحيان" (Dewey and Bentley 1945: 646).

وفكرة وجود نوع أساسي من النظرية، تمكن عالم الاجتماع من التقدم بالتحليل، وممكن أن نجد هذه الفكرة في مفهوم "فيتجنشتاين" "المرتكزات". وغير ذلك من مفاهيم وأفكار. وكل هذا يجعلك تتقدم في المناقشة والتحليل.

ويوضح "فيتجنشتاين" أننا لا نحتاج إلى إثارة هذا النوع من الأسئلة الأساسية، ومن المهم أن نضع ذلك في الحسبان لأن بعض المنظرين الاجتماعيين يصرون على أنه يوجد شيء ناقص في التحليل، وأنه لا يتناول بوضوح نوع الانطولوجيا الاجتماعية الذي يكون مبني عليها (Wittgenstein 1972: 341).

ويتخلص "فيتجنشتاين" من هذه المناقشة بالطريقة التالية: الأسئلة التي نثيرها والشكوك التي لدينا، تعتمد على حقيقة أن بعض الافتراضات تكون خالية من الشك، مثل المرتكزات التي تعتمد عليها هذه الافتراضات. وسبب أنها خالية يرجع إلى ما يلي:

"لا نستطيع أن نبحث كل شئ، ولهذا السبب نكون مجبرين على أن نعتمد على الافتراضات، وإذا أردت الباب يدور فلابد أن تبقي على المرتكزات، التي يمكن أن يدور من خلالها" (Wittgenstein 1972: 343).

ويوضح "فيتجنشتاين" أن الأساس النهائي، الذي تتمحور حوله مناقشتنا، يكون أسلوب التصرف، وليس الفكرة، "والغاية ليست افتراض غير متأصل، إنها طريقة للتصرف" (Wittgenstein 1972: 110).

المزيد عن كيفية تعلم النظرية

وضحت في بداية هذا الفصل، أن هناك نوعان من المعرفة، على درجة أهمية بالنسبة للتنظير؛ وهما معرفة أساسيات النظرية الاجتماعية، ومعرفة عدد من المفاهيم والآليات والنظريات. وقيل أيضا أن النوع الأول، يجب أن يكون معرفة عميقة، بينما الثاني يمكن أن يكون معرفة سطحية نسبياً.

ويجب قول المزيد عم هذين النوعين من المعرفة، وكيفية اكتسابهما. وفيما يلي سوف أعود إلى موضوع كيفية تنمية العين السوسيولوجية، وبعد ذلك سوف أقول شيئا ما عن الأسلوب الذي من خلاله نستطيع أن نعرف عددا كبيرا من المفاهيم والآليات والنظريات.

وامتلاك نوع من المعرفة العميقة، يتشابه مع ما يراه "كانيمان" Kahneman باعتباره "التفكير الحدسي للخبراء" (Kahneman 2011: 240–41). وبينما لديه القليل ليقوله عن الطرق التي يمكن للخبراء من خلالها تنمية حدسهم، إلا أن الفيلسوف "هوبرت درايفوس"، وأخيه "ستيوارت درايفوس"، طورا نظرية هامة عن كيفية تحويل المعرفة إلى مهارة وحدس. for example, Dreyfus and Dreyfus

(1986. وأفكارهما هذه تتفق أيضا مع طريقة تنمية المعرفة العميقة عن النظرية والمهارات الأحرى الضرورية للتنظير.

والأخوان "درايفوس" يتصوران أن عملية بناء المهارات، تحدث من خلال خمس خطوات: وتبدأ هذه بعدد من القواعد التي يجب أن يتبعها الفاعل، الذي سوف يتعلم – تدريجيا – بعد ذلك تناول المواقف والقضايا المتزايدة التعقيد. وكلما أصبحت معتادا على إتباع القواعد، كلما أصبحت جاهزا ومستعدا لأن تأخذ السياق في الاعتبار. وفي نهاية هذه العملية سوف تكون استدمجت القواعد، ولن تحتاج إلى التفكير فيها بعد ذلك. وأنت الآن حر في التركيز على ما هو جديد في الموقف.

كيفية تعلم المهارات طبقا للأخوين "درايفوس":

الخطوة الأولي: أبدأ بتعلم بعض المعارف الأساسية، مع تجنب كل ما يحيط بالسياق.

الخطوة الثانية: قم بزيادة المعرفة الأساسية، وأبدأ بأن تأخذ هذه المحيطات بالسياق في اعتبارك.

الخطوة الثالثة: أصبحت الآن صاحب كفاءة، فأبدأ باتخاذ القرارات المستقلة.

الخطوة الرابعة: قم باتخاذ القرارات المستقلة بشكل متكرر، وذلك عبر مواقف مادية ومحسوسة.

الخطوة الخامسة: قمت الآن بتنمية المهارة، ولأن معرفتك حدسية، يمكن لك أن تركز على معالجة المواقف المادية بكل تعقيداتها.

المصدر:

Hubert Dreyfus and Stuart Dreyfus, *Mind over Machine: The Power of Human Intuition and Expertise in the Era of the Computer* (1986: 50).

وكمثال على كيفية التحول من مبتدئ إلى خبير، يستخدم المؤلفان مثال تعلم قيادة السيارة. والتي تبدأ من خلال قيادة السيارة ببطء، في الأماكن المخصصة لتعليم القيادة، وبعد وقت من تدربك على ذلك، يمكن لك أن تغامر وتبدأ بقيادة السيارة في الشارع، بدون وجود الكثير من المرور. والمرحلة الثالثة بعد ذلك يمكنك فيها قيادة سيارتك في مدينة كبيرة، وعلى الطرق السريعة.

هذه بمثابة الأسس التي يمكن من خلالها تعلم أسس النظرية الاجتماعية. وكما ذكرنا في السابق، يوجد القليل من المتخصصين المرشحين لتدريس هذا النوع من

المعرفة، مثل كتاب "دور كايم" المعنون "قواعد المنهج في علم الاجتماع"، والفصل الأول من كتاب "ماكس فيبر" المعنون "الاقتصاد والمجتمع".

وحتى إذا كان ذلك هو الحال، كيف يمكنك أن تسير في تعلم أسس النظرية الاجتماعية حتى تتجذر بعمق في عقلك وتفكيرك؟ هلي عبر التدريبات العملية؟ وإذا كان ذلك هو ما يحدث بالفعل، فهل يمكن للشخص أن يبدأ بما (في هذا المثال) يقوله "دور كايم" و"فيبر"؟، البدء بتعلم الفكرة، ثم إتقانها بعد ذلك، حتى تستطيع التعامل مع المواقف الصعبة والمركبة.

يجب أن تفكر في القضايا المناسبة بنفسك، باستخدام توجيهات ومنهجية كلا من "فيبر" و"دور كايم"، وبعد قيامك بذلك لبعض الوقت، سوف تصبح قادرا على تناول مثل هذه الأفكار الأساسية بشكل حدسي وتلقائي.

ولا توجد إجابات سهلة عن هذه الأسئلة، ومع ذلك يبدو لي من المهم أن لا نتوقف عن تناول أسس العلم الاجتماعي والتفكير فيها بشكل مستمر، لأنه لا يوجد إجماع على هذه الأسس، ومن ناحية ثانية تبدو هذه الأسس غير ثابتة بالتحديد. على سبيل المثال، أفكار كلا من "دوركايم" و"فيبر"، تؤكد على وجود فصل بين علم الاجتماع والبيولوجيا، بطريقة ليست ضرورية أو مطلوبة اليوم. وكلاهما وضعا نظرياتهما قبل أن توجد مجموعة من العلوم، مثل علم النفس المعرفي وعلم الأعصاب Neuroscience.

وأيضا، كيف يمكن الربط بين نوع المعرفة الأساسية و"الاجتماعي" بالبحث الواقعي والممارسات والتدريبات العملية؟ هلي من المفيد للطلاب دراسة النظرية، وفي نفس الوقت يقومون بإجراء عدد من المشروعات البحثية؟ أو هل من الأفضل استخدام التدريبات العملية؟ وإذا كان ذلك الأفضل فما هو شكل التدريبات المناسبة؟

بينما تعتبر الأسئلة السابقة، أسئلة صعبة، إلا أنه يجب توضيح أن نشاط التفكير عبر أساسيات النظرية الاجتماعية بأسلوب بطيء ودقيق يكون مفيدا جدا، ولا يجب مناقشته فقط كأسلوب للتفكير. وتوجد حاجة ماسة إلى ممثلين من العلوم الاجتماعية للمشاركة والتعبير عن رأيهم في هذا النوع من القضايا. وإذا تم تنفيذ ذلك، ومعرفة كيفية التنظير في العلم الاجتماعي، يمكن أن تصبح بالفعل خبيرا عاما متاحا للجميع للاستفادة منك.

وعلى العكس من كيفية تنمية العين السوسيولوجية، يبدو من السهل كثيرا إبراز ما تحتاج إلى فعله، لكي تكتسب محزونا هاما من المفاهيم والآليات والنظريات. وبجانب ما قيل عن بعض الأعمال التي تحتوي على عدد كبير من

المفاهيم والنظريات، والتي يجب قراءتها، يكون من المفيد أيضا الاطلاع على العلوم الاجتماعية المتقاربة والفلسفة، من حين لأخر وكذلك العلوم الطبيعية. وبهذه الطريقة يمكن لك أن تلتقط الأفكار الجديدة والهامة، التي توجهك إلى أفكار العلم الاجتماعي بطريقة مبسطة وسهلة نسبيا.

تراث النظرية وتراث التنظير

وعلى الرغم من أن هناك كثير من المعلومات والكتب المفيدة اليوم عن النظرية، إلا أن هذا التراث يبدو أقل أهمية وفائدة للباحثين المهتمين بتعلم كيفية التنظير. وفي الكثير من المقررات الخاصة بالنظرية الاجتماعية اليوم، يتم الاعتماد على عدد من المقالات والكتب البعيدة إلى حد ما. وبعض منها يركز على التراث الكلاسيكي للنظرية، والبعض الأخر يتناول النظرية بوضوح، والبعض يلخص فروع ومسارات النظرية الاجتماعية (أي مراحل تطور النظرية الاجتماعية)، والتي تمثل تاريخ الفكر الاجتماعي، وما شابه ذلك من تاريخ الأفكار.

ومن خلال إعادة التفكير فيما يمكن ضمه لتدريس النظرية الاجتماعية، يمكن القول إنه من المناسب، عندما يكون القارئ شخص مهتم بشكل أساسي بتعلم كيفية التنظير، وأن يتم تناول النظرية والتعامل معها بروح مختلفة، عن ما ينفذ اليوم. ومثلما يكون من المهم تعلم نظرية ما، يكون أيضا من المفيد تعلم شيئا عن الأسلوب الذي عمل به المؤلف لإنتاج نظريته (انظر على سبيل المثال: Heilbron 2011).

وقدر ما من الهندسة العكسية، يبدو مفيدا وتعليميا، فليس من المفيد فقط أن نقرأ النسخة النهائية من مقال أو كتاب معين، ولكن أيضا نقرأ النسخ والإصدارات الأولي. وهذا النوع من المادة يكون موجودا في شكل ملاحظات ورسائل أو دراسات عن كيفية ظهور العمل ونشره. على سبيل المثال: نحن نعرف القليل إلى حد ما عن ظهور كتاب "الديمقراطية في أمريكا" (*Democracy in America*) ونشره، و"توكفيل" Tocqueville وصف بحثه في رسائل عديدة لأعضاء أسرته، وكتب العديد من الملاحظات، وقام بالعديد من التعديلات في النص النهائي.

ومن أجل تعلم كيفية التنظير بشكل فعال، يكون من المهم وجود تراث قوي للتنظير، وهو شئ ليس موجودا حتى الآن. وبينما يكون صحيحا القول بأن التنظير والنظرية ينتميان لبعضهما البعض، وأنهما يكملان بعضهما البعض، إلا أنه دوما هناك تجاهل شديد للتنظير في العلوم الاجتماعية المعاصرة، وهذا يحتاج إلى التطوير. وبينما الدراسات عن النظرية والتنظير متداخلة، إلا أنها ليست متطابقة.

ولقد ذكرت في هذا الكتاب، أكثر من مرة، ما اعتبرته الموضوعات الرئيسية، التي يجب تناولها وتغطيتها في فن التنظير الإبداعي. وأبرزت موضوعات مثل الملاحظة وتكوين المفاهيم، وكيفية استخدام التشابهات، وكيفية التوصل إلى التفسير، وهكذا.

إلا أنه من الممكن لأي باحث أن يتناول التنظير من زاوية أخرى، والإكثار من الكتب والمقالات التي تشكل ما يطلق عليه "تراث التنظير". وفي المرحلة الحالية قد يكون ذلك سابق لأوانه، وما هو متوفر مجرد قائمة صغيرة جدا. وبالنسبة لهؤلاء الذين يريدون قائمة للكتب والدراسات، أنا وضعت قائمة في الجزء الخاص بالمراجع في نهاية هذا الكتاب، وإذا أصبح التنظير موجودا ومنفذا في العلوم الاجتماعية، فسوف تنمو هذه الدراسات بشكل سريع وكثيف، وبما يدعو للتفاؤل.

٩

الفصل التاسع
الخيال والفن

الفصل التاسع *
الخيال والفن

الخيال يمكن أن يضيء الفتيل الضعيف
إيميلي ديكنسون
Emily Dickinson (1)

بينما يعتبر من غير الممكن أن تُنظر جيدا دون معرفة جيدة بالنظرية، فإن الطريقة التي تتناولها في التعاطي مع هذه المعرفة النظرية على قدر كبير من الأهمية. فالنقاش الدائر بشأن طبيعة الطريقة التي ينبغي أن تستخدم بها النظرية، لابد وألا تنفصم عن الآلية التي يجب مراعاتها في عدم الإستعانة بها.

تنعدم الجدوى عند إقحام النتائج في بعض النظريات القائمة. هذا ليس فقط سيحول دون أصالة محتملة لنتائج الأبحاث بشكل مهني، وإنما أيضا من الصعوبة بمكان تنفيذ مثل هذا الإجراء (يكون هذا مجديًا في الممارسة، وليس على المستوى النظري).

وبالمثل، من الخطأ وضع مسمى بعينه على بعض الظواهر الاجتماعية، والاعتقاد بأن هذا المنحى هو الذي يشكل نظرية، وهي ليست كذلك لأن تكوين نظرية كاملة يتطلب أكثر من وضع اسم عليها؛ فالنظرية بناء يتشكل من مجموعة من المفاهيم، والتفسيرات...وما إلى ذلك

تستخدم بعض المفاهيم النظرية بشكل كبير في الأغراض الارشادية، ولكنها تشكل عقبات إذا ما تم الاستمرار في اتباع هذا المنحى الارشادي، حتى بعد تنفيذ هذه الوظيفة. كما أن النظرية الارشادية ليست نظرية مثبتة علميًا، ومن المفترض أن يدفعك هذا النمط من النظريات في المضي قدما، ولكن ليس من أجل أن تكون النظرية نهائية.

وثمة عدد آخر من الأخطاء الشائعة في التعامل مع النظرية، وتكمن الكثير من هذه الأخطاء في النظرية التي يتم تدريسها بطريقة ميكانيكية و/ أو تقليدية،

---

* ترجم هذا الفصل الدكتورة نيفين زكريا محمد أمين.

وبدون استيعاب دور النظرية على مستوى التنظير. ولقد أدرجت قائمة ببعض الأخطاء النمطية، ولكن لا شك أن البعض الآخر من هذه الأخطاء لا يزال قائمًا.

بعض الأخطاء الشائعة في التعامل مع النظرية:

١- تركيز كل الانتباه على الأدوات المنهجية، واعتبار أن النظرية هي الجزء السهل والتي يمكن دائما إصلاحها لاحقًا.

في الوقت الذي يتم فيه التركيز على الأدوات المنهجية وجمع البيانات وتأخذ الكثير من الوقت، فإنه يمكن الاستغناء السريع عن الجزء النظري.

٢- لا حاجة إلى التنظير؛ فالنذر اليسير بالمعرفة النظرية يعد كافيًا.

سوف تنبثق النظرية في رأسك بشكل حدسي. فلا توجد حاجة للعمل على النظرية، ولا حجم النظريات التي تكون على دراية بها.

٣- إبدأ بالتفكير في النظرية، وذلك في أعقاب إجراء البحث الامبريقي

بمجرد أن يتم إجراء البحث، وقد تحول مجمل الأمر إلى شيء مخيب للآمال إلى حد ما، يحين الوقت للاستعانة ببعض النظريات لإضفاء نكهة على البحث برمته. (والمجلات العلمية تريد من الباحث إدراج بعض النظريات، وتحديدًا في مستهل ونهاية الدراسة العلمية).

٤- بمجرد ظهور النتائج، عليك فقط لصق ملصق عليها أو إدخال بعض التصنيف.

لصق تصنيف على نتائج بحثك أو تصنيفها بطريقة ما. ويشكل هذا تحليلًا كاملًا، وليس هناك حاجة للتفسير.

٥- وضع النتائج الخاصة بك في بعض النظريات القائمة.

في الوقت الذي يتم فيه الانتهاء من البحث، يتم البحث عن نظرية من شأنها أن تفسر النتائج. ضع في اعتبارك أن النظريات القديمة غير محفزة في مقابل الأخرى الحديثة الأكثر امتاعًا. مهما كانت النظرية لا تفسر النتائج، فقط قم باستبعادها بطريقة علمية احترافية.

٦- إجراء البحث للتأكيد على صحة النظرية التي ترغب في ادراجها.

اختيار نظرية بعينها في البحث هي علامة مؤكدة على كونها نظرية صحيحة. وبالتالي، فهي فكرة جيدة للقيام بالبحث للتأكيد على كون النظرية صحيحة.

٧- الإعجاب بمنظرين عظماء وإجراء البحث للتأكيد على أفكارهم.

بعض المنظرين يتمتعون بجاذبية خاصة تدفع الباحثين لإدراج نظرياتهم، ولكنهم لا يقدمون أدلة تجريبية مما يجعل مهمتهم تتمثل في إثبات أنهم على حق.

٨- استخدام المفاهيم الإرشادية والنظريات كما لو كانت تؤكد نتائج البحوث.

تأكد أن كل المفاهيم والنظريات الإرشادية ينبغي أن يتم اختبارها بشكل امبريقي، وعليه، ينبغي استبعادها إذا لم تكن قابلة للاختبار. من خلال المتابعة بهذه الطريقة، على سبيل المثال، يمكنك أن تظهر أنك أذكى من النظريات الكلاسيكية.

٩- تجميع أجزاء من النظرية دون تقديم أي ارتباطات بالواقع الامبريقي.

تعد النظرية لعبة مفاهيمية وتعليمية، يتم لعبها من خلال محاولة تجميع الأفكار النظرية لعدد من المفكرين بطريقة مبتكرة.

١٠- بعض المنظرين عظماء- فقط قم بتكرار ذكر أفكارهم النظرية

لا حاجة للتنظير، أو للقيام بالبحث-فقط قم بتكرير وإعادة صياغة ما يطرحه علماء الاجتماع الأوائل العظماء. بينما مثل هؤلاء العلماء يعدوا عظماء، فيمكنك -من خلال تطبيق هذا الإجراء- أن تكون مثلهم.

كيف لنا أن نمضي قدما بعد ذلك؟ في الفصول السابقة، تم اقتراح بعض القواعد أو الخطوات بشأن كيفية التعاطي مع فكرة التنظير، كما تمت مناقشة الممارسات العملية وكذلك النصائح الارشادية. ومن خلال هذا الفصل، سيتم التركيز على قضية آخرى، ألا وهي الخيال. ومهما كان عمق معرفتك الأساسية بماهية النظرية الاجتماعية، ومهما كانت درايتك بالمزيد من التصورات النظرية، والآليات، والنظريات إذا لم تكن المعرفة المستخدمة بشكل تخيلي، فإن النتيجة ستكون غامضة تقليدية غير إبداعية في نفس الوقت.

وإلى جانب الخيال، سأذكر شيء ما حول علاقة النظرية الاجتماعية بالفن. ثمة العديد من الأسباب للربط بينهما، تتضمن حقيقة مفادها أنه ينظر للفن على أنه ذروة الخيال والإبداع. والسبب الآخر، ومن خلال الإشارة إلى صياغة هانز زيتربرج، بما مفاده أن "الفن هو جزء لا يتجزأ من كل شيء" Zetterberg (2010). هذا، حيث أزعم، يشمل أيضا التنظير.

ما هو الخيال؟

عندما يحاول الفرد أن يفهم الجوانب المختلفة للتنظير، فمن أهم العلوم التي عادة ما تعيننا هو أن نعرف ماهية علم المعرفة. هذه المعرفة المطلوبة، على سبيل المثال، تسهم في التعرف على قضايا مثل المفاهيم التصورية، والذاكرة، وعلم التناظر. ولسوء الحظ، فإن إنتاج علماء المعرفة للبحوث العلمية فيما يتعلق بالخيال ليس كافيًا.

يمكن للفرد أن يناقش لماذا يكون وضع البحوث هكذا. ومن المحتمل أن يرجع السبب إلى أنه لا توجد تقاليد قوية في علم النفس من شأنها دراسة الخيال، وقد يتواجد شيء ما ذا صلة بعلم النفس السلوكي، ولا يهتم بالظواهر العقلية الخالصة.

وعندما يصل الأمر لعلم النفس المعرفي الحديث، فعلى العكس تماما، ويبدو أنه توجد أبحاث قليلة على الخيال، وذلك لسبب بسيط يكمن في أنه لم يتم النظر إلى هذا الموضوع باعتباره هامًا للدراسة بشكل خاص. وعندما تم دراسته، تم اختيار مقاربة آلية (ميكانيكية) إلى حد ما في التعامل معه.

وفي مجال علم النفس المعرفي، غالبا ما يتم النظر إلى الخيال باعتباره شكلًا من أشكال المحاكاة. وغالبا ما يتم استخدام مصطلح المحاكاة العقلية، وتكمن الفكرة الرئيسية في أنه عندما تتخيل شيء ما، فكأنك تجري نموذجًا من المحاكاة في عقلك (انظر على سبيل المثال: Kahneman and Tversky 1982; Markman et al. 2009).

ومن منظور التنظير في العلوم الاجتماعية، فهذه المقاربة لا تعد كافية، فالتنظير في حاجة إلى منظور أكثر إيحائية للخيال. يمكن لهذه المقاربة، من وجهة نظري، أن توجد في الأدب الفلسفي. كان الخيال، على سبيل المثال، مفهوما رئيسًا في فلسفة كانط، وهو المفهوم الذي يمثل، وفقًا لبعض المعلقين، واحدًا من أهم الاسهامات الهامة في تشكيل نظرية العقل (انظر على سبيل المثال: Arendt 1992: 80).

من الصعوبة بمكان تلخيص وجهة نظر كانط بخصوص الخيال. وتتمثل إحدى الطرق في تناوله في أن الخيال يعد ضرورة، ليس فقط بالنسبة للفن، ولكن أيضًا بالنسبة للمعرفة. فيزودنا الخيال بتوحيد العديد من الانطباعات التي تقدمها لنا حواسنا. فالخيال يقوم بذلك من خلال الفعل الذي يقوم بعمليات التشكيل والتجميع. ومن منظور فكرة كانط عن التنظير فإن الخيال يعد ضروري وجزء عضوي لإنتاج المعرفة، والذي من المحتمل أن يكون الأكثر إيحائية.

وتتوافر أيضًا نظريات أكثر حداثة عن الخيال في الفلسفة، مثل نظريات "جون ديوي"، وجان بول سارتر. بينما لم يطور "جون ديوي" نظرية كاملة عن الخيال، فالكثير من الأفكار الممتعة والإيحائية يمكن إيجادها بأعماله (انظر على سبيل المثال: Dewey 1934a, 1934b، وانظر أيضا: Chambliss 1991).

ووفقًا لإحدى هذه الأفكار، فالخيال ليس ملكة مميزة أو شيء ما يملكه الفنانون فقط. الخيال هو القدرة العامة لدى كل فرد على أن يرى الأشياء فيما يتعلق بالاحتمالات. وباعتباره براجماتيًا، أكد ديوي على أن تكون هذه الاحتمالات واقعية، وهو ما يشكل اختلافًا جليًا بين الأفكار الخيالية والحالمة من جهة، وبين التخيل من جهة أخرى. فبينما تختص الأفكار الخيالية حصريًا بخبرتك الداخلية، فإن الخيال يربط بين الخبرة الداخلية والخارجية في شكل من أشكال التفاعل الاجتماعي.

وعني جان بول سارتر منذ البداية بالخيال، وقدم نظريته الأصلية في هذا الشأن، في كتاب يدعى الخيالي The Imaginary (١٩٤٠). وتعد مقاربة بالغة الإيحائية ويمكن استخدامها ليس فقط للأغراض الفلسفية، ولكن أيضًا إلى حد ما لخدمة أغراض العلوم الاجتماعية.

وتمثلت إحدى طموحات سارتر في كسر التقاليد الجامدة في الفلسفة لرؤية الخيال المتعلق بالصور الإدراكية. أراد سارتر أن يقوم بتطوير نظرية أكثر اتساعًا، وكجزء من ذلك، قدم مصطلح "النظير". فالتناظر هو موضوع يحفز الخيال كما يذكر، في طريقة تصوير شخص ما بصورة تجعلك تفكر في هذا الشخص.

ولهذه الفكرة صدي واضح على موضوع التنظير بطرق عدة. فالتناظر يجب أن يكون قادراً على إطلاق الخيال النظري لعالم الاجتماع. وعندما يكتب عالم الاجتماع، فإنه يرغب في الكتابة بطريقة تقلل من الخيال النظري للقاريء.

بينما يعد مفهوم التناظر مفهوماً ممتعاً، يطرح سارتر أيضًا نظرية كاملة عن الخيال في كتابه "الخيالي" الذي يتسم بالجرأة والأصالة. ونمت أفكاره حول هذا الموضوع من قراءته في حينه كتاب" ***الوجود والزمان***" "Being and Time" لهيدجر. وفي الوقت الذي ادعى فيه "هيدجر" أن كل شيء يمكن تقليصه إلى كينونته، لا يقبل سارتر مثل هذا الإدعاء، ويرجع السبب بدقة إلى أن إدعاء "هيدجر" لا يضع في الاعتبار دور الخيال. الخيال هو ما يسمح للبشر بالتخلي عن الوجود الذي لا يعدوا جزءا لا يتجزأ منه، وتخيل نوع آخر من الوجود، وهذا الوجود "المفترض" هو الذي لا يوجد في الواقع. "إذا كان من الممكن أن نتصور للحظة وعيًا لا يتخيل،

سيكون من الضروري تصوره باعتباره غارقًا تمامًا في الوجود، وبدون إمكانية استيعاب أي شيء آخر غير الوجود" (Sartre 2004: 187).

وهذا يعني أنه لأن البشر لديهم ملكة الخيال، فإن لديهم أيضًا طريقة للتساؤل عن الواقع الحالي، وعليه فيمكنهم الحكم على ما هو موجود من خلال مقارنته بما هو غير موجود. إن الارتباط بين عمل سارتر الخاص بالخيال وفلسفته اللاحقة عن الوجودية في "الوجود والعدم" يعد واضحًا. "وهذا لأننا أحرار بشكل متعالي على نحو يجعلنا نستطيع أن نتخيل" (Sartre 2004: 186).

وفي عمله الوجودي اللاحق، ذهب سارتر إلى الادعاء بأن البشر محرومون من الحرية ومسؤولون عن افتقارهم لهذه الحرية. وقد تراجع سارتر في وقت لاحق عن هذا الموقف، وادعي أن البشر ليسوا مسئولون عن وضعهم. ووفقًا لكتابات سارتر الأخيرة، هناك المزيد للحصول على الحرية، والافتقار إلى الحرية أكثر من الحالة الوجودية للإنسان.

ومن خلال ما ذكره سارتر بشأن الحرية والوجودية، فمن الجلي أن مفهومه عن الخيال يحتاج إلى حكم كفء على نحو ملائم، وذلك من أجل أن يصبح وظيفيًا. فلا يزال هذا المفهوم يرتكز على فكرة، على قدر عال من القوة، والتي تعد أكثر إيحائية من أفكار التصوير الذهني، والمحاكاة العقلية. ويمكننا أن نلاحظ أيضًا، بالتوازي مع الخطوط التي اقترحها كل من كانط وسارتر، كيف يمكن أن يفسر الخيال مفاهيميًا باعتباره قوة عقلية تقبع خلف مفاهيم مثل الحقائق المغايرة، والمدن الفاضلة، وحتى مفهوم النظرية في حد ذاته.

وثمة فكرة أخرى أكثر إمتاعا في التراث الأدبي والفلسفي تتمثل في التمييز بين الخيال والوهم. ففي صيغة "كولريدج" الأكثر شيوعا، يشير الخيال إلى ما يقوم العقل بجمعه بطريقة أصلية ومبتكرة، في الوقت الذي يستند فيه الوهم على التجميع الزائف غير المبتكر (Coleridge 1967; cf. Engell 1981).

ويعد "كارل ويك" أحد علماء الاجتماع الذين اختاروا الخيال في مقابل الوهم. أحد الأمثلة عن الخيال، كما يذكر، هي فكرة بيجاسوس Pegasus، والتي هي نتيجة لمزيج ميكانيكي من حصان ومجموعة من الأجنحة (Weick 2003). على النقيض من ذلك، يمكن أيضًا إضافة الوحوش التي يمكن العثور عليها في لوحات هيرونيموس بوش.

ويبدو التطبيق على استخدام خط ويك في جدل النظرية الاجتماعية إيحائيا، حتى لو لم يكن واضحا كما يتمنى الفرد. فما نريد أن نتجنبه، يبدو هو ذاته ما

يذكره ويك، وهو الإضافة الميكانيكية لمفهوم أو نظرية إلى مفهوم آخر أو نظرية أخرى. فأنت لا تريد أن تضيف نظرية إلى مادة إمبريقية على نحو مصطنع. ويكون التنظير التخيلي الصحيح واقعيًا عندما يندمج المفهوم أو النظرية من ناحية، مع الموضوع من ناحية أخرى بشكل مبدع وأصيل-كما الحال في الشخصيات الشريرة التي يبدعها هيرونيموس بوش.

كيف تدرب خيالك

على افتراض أن المنظر يكون في حاجة ليس فقط إلى معرفة النظرية الاجتماعية، ولكن أيضًا الحاجة أن تكون لديه القدرة على استخدامها بشكل خيالي، كيف يمكن التدريب على هذه القدرة؟ وقد يبدو هذا السؤال عصيًا على الإجابة، إلا أن العديد من علماء الاجتماع قاموا بذلك، ونحن سوف نتعامل بناءًا على إجاباتهم.

ويعد "رايت ميلز" هو الرائد الأول في هذا السياق، حيث يمكن أن نعثر على آرائه في كتابه المعنون الخيال السوسيولوجي The Sociological Imagination. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب تتم الإشادة به في معظم الأحيان وبشكل اعتيادي، مما أدى إلى إجراء أبحاث قليلة تخص موضوعه الرئيسي، والذي يتمثل في دور الخيال في علم الاجتماع وكيف يمكن إثراؤه.

يعرف "رايت ميلز" الخيال: بأنه القدرة على تكوين تركيبة غير متوقعة، وهي حجة تذكرنا بتعريف "شومبيتر" للابتكار على أنه إنتاج تركيبة جديدة من المواد الموجودة بالفعل. ويستخدم الخيال، كما يذكر ميلز، لوضع الأشياء معًا. "جوهرها هو هذا المزيج من الأفكار التي لم يكن أحد يتوقع أنه يمكن الجمع بينها- كما يستطرد- باعتبارها فوضى أفكار من الفلسفة الألمانية والاقتصاد البريطاني" (Mills 1959: 211).

ويزود "ميلز" القارىء أيضًا ببعض النصائح العملية الخاصة بكيفية أن تصبح العلوم الاجتماعية أكثر خيالية. ويدعي أنك لا يمكن أن "تدرب" نفسك أن تكون أكثر خيالية، ويرجع السبب في ذلك إلى أنه يمكنك فقط أن تستطيع تدريب نفسك على "ما هو معروف بالفعل" (Mills 1959: 212). لكن، ما يمكنك القيام به هو "زراعة" خيالك، وتقوم بذلك من خلال كونك لاعباً مستعداً للتعامل باستمتاع مع كل ما يبدو "واسعًا وغير محدد" (Mills 1959: 212).

في الملحق الشهير بعنوان حول البراعة الفكرية، يقدم لقارىء كتاب ميلز

قائمة من النصائح العملية لكيفية تنمية خياله الاجتماعي، "هناك" ميلز يكتب، "طرق محددة، كما اعتقد، لتحفيز الخيال الاجتماعي" (Mills 1959: 212).

وتتمثل الطرق التي يذكرها ميلز على النحو التالي:

- أن تتبارى وتضع كل الملاحظات الخاصة مع بعضها البعض.
- أن تكون مرحا مع الكلمات.
- أن تنشيء تصنيفات وتبويبات جديدة.
- أن تنظر إلى القضايا التي هي على النقيض مع ما تقوم بدراسته.
- أن تعكس إحساسك بالتناسب.
- أن تنظر إلى الحالات ذات الطابع المقارن.
- أن تكتب وتفكر في كل ما يتعلق بالقضايا والأفكار الرئيسة

(Mills 1959: 212-17)

كل نصيحة إرشادية من هذه النصائح السبعة في كتاب ميلز "الخيال السوسيولوجي" تم توضيحها بشكل مفسر في النص، وتستحق أن تدرس بشكل منفصل. وتكمن بعض نصائح ميلز في تقليد الفوضى الهزلية، على سبيل المثال اقتراحه بأنه عليك أن تعيد ترتيب الملفات الخاصة بك من خلال الطريقة الآتية: "فيمكنك ببساطة التخلص من المجلدات التي لم تعد تستخدمها، ودمج محتوياتها، ثم إعادة تصنيفها" (Mills 1959: 212).

وبعض من أجزاء النصائح الارشادية الأخرى لميلز تتسم بالمرح، مثل فكرة أن تعكس إحساسك بالتناسبات: "إذا كان هناك شيء متناهي في الصغر، فتخيل أنه ببساطة كبير، وإسأل نفسك: ما الفرق الذي سيحدث؟ والعكس بالعكس للظواهر الكبيرة." (Mills 1959: 215).

هل يمكن تنظيم المجتمع كشركة؟ هل يمكن تنظيم الشركة بإعتبارها مجتمعًا؟ هل تتحدث لشخص فرد بنفس الطريقة التي تتحدث بها لجمهور ذو أعداد غفيرة؟ أسئلة من هذا النوع يمكن توجيهها إلى كل طريقة من الطرق الارشادية السبع التي وضعها ميلز، والتي من خلالها يمكنك تدريب خيالك. يمكن أيضًا لمثل هذه الطرق أن توظف لخدمة التدريبات العملية، والتي قد تستحق التطوير.

تشكلت أيضًا محاولات التفكير في تشكل الخيال السوسيولوجي من قبل علماء اجتماع آخرين بخلاف ميلز. واحد من هؤلاء العلماء هو "إيفيرت سي هيوز"، والذي إدعى أن جوهر الخيال الاجتماعي يتشكل من الارتباط الحر. وغالبًا ما قام

هيوز باستخدام تقنية الارتباط الحر بنفسه، سواء في أثناء قيامه بالتدريس، أو من خلال قيامه بعملية التنظير.

فعندما استخدم هيوز الارتباط الحر في تدريسه، تمثلت النتيجة في شكل دقيق من المحاضرات، حيث اختلطت الحكايات المرتبطة بالمراجع بنتائج الأبحاث والنظريات (على سبيل المثال: (Weiss 1996: 543). وذكر "لويس كوزر"، والذي كان واحدًا من زملائه، كيف كان رد فعله في البداية تجاه طريقة هيوز في إلقاء المحاضرات.

لقد انتقل هيوز من الأحداث الكبيرة إلى ما يبدو كونها موضوعات صغيرة وعاد مرة أخرى–هذا كله في بضع دقائق صغيرة. فيجب أن تكون أذن المرء متناغمة بشكل وثيق مع طريقته الخاصة في الإلقاء. عندما سمعته (يحاضر) للمرة الأولى في شيكاغو في عام ١٩٤٨، ذكرت أن هذا الرجل كان مرتبكًا ومربكًا، وعندما سمعته للمرة الثانية، ذكرت أنه عبقريًا سوسيولوجيًا (Coser 1994: 8).

ووصف "هيوز" بنفسه الطريقة التي استخدم بها الارتباط الحر في بحثه. فالبيان التالي يأتي من مقدمة العين السوسيولوجية The Sociological Eye:

"في عملي، لقد اعتمدت كثيرًا على الارتباط الحر، وأحيانًا على حرية الارتباط التي يمكن أن تبدو مبالغًا فيها بالنسبة للمدافعين عن بعض المصالح الراسخة أو المشاعر العزيزة. يجب نسب الفضل لكتاب رايت ميلز الخيال السوسيولوجي. إن جوهر الخيال الاجتماعي يتمثل في الارتباط الحر، حيث يقوم الإطار المرجعي الداخلي بتوجيهه لا عرقلته إلى حد قريب في اللاوعي. يجب أن يعمل مثل هذا الارتباط حتى في أحلام الفرد، ولكن يكون هناك حيثما يتم استدعاؤه في الإرادة. عندما يقول الناس عن عملي، كما يفعلون في أغلب الأحيان، أنه يظهر البصيرة لا أستطيع أن أفكر ماذا يمكن أن يعني أكثر من انتاج يتسم بالجودة من جراء التركيز في الملاحظة، وتحريك العجلات لايجاد توليفة جديدة من المفاهيم القديمة، أو حتى انتاج مفهوم جديد. اعتقد أنه يمكنني إنجاز قراءتي من خلال الارتباط الحر: "أليس كل من زيمل، أو دوركايم، فيبر، ميد، أو مارشال، أو شخص ما ذكر أي شيء يتعلق بهذه النقطة؟ أقوم بقدر كبير من قراءتي من خلال البدء بهذا المؤشر" (Hughes 1948b: xvi).

منذ أن أصبح استخدام الارتباط الحر في العلوم الاجتماعية قضية من النـــادر مناقشتها، ينبغي أن نذكر أكثر من ملاحظة بشأنها. يرجع السبب الأخر في تفـــسير

هذا الموضوع في أن الارتباط الحر يمثل آلية نافعة عندما تحاول أن تقوم بعملية التنظير.

بينما قد لا يكون "فرويد" هو الذي اخترع تقنية الارتباط الحر، إلا أنه بالتأكيد جعلها آلية شائعة. فلقد استخدمها ليس فقط عندما قام بتحليل أحلامه، لكنه أيضًا شجع المرضى لديه أن يستخدموا الارتباط الحر كسبيل للوصول إلى جوهر مشكلاتهم التي يعانون منها.

تعد وجهة نظر "فرويد" عن الارتباط الحر هي الأكثر تركيبا وصعوبة، رغم إدعاؤه لها –في الغالب– بالبساطة. وفي الواقع، يتمثل ما قدمه مترجمه على سبيل المثال، فيما يتعلق بالارتباط الحر، في مصطلحين أساسيين: الارتباط الحر وحدوثه. بينما يشير الارتباط الحر إلى عنصرين أو أكثر من العناصر التي ترتبط بشكل واسع بعقل الفرد، يعني اصطلاح الحدوث تقريبًا الفكر المفاجيء والتلقائي.

ومن الواضح أن "فرويد" لا يرى الارتباط الحر بإعتباره نوع من الألعاب العقلية، التي من خلالها يمكنك أن تقول أي شيء يتبادر إلى ذهنك، عندما تفكر في كلمة بعينها. فهو ينظر إلى الارتباط الحر بشكل أساسي على إنه آلية تسمح لك أن ترتبط ب "الملاحظة الذاتية"، وتعمل هذه التقنية من خلال تزويدك بطريقة من خلالها يمكنك أن تتجاوز "الكلية النقدية" (Freud 1998: 132-33).

ومن أجل أن تصل بالمريض إلى مصدر ألمه/ أو ألمها، فمن الضروري وفقا لفرويد أن تحدث "تغييرين": "زيادة الانتباه الذي يضعه على تصوراته النفسية الخاصة به، والتخلص من الانتقادات، التي عادة ما تنقل من خلالها الأفكار التي تحدث له" (Freud 1998: 133). وبصيغة أخرى، ينبغي عليك أن تركز اهتمامك على نفسك، كما ينبغي عليك ألا تكون متحيزاً، لو أنك بصدد فهم ما يدور داخل نفسك.

كان فرويد يحب اقتباس مقاطع من "فردريك شيلر" حول موضوع الارتباط الحر. حيث ذكر الفيلسوف والشاعر الألماني عن طريق إزالة وضعيتك النقدية، فإنك لن تحصل فقط على بعض الأفكار التي قد لا تكون على علم بها، ولكنك أيضًا سوف تصبح أكثر إبداعًا.

ويمكن إيجاد مقطع "شيلر" الذي أشار إليه "فرويد" في خطاب قام بكتابته لصديقه، وفيه يشكو من كونه غير مبدعًا: "يبدو لي أن أرضية شكوتك ترتكز على القيد الذي يفرضه عقلك على خيالك ... ومن ناحية أخرى، حيث يوجد عقل مبدع، يريح العقل – وذلك كما يبدو لي – مراقبته لمداخل التفكير، وتتدفع

الأفكار في الجرس، وعندها فقط ينظر العقل إلى هذه الأفكار ويفحصها في كتلة" (Freud 1998: 135).

كيف ينظر علم النفس الحديث إلى الارتباط الحر؟ من خلال نظرة علم النفس الحديث إلى الارتباط الحر، فإنه رفض معظم أفكار "فرويد"، كما أنه اعترض أيضًا على نظريته الخاصة بالارتباط الحر كطريقة مميزة للوصول إلى العواطف الأعمق للبشر.

وفي مقاربة علم النفس الحديث للارتباط الحر، تم التأكيد على استخداماته المعرفية، مقارنة بالأخرى العاطفية. ووفقًا لما يدعى إختبار الارتباط عن بعد، على سبيل المثال، يعمل الارتباط الحر بسرعة كبيرة، والسبب في ذلك هو أنه لا يعتمد على قدرة الناس على التفكير.

ولكن توجد أيضًا بعض النتائج حول الارتباطات الحرة في علم النفس الحديث، والتي تعد إيجائية بالنسبة للمنظرين. قام "دانيال كانيمان"، على سبيل المثال، بوصف كم كان مندهش عندما اكتشف أنه وفقًا لبعض البحوث الحديثة، فإن الناس تكون في حالة أفضل في الارتباط الحر عندما يكونوا سعداء (Kahneman 2011: 67-70). فالمنظر الحديث، باختصار، ربما يستطيع أن يتعلم من كل من "فرويد" والعلم المعرفي.

الفكرة الخيالية

تعد الفكرة الخيالية طريقة ذات صلة للوصول للخيال، بل وممارسته، ويشار إليه أحيانًا باعتباره أحلام اليقظة والعقل السائر على الأقدام. ووفقًا لعلماء علم نفس المعرفة، فإن أحلام اليقظة هو نشاط شائع، ويمكن أن يشكل حتى نوع من الوضع الإفتراضي للعقل البشري (على سبيل المثال: Klinger 2009).

ويمكن إيجاد المثال المبكر والمدروس لاستخدام الفكرة الخيالية في العلوم الاجتماعية في عمل روسو، والذي كان مهتمًا بشدة بأي شيء قد يثير خياله. كانت إحدى الطرق التي تمكنه من تدفق أفكاره هو القيام بنزهة. يكتب روسو في سيرته الذاتية: "يمكنني التأمل فقط عندما أسير على قدمي. عندما أتوقف، أتوقف عن التفكير. عقلي يعمل فقط مع ساقي" (Rousseau 1953: 382).

أحب روسو أيضًا أن يفقد نفسه بطرق مختلفة، وخاصة في الطبيعة. وكانت إحدى وسائل التسلية المفضلة لديه هو الاستلقاء على ظهره في قاع القارب الذي كان ينجرف ببطء في اتجاه مجرى النهر...

من خلال الأفكار الخيالية لكل من يسير على قدميه منفردًا، يقول روسو إن واحدة من أسعد الأوقات كانت في خريف عام ١٧٦٥، عندما شارك غالبًا في هذا النوع من النشاط:

"كنت أتسلل وأذهب من خلال نفسي بمفردي في قارب جرفته إلى وسط البحيرة عندما كانت المياه هادئة؛ وهناك، أمدد نفسي طولا في القارب، واحول عيناي إلى السماء، وأسمح لنفسي أن ينجرف القارب ببطء ذهابًا وإيابًا مع الماء، وأحيانًا لعدة ساعات، سقطت في ألف حالة من الأفكار الخيالية المتخبطة، إلا أنها كانت أفكارًا مبهجة" (Rousseau 1992: 66).

اهتم عالم اجتماع آخر بشكل كبير بالفكرة الخيالية وهو العالم "جاستون باشيلارد"، وتمثلت خبرته الرئيسة في تاريخ العلم. بعد انتاج عدد من الدراسات الرائعة في مجال تخصصه الأكاديمي، في عشرينات وثلاثينات القرن العشرين، فاجأ باشيلارد زملاؤه الأكاديميين بنشر عدد من الكتب حول الفكرة الخيالية والشعر. ومن أمثلة هذه الدراسات الأسماء الآتية: الماء والأحلام Water and Dreams، شعلة الشمعة The Flame of a Candle، وشعر الفضاء The Poetics of Space.

ووفقًا لباشلارد، لكل من العلم والشعر جذوره في الفكرة الخيالية والحلم، ولكن يتم تنفيذ الدافع الإبداعي بطرق عديدة. ويكمن السبب الهام للعالم كي يكون واعيًا بكنه الفكرة الخيالية، إلى جانب مغازلة قواها الإبداعية، هو أنه ما لم يتم التحقق من الخيالية، فإنها ستقود العالم إلى الخطأ.

في حجته حول أخطار الفكرة الخيالية، يحاكي "باشلارد" آراء عددًا من المفكرين، حيث قام كل من "كانط" و"فيبر"، بتثمين التخيل، لكنهم أيضًا شعروا أن الخيال يحتاج إلى أن يكون منضبطًا من قبل العقل الواعي. وتميل الأشياء إلى التدفق معا في فكرة خيالية، وخاصة المفاهيم التي يصعب تصورها.

واتخذ بعض علماء الاجتماع الحداثيين موقفا مماثلا مثل كانط وفيبر (على سبيل المثال: Weick 1989). ومن وجهة نظري، تحاملت مجمل آراء هؤلاء العلماء على الفكرة الخيالية، والتي تلعب دورًا هامًا في مجال التنظير. من خلال الابتعاد عن المعاني الراسخة، يتم في بعض الأحيان اكتشاف معان جديدة، حيث تلعب القواعد المنضبطة دورًا محدودًا في مرحلة مبكرة من التنظير؛ في حين يكون دورها أكثر أهمية في مرحلة لاحقة.

الفن والتنظير

ينظر إلى الفن بإعتباره مجالًا يتم من خلاله ممارسة الخيال بشكل أكثر حرية من أي مجال آخر في المجتمع الحديث. وإلى المدى الذي يعد هذا الكلام صحيحًا، فمن الواضح أن ذلك هو نتاج الإدارة المؤسسية الخاصة، وهذا يأخذني إلى ملاحظتي الأولى بشأن العلوم الاجتماعية وعلاقتها بالفن. وهذا يعني أنه ينظر إلى الفن والعلم بإعتبارهما ثقافتين منفصلتين في المجتمع الحديث، ولكن لا يمكن تجنب بأي حال من الأحوال تلازم طبيعة كلا منهما معًا.

يمكن ذكر نفس الكلام فيما يتعلق بوجهة النظر التي تقول أن الفن هو المجال الذي يشمله المجتمع بإمتياز، حيث يمكن التعبير عن نفسك بحرية واختبار الأشياء بشكل ذاتي. وعلى النقيض من ذلك، وفيما يتعلق بالموضوعية والفكر التحليلي، عليك أن تذهب إلى مكان آخر – ألا وهو العلم.

وبالإتساق الكبير مع مفهوم الثقافتين المنفصلتين، ثمة فكرة مفادها أن وضع كل من الفن والعلم مع بعضهما البعض يعد مشروعًا مثاليًا بشكل أساسي. وربما قد كان ذلك ممكنًا القيام به أثناء عصر النهضة، كما يتضح ذلك في عمل هؤلاء العباقرة أمثال برونيلشي، وليوناردو دافنشي. إلا أن هذه اللحظة التاريخية ذهبت منذ زمن طويل، ولن تعود مرة أخرى.

إن الفكرتين المتعلقتين بالفن باعتباره مجالاً منفصلاً، أو بإعتباره تجسيدًا للإبداع والذاتية من شأنه أن يحول دون حدوث تفاعل بين العلوم الاجتماعية والفن. في رأيي، يجب النظر في العلاقة بين الفن والعلوم الاجتماعية من منظور مختلف، وإعادة تعريف هذه العلاقة بطريقة من شأنها أن تجعل علماء الاجتماع يشرعون في البدء بالتعلم من الفن.

تتردد فكرة التعلم من الفن بقوة مع ملاحظات "فيتجنشتاين" النقدية حول كيفية رؤية الفن في وقته:

"يعتقد الناس في هذه الأيام أن العلماء يعيشون من أجل توجيههم؛ والشعراء، والموسيقيين، وغيرهم من أجل إضفاء البهجة عليهم. تكمن الفكرة في كون هؤلاء العلماء لديهم ما يعلمونه للآخرين، والذي لا يخطر على بالهم" (Wittgenstein 1980: 36e).

يمكن أن تأخذ محاولة تغيير العلاقة المؤسسية بين الفن والعلوم الاجتماعية الكثير من الأساليب التعبيرية. على سبيل المثال، يمكن لأقسام العلوم الاجتماعية أن

تقرر أن تعين فنانين في كليتهم، ويمكن أن يطلب من طلاب العلوم الاجتماعية حضور حصص في مجال الفن. عندما يبحث علماء العلوم الاجتماعية عن مكان يعيشون فيه، من الممكن أن يختاروا مكان به العديد من الفنانين، وهكذا.

غالبًا ما يتم الإدعاء بأنه لا يمكنك تدريس العملية الإبداعية. ولكن أيضا ثمة حقيقة مفادها أن المدارس الفنية قد تحاول أن تفعل ذلك بشكل دقيق، ومنذ وقت طويل جدًا. قد يوجد شيء ما يمكن تعلمه من هذه الخبرة، والاعتياد على إعادة تصميم الطريق الذي تسلكه حاليًا العلوم الاجتماعية.

هذا وقد اقترح جيمس جي مارش بعض الطرق الأخرى لاستخدام الفن من أجل جعل علماء علم الاجتماع أكثر خيالية، أو "جعل الفنانين خارج إطار الحذلقة والإدعاء" كما يدعي (March 1970). وتتمثل إحدى اقتراحاته في أنه ينبغي أن تصمم المحاولة لجذب نمط مختلف من الطلاب للعلوم الاجتماعية مقارنة بأولئك الذين ينجذبون تقليديا نحو هذه العلوم.

ينبغي أن يكون نمط الطلاب الذي يرغب مارش في التحاقهم بالدورات في العلوم الاجتماعية، من بين أشياء أخرى، أن يكونوا مهتمين جدًا بالتفكير التحليلي المجرد. لكن ذلك لا يكفي؛ يجب أن يهتموا أيضًا بتطوير موقف فني لما يفعلونه. وسبب ذلك، وفقًا لمارش، مرتبط بشكل كبير بنمط الفكر المطلوب إحداثه لإنتاج علوم اجتماعية إبداعية:

أعتقد أنه بإمكاني تلخيص التركيز الرئيسي هنا ببساطة: هو تطوير فن التفكير بطريقة تحليلية عن العلوم الاجتماعية. إن التركيز على التحليل كشكل من أشكال الفنون ليس فارغاً، ويهدف إلى إيصال أهمية الإثارة الجمالية، والخيال الإبداعي، والاكتشاف غير المتوقع الذي يمكن العثور عليه في ابتكار نماذج في العلوم الاجتماعية (March 1970: 65).

وفقًا لما يقوله "مارش"، يمكن إضافة أنه من الممكن أيضًا استخدام الفن في ممارسات عملية تهدف إلى زيادة مهارة التنظير. ويتمثل الغرض الرئيس من هذه التدريبات في جعل الطلاب من العلوم الاجتماعية على دراية بأن لديهم الكثير لتعلمه من الفن. يوجد حاليًا فرق كبير في المهارات التي من خلالها يراقب علماء العلوم الاجتماعية، من ناحية، والفنانين، من ناحية أخرى، الواقع ويعبرون عنه. ويمكن أن تكون التدريبات العملية طريقة واحدة لتضييق هذه الفجوة بين العلماء والفنانين.

أسلوب الكتابة

اختلف عدد قليل من علماء الاجتماع على شكل معين من أشكال الفن من المحتمل أن يكون ذا فائدة كبيرة في إعادة تنشيط علم الاجتماع. ويتمثل هذا الشكل الخاص في الأدب، والحجة أن لدى علماء الاجتماع الكثير لتعلمه عندما يتعلق الأمر بلغة الشعراء والروائيين. فعلى سبيل المثال، جادل العديد من علماء الاجتماع في الشعر الاجتماعي بشكل أو بأخر. وقد لوحظ أن الطريقة التي يكتب بها علماء الاجتماع، غالبًا ما تكون مملة إلى درجة أن تكون بلا تعبير.

بعض التدريبات في الفن وفي العلوم الاجتماعية

١- حدد ما يمكنك التعبير عنه من خلال بعض أشكال الفن، مثل الطباعة والتصوير الفوتوغرافي، والرقص، والموسيقى وما إلى ذلك، بحيث أنه لا يمكنك التعبير عنها من خلال العلوم الاجتماعية.

٢ – إتبع نفس الشيء من أجل العلوم الاجتماعية، ولكن هذه المرة ركز على مزاياها فيما يتعلق بشكل الفن.

٣- اقترح بعض الطرق التي يمكنك من خلالها جعل العلوم الاجتماعية تعبر عما تفعله بعض أشكال الفن بشكل أفضل.

٤- افعل نفس الشيء، لكن الآن بالنسبة إلى الشكل الفني: كيف يمكنك تغييره بحيث يعبر عن بعض ما تفعله العلوم الاجتماعية بشكل أفضل؟

٥- كرر كل هذا، لكن هذه المرة يجب عليك أيضا تنفيذ نوع فني في أي شكل أدبي تتم مناقشته.

٦ – ناقش بيان "نيل جيني" ومفاده أن "الفن علم اجتماعي".

ملاحظة: لتقديم الدافعية من هذه التدريبات، أتقدم بالشكر "لأندريه جلاسر"، و"سوزان عثمان".

وفقًا "لأندرو آبوت"، في مقاله الذي يدعو إلى "علم الاجتماع الغنائي"، يحتاج علماء الاجتماع إلى أن يصبحوا أفضل بكثير في التعبير عن العواطف بكتاباتهم (Abott 2007). هناك العديد من الانتقادات الأخرى لنوع اللغة غير المتجددة الذي غالبًا ما يستخدمه علماء العلوم الاجتماعية، مصحوبًا بدعوات "الاستعارات الشعرية في علم الاجتماع"، وهكذا (انظر على سبيل المثال: Stein 1963; Nisbet 1976; Brown 1977).

يمكن فهم هذا النمط من الجدل إلى حد ما، على أنه رد فعل ضد محاولة بعض علماء العلوم الاجتماعية تطوير نوع من اللغة، يتسم بالطابع العلمي، والموضوعية في طبيعته. كانت الدوافع في أن يكون نوع اللغة علمية قوية دائما في العلوم الاجتماعية، والتي اتخذت العديد من التعبيرات، والدعاوى للتخلص من الجوانب الذاتية، على سبيل المثال، والتجول بمعاطف المختبر البيضاء، كما فعل فرناندو هنريك كاردوسو وطلاب علم الاجتماع الآخرين في ساو باولو في خمسينات القرن العشرين (Cardoso 2006: 47).

هذا النوع من المواقف، المتكررة، أعطى صبغة معينة للغة علماء الاجتماع. فعلى النقيض من ذلك، وخلال القرن التاسع عشر، كانت الحدود بين العلوم الاجتماعية والأدب مفتوحة إلى حد ما. أراد علماء العلوم الجتماعية التعبير عن أنفسهم بشكل جيد في أعمالهم، وقام الكثير من الكتاب الأدبيين عن وعي بربط العلوم الاجتماعية بالأدب في كتاباتهم.

على سبيل المثال، أراد "بالزاك" Balzac في الأصل استخدام الدراسات الاجتماعية كعنوان لما أصبح كوميديا بشرية. وصف "زولا" رواياته كشكل من أشكال "علم الاجتماع العملي" (Lepenies 1988: 4-7). كما ذهب بعض المؤلفين إلى أبعد من ذلك، وأنتجوا ما يطلق عليه اليوم العلوم الاجتماعية: "أغسطس ستراندبرغ" في دراسته للحياة الريفية ***بين الفلاحين الفرنسيين*** (١٨٨٩)؛ "انطون تشيخوف" في دراسته للسجناء في ***جزيرة سخالين*** (١٨٩٤)، و"جاك لندن" في تقريره عن فقراء لندن في ***أهل الهاوية*** (١٩٠٣).

ولكن بالتوازي مع هذه الاتجاهات، كان هناك أيضا الدافع العلمي المتشدد. كان "أوجست كونت"، أبو علم الاجتماع، يكره الميل لمزج الأدب بالعلوم الاجتماعية، بل وعمل بجد لتطوير أسلوب علمي غير تقليدي للكتابة. كان النظام والموضوعية هدفين رئيسيين في الكتابة، كما في أي شيء آخر.

وحاول "كونت" في نهاية حياته أن يصيغ بعض القواعد التي ينبغي مراعاتها عندما تكتب في القضايا الاجتماعية. على الفصل الدراسي أن يحتوي على ثلاثة أجزاء: كل جزء يتضمن سبع أقسام، وكل قسم يحتوي على اثنان وعشرون جملة، وهكذا. باختصار، فإن كل ما يريد أن يؤكد عليه "كونت"، هو الالتزام بالنظام والموضوعية.

مثل هذه الطريقة في العمل تجعل من السهولة أن نكتب بشكل واضح، ويبدو أن معظم علماء اجتماع اليوم لديهم مشكلات قليلة في الكتابة. فهم يجلسون

ويكتبون. ففي الأوصاف الصريحة للمشروعات البحثية، على سبيل المثال، فإنك من النادر أن تجد عالم اجتماع يشكو من الكتل الكتابية. ويتمثل الاستثناء في طلاب الدراسات العليا، وقد يكون السبب في ذلك في أنهم لم يكتشفوا بعد كيفية الكتابة بطريقة موضوعية وبلا ضجيج.

ويكمن السبب في عمل علماء الاجتماع بشكل أقل أو أكبر، مثل "كونت"، عندما يكتبوا في أنهم -في العادة- غير مهتمين باكتشاف إمكانات اللغة، ولا ينجذبوا بشكل معين إلى الغموض، والظواهر الاجتماعية التي يصعب التقاطها. وعلى العكس من المؤلفين في الأدب والشعراء، فإن علماء الاجتماع لا يعتقدوا في فكرة تشجيع إبداعاتهم. على سبيل المثال، فأنا لم أسمع أبدًا عن عالم اجتماع جرب المخدرات أو الكحول (أو كان يبحث عن ملجأ) لكي يكون أكثر إبداعًا.

بعد ما يقرب من حوالي قرن في أعقاب "كونت"، قدم عددًا من علماء الاجتماع الأمريكيين مجموعة من الحجج المماثلة لأسلافهم من الوضعيين عن الحاجة إلى طريقة موضوعية وعلمية في الكتابة. وفي دراسة علمية تحت عنوان "الكتابة العلمية" من العام ١٩٤٧، فويليام أوجبرن، على سبيل المثال، ذكر أنه ينبغي على علماء الاجتماع أن يكتبوا مثل المصورين الفوتوغرافيين، وليس مثل الرسامين الانطباعيين. فينبغي عليهم أن يستخدموا جملا قصيرة (ليس أكثر من عشرين كلمة)، ويبتعدوا عن ذات الصلة (المصاحبة لمثل هذه الكلمات) (Ogburn 1947: 384-85). ومن الضروري أيضًا لعلماء الاجتماع أن يتذكروا أن "استخدام الظروف الشخصية لا يعتبر وضعية جيدة في الكتابة العلمية" (Ogburn 1947: 384-85).

تأثر علم الاجتماع الحديث بشكل عميق بما حدث في جامعة كولومبيا أثناء عقود ما بعد الحرب العالمية الثانية، وهو ما يجعل "روبرت ميرتون" مساندًا للاسلوب العلمي في الكتابة، ويرى أنه أكثر أهمية، وذلك على النقيض من النمط الفني في الكتابة. ويناقش "ميرتون"، من خلال دراسته بشأن علم الاجتماع متوسط-المدى، والذي يتم قراءته بشكل واسع، أنه يجب على علماء الاجتماع كسر الكتابة التقليدية بشكل جيد. بدلا من ذلك، فإنهم ينبغي أن يتعلموا الكتابة على نحو موضوعي.

ويذهب "ميرتون" إلى أن علماء الاجتماع لا ينبغي أن يكتبوا "بشكل واضح ومكثف"، وبطرق أخرى يحاولون التعبير عن "الامتلاء الغني بالمشهد الإنساني" (Merton 1967: 69). هذا "تراث ضخم ولكنه أجنبي" من الأدب، بل ويجب "التنصل" منه. وبدلاً من ذلك، يجب أن يكتبوا بطريقة تمكنهم من التقاط "المفاهيم والعلاقات الموضوعية القابلة للتعميم".

كان "رايت ميلز"، والذي كان من جامعة كولومبيا بعد الحرب العالمية الثانية، متشككًا جدًا من محاولة ميرتون لخلق نمط موضوعي في العلوم الاجتماعية. فمن وجهة نظره، أنك إما أن تكتب كشخص اعتباري، وهذا يعني أنك تكتب ب"صوت"، أو أنك تكتب مثل "الآلة" (Mills 1959: 220-21; cf. Espeland 2012).

ويؤكد "ميلز"، من خلال كتبه ومقالاته، أنه من الممكن أن تكون عالم اجتماع وصاحب أسلوب أدبي جيد. وتتمثل نصيحته في علم الاجتماع عن كيفية أن تصبح كاتبًا جيدًا كفكرة تستحق التفكير: "كي تتجاوز النثر الأكاديمي، عليك أولًا التغلب على الوضع الأكاديمي" (Mills 1959: 219).

والسؤال الأخير الذي يجب مناقشته هو الآتي:

يجب أن تكون الطريقة التي تكتب بها عند وضع النظرية مختلفة عن الطريقة التي تكتب بها عندما تقدم بحثك؟ وجهة نظري الخاصة هي أنه يجب أن يكون هناك فرق. يحاول التنظير، في طبيعته التجريبية؛ التقاط ومتابعة العلاقات الارتباطية؛ ويتطور بشكل منفصل وإيحائي. وتميل الملاحظات التي تأخذها عندما تطير أفكارك إلى أن تكون قصيرة وتلغرافية، على غرار الطريقة التي كتب بها فيتجنشتاين.

يمكن صياغة حجة أخرى، واستخدام النصوص بهذه الطريقة من الكتابة عندما يتعلم الفرد التنظير. يمكن للأجزاء المتناثرة، والجمل غير الكاملة، وما شابه، أن تحفز الفرد على القراءة. تنحو هذه الأجزاء المتناثرة إلى طرح الأفكار في ذهن القارئ، كما يمكنها أيضًا تعليم الطلاب كيفية تدوين الملاحظات عند وضعهم نظرية.

ولكن عندما تقدم النتائج النهائية للمشروع البحثي، يختلف الموقف. وفي هذه المرحلة، تم تنفيذ المهمة التي تقدم مشروعًا بعناية ومنهجية، ومن الطبيعي أن هذه الطريقة في العمل ينبغي أيضًا أن تنعكس في طريقة الكتابة. ويمكن للفضائل في مرحلة التنظير أن تصبح من الرذائل عندما يقدم المرء نتائج البحث، والعكس صحيح.

لا يزال من الواضح أيضًا أن أسلوب الكتابة الذي يدافع عنه "كونت– أوجبرن– ميرتون" يضعف في العديد من الطرق، ولا يشجع على اتباع نهج مبتكر في العلوم الاجتماعية. وقد طور مؤلفو الأدب القصصي مؤخراً نوعًا من الأدب غير الإبداعي، والذي يُعرّف بأنه "نثر واقعي" هو أيضًا أدبي منغمس في المفاهيم الأسلوبية، والمسلسلات، والخطب البلاغية لأفضل الروايات الخيالية والأغنى من الشعر السردي" (Forche and Gerard 2001: 1). ربما نحتاج إلى نوع يسمي العلوم الاجتماعية الإبداعية كذلك، وربما يكون لدى علماء الاجتماع أيضًا شيئًا

يمكن تعلمه من كتاب القصص غير القصصية، خاصة عندما يتعلق الأمر بالتواصل مع القارئ (انظر على سبيل المثال: Wallace and Garner 2013).

ونذكر أيضًا أن بعض من المناصرين للإسلوب العلمي–الموضوعي في علم الاجتماع دائمًا لا يتبعون النصيحة التي يعطونها للآخرين، القلائل مثل "هربرت سيمون" دائمًا لا يستخدمون المقاربة العلمية في إيجاد حل المشكلة. "ميرتون"، على سبيل المثال، كان كاتبًا أدبيًا ممتازاً وكان يعتز دائماً بإيجاد الكلمة الصحيحة. كانت "رواية تريسترام شاندي"، في الواقع، رواية ميرتون المفضلة، والتي قرأها وأعاد قراءتها على مر السنين، وهي التي اشتهرت بأسلوبها الرائع الغريب.

لقد سألت ميرتون ذات مرة والذي يعد واحدًا من أفضل الكتاب مقارنة بعلماء العلوم الاجتماعية. وفي ذلك الوقت كنت أقرأ كثيرًا لشومبيتر وكنت على أمل أن يكون مؤلف الرأسمالية، والإشتراكية، والديمقراطية Capitalism, Socialism, and Democracy. وبدلًا من ذلك، فقد أجاب باسم إقتصادي آخر: جون ماينارد كينيس. ومن الصواب أن كينز ليس عالمًا اجتماعيًا رائعًا فحسب، بل أيضًا كاتبًا رائعًا. وكان بعض أصدقائه، كما نعرف، أعضاءًا في مجموعة بلومزبري.

ومن وجهة نظري، فإن الأسلوب الذي نسعى إلى تحقيقه، عندما يقدم المرء النتائج التي توصل إليها، هو الأسلوب المنطقي والواضح والتحليلي. ولكن بمجرد طرح الحجة العامة، وتقديم الدليل التجريبي، من المهم في الكثير من الأحيان اقتراح الطرق التي يمكن بها المضي قدمًا في البحث، ولهذا قد يكون الأسلوب المقتضب للكتابة مناسبًا.

هناك أيضا بعض الأماكن الأخرى في مقال أو كتاب حيث يمكنك استخدام أسلوب أكثر فنية. وقد ترغب، على سبيل المثال، في إعطاء القارئ فكرة عن الطريقة الفعلية التي تم بها إجراء البحث.

هناك في النهاية أيضًا جودة فنية مميزة للنثر يمكن العثور عليها في العديد من المقاطع الرئيسية في أعمال العلماء الكبار مثل ماركس، وفيبر، وكينز، وسي رايت ميلز. في مرحلة ما في حجة مثيرة للاهتمام، يبدو غالبًا أن كل ما هو فني وما هو علمي يقترب من بعضهما البعض.

١٠

الفصل العاشر
ملخص وأكثر من ملخص

الفصل العاشر [*]
ملخص وأكثر من ملخص

تعد الأفكار ضرورية.
ويليام ويلويل، في كتابه حول فلسفة الاكتشاف
William Whewell, On the Philosophy of Discovery [1]

تم تخصيص هذا الفصل بشكل أساسي إلى تلخيص الحجة حتى الآن. أولاً، سعيًا إلى القيام بإنجاز في العلوم الاجتماعية بشكل لائق، فأنت في حاجة إلى تغطية ثلاث أشياء: بيانات تجريبية متماسكة، التعامل الماهر مع الأدوات المنهجية، وبعض من التنظير الجيد. وعادة ما نجد علماء العلوم الاجتماعية اليوم مدربين بشكل جيد في التعامل مع المطلبين المذكورين الأول والثاني، بالمقارنة مع المطلب الثالث. ويعد هذا الكتاب بمثابة محاولة للتعاطي مع هذا الموقف، من خلال تركيزه – في المقام الأول – على كيفية التنظير من الناحية العملية.

بعد الإدلاء بهذا، ينبغي الآن إضافة أن هناك أنواع مختلفة من التنظير، وإنه من المهم أن نكون واضحين فيما يتعلق بالطريقة التي يتم بها استخدام مصطلح "التنظير". لقد جادلت من أجل إيجاد نهج خاص للتنظير في العلوم الاجتماعية، وسأحاول إظهار ما هو تقليدي، وكذلك ما هو جديد بشأنه.

وسوف تتم مناقشة بعض القضايا الأخرى، والتي تهدف إلى إكمال الحجة في هذا الكتاب. فعلى سبيل المثال، ما طبيعة علاقة التنظير بالسياسة؟ هل للتنظير بعدًا قيميًا؟ هل نمط التنظير المقترح في هذا الكتاب نمطًا فرديًا بشكل مجاوز للحدود؟ وما يتصل بهذا السؤال، ما هو بالتحديد دور المجتمع في عملية التنظير؟

كما سوف أناقش ما لا نعرفه بشكل كبير عن التنظير إمبريقيًا، ونحن في حاجة للبحث عن هذا الموضوع. ومن الهام أن نعرف المزيد عن الطريقة التي ينظر بها علماء علم الاجتماع في الواقع – متى، وأين، وكيف؟ هذا النوع من المعرفة مهم جداً، ولذلك فنحن سوف نكون قادرين بشكل أفضل على تشخيص الموقف الحالي وتطويره.

---

* ترجم هذا الفصل الدكتور نيفين زكريا محمد أمين.

ثمة أيضًا مشكلة حول كيفية ربط مرحلة الدراسة التمهيدية، بموضوع الدراسة الرئيسة. لقد ناقشت حتى الآن بشكل أساسي كيفية الخروج بأفكار ونظريات بحثية جديدة تسبق وضع وتنفيذ تصميم البحث. ولكن كيف تتلاءم هذه الفكرة مع الدراسة الرئيسية تحديدًا؟ ما هو دور التنظير خلال الدراسة الرئيسية؟ أليس وضع مقدمة لمرحلة التنظير قبل الدراسة الرئيسية تؤثر على الطريقة التي تنفذ بها هذه الأخيرة؟

تلخيص مدخل التنظير الإبداعي

من الواضح أن الطرق المختلفة في التنظير موجودة في العلوم الطبيعية كما هي موجودة في العلوم الاجتماعية. يحتوي ملحق هذا الكتاب، على سبيل المثال، على عرض لمقاربة تنظيرية تستحق من وجهة نظري أن تكون معروفة بشكل أفضل – وهو رأي تشارلز س. بيرس. ويحتوي نموذجه على عدد من الملامح الأصلية والمثيرة للتفكير. فهي أيضًا دولية بالمعنى الذي يفترض تطبيقها على العلوم الطبيعية، والعلوم الاجتماعية على السواء.

وعلى النقيض، فإن المقاربة الذي ستقدم من خلال هذا الكتاب سيتم تطبيقها فقط على العلوم الاجتماعية. فالبعض من ملامح هذا المقاربة ليس أصيلاً، بالمعنى الذي يمكن أيضًا إيجاده في مداخل أخرى للتنظير. لكن هذه المقاربة تحتوي أيضًا على بعض العناصر التي تتسم بالجدة نسبيًا. وهذه التركيبة الشاملة التي تشكل هذه المقاربة، على حد علمي، لا يمكن العثور عليها في مكان آخر.

وفي رأيي، أشير إلى هذه المقاربة باعتبارها تنظيرًا إبداعيًا، هذا الاصطلاح الذي أدين به إلى فرانك دوبين. ما يميز هذه المقاربة في المقام الأول هو الحجة القائلة بأنه يجب تخصيص مساحة مميزة للتنظير في عملية البحث. هذا ينطبق على الدراسة التمهيدية كما ينطبق على الدراسة الرئيسة. وغالباً ما يتم تركيز النظرية في مكان ما في عملية الاستقصاء فقط، مع إعطاءها اهتماماً أقل بكثير في جزء الطرق المنهجية. فالنظرية تفتقر إلى مساحة متميزة خاصة بها.

وأدعي أن التنظير يجب أن يزودنا بمساحة كبيرة ملائمة ليس فقط لحدوث بعض الملاحظات المبكرة، ولكن أيضًا إتخاذ خطوات أو إجراءات التي أطلق عليها **بناء النظرية**. هذا الجزء الأخير يتكون مما يطلق عليه: بناء المفاهيم، والتصنيفات، وما شابه؛ بالإضافة إلى الإتيان بتفسيرات.

ويتمثل الملمح المميز الثاني الخاص بمقاربتي، في كونه يمثل **محاولة مقصودة لتحويل التركيز من النظرية إلى التنظير**. وترتكز نقاشات العلوم

الاجتماعية في الوقت الحالي كثيرا على النظرية مقارنة بعملية التنظير، التي يتم تناولها بشكل أقل. بينما نجد كل من التنظير والنظرية ينتميان إلى بعضهما البعض، فإن موقفي يتمثل في إعطاء أولوية لعملية التنظير على التوصل للنظرية ذاتها. والسبب في ذلك بسيط: يوجد التنظير حيثما يتم إنتاج النظرية.

ويمكن اتباع التعريف الذي وضعته للتنظير كما يلي من هذا، بالمعنى الذي عرفت من خلاله النظرية فيما يتعلق بالتنظير بدلا من العكس. فالنظرية هي المنتج النهائي لعملية التنظير، والتنظير هو ما يسبق الصيغة النهائية للنظرية، قبل أن يتم تعيينها في الطباعة، مرة واحدة وإلى الأبد، وتقديمها إلى أشخاص آخرين. التنظير هو ما ينتج النظرية والحياة.

ويتمثل الملمح الثالث المميز لمقاربتي، **في أن التنظير يعتمد على عدد من الأنواع المختلفة من التفكير، والشعور، والذهاب للأشياء التي يتم دراستها بشكل أساسي في الوقت الحالي في العلوم المعرفية.**

في حين أن منطق التفكير التقليدي هو أمر مركزي للتنظير الجيد، فهناك أيضًا التخمين، والأمل، والتأمل، واستخدام الارتباطات الحرة، والانخراط في التفكير الخيالي، والبديهية والخيالية، وأكثر من ذلك بقليل. وارتباطا بذلك، فإنه **من المهم محاولة الوصول بطريقة ما إلى اللاوعي الخاص بك.**

ويتمثل الملمح الآخر المميز لمقاربتي في كون التنظير يعد بمثابة نشاطًا عمليًا. هذه الفكرة تبدو شائعة، ولكنها ليست كذلك في ظل إدراك أن هذا النوع من المعرفة التي نحتاجها لننظر جيدًا تعد أيضًا ذات طبيعة عملية. ويتمثل ما نحتاجه في الأغلب في نصائح عملية بشأن آليات التنظير بشكل ملائم، وهو ما لا تقوم به دراسات العلوم الاجتماعية في التنظير بشكل كاف. ونحن أيضًا في أمس الحاجة إلى تعلم كيفية تدريس التنظير، ونوعية الممارسات العملية لاستخدامه.

مثل هذا التأكيد على الحاجة إلى المعرفة العملية هو السبب في كون عنوان الكتاب يشير إلى فن النظرية. فالفن يجب أن يفهم بمعناه القديم للمهارة العملية في القيام بشيء ما.

الملمح التالي لهذا النوع من التنظير الذي أسانده له علاقة بحقيقة كونه شكلا من أشكال التنظير الاجتماعي. فأنت في حاجة أولا إلى تطوير العين السوسيولوجية، كما أقترح، للقيام بالتنظير بشكل جيد، وهو يمثل نوعًا من المعرفة العميقة. ثانيًا، فأنت في حاجة أن يكون لديك ترسانة من المفاهيم، والآليات، والنظريات التي يمكنك توظيفها. هذه الترسانة لا تحتاج أن تستوعب بشكل عميق

إلا من خلال القدرة على رؤية الأشياء من المنظور الاجتماعي. إنه من الملائم الوصول لمثل هذه الترسانة بسهولة متفاوتة، في حال الاحتياج إليها. ما المطلوب تضمينه، والتأكيد عليه هنا التآلف، وليس القدرة على المعرفة العميقة.

يتمثل الملمح الآخر المميز لهذه المقاربة في التنظير في هذا الكتاب، في أن التنظير ينبغي أن يحدث ليس فقط في أثناء إجراء الدراسة الأساسية، ولكن أيضًا، وعلى نحو إبداعي، أثناء المرحلة التي أطلق عليها الدراسة التمهيدية. وحاليًا، لا تعد هذه المرحلة جزءًا من العملية البحثية، ولكنني أقترح أن تكون هذه الخطوة جزءًا من العملية البحثية.

إنني أساند بشكل قوي جداً، الأدوات المستخدمة في عملية التنظير (مثل المفاهيم، والأنماط، وما إلى ذلك)، وينبغي أيضًا أن يستخدم في أغراض استرشادية. هذه هي الحالة بشكل خاص أثناء إجراء الدراسة التمهيدية. إن العمليات التي تحاول اكتشاف اسم للظاهرة التي تدرسها، من شأنها أن تحول الاسم إلى مفهوم، وما شابه ذلك يمكن أيضا استخدامه لاكتشاف شيئًا جديدًا حول الموضوع موضع الدراسة. وهو ما يشكل جزءًا هامًا من أطروحتي حول قضية التنظير.

كما أقترح أيضًا أن التنظير أثناء الدراسة التمهيدية، والدراسة الرئيسة يجب أن يتم إجراؤه من خلال ارتباطه الوثيق بدراسة الوقائع الامبيريقية. وهو ما يبرر ما يشير إليه الشعار "أنك لا تستطيع أن تقوم بالتنظير دون وقائع". وهو أيضًا ما يبرر اعتقادي بأن الملاحظة تعد جزءًا تكميليًا لعملية التنظير. يجب أن تبدأ عادة بدراسة بعض الظواهر؛ وتشكل نظريتك المبدئية محاولة لتفسير هذه الظاهرة.

ويمكن أن يطلق على نمط التنظير الذي يحدث أثناء الدراسة التمهيدية التنظير المبكر. ولكن ثمة نوعان آخران من التنظير في العلوم الاجتماعية؛ أطلق على أحد هذين النوعين التنظير الأساسي، والذي يتعامل مع افتراضات مسبقة وأجزاء أخرى غير امبريقية للنظرية، مثل كل ما يمثل حقيقة، ومفهوم، وعلاقة علية، وما إلى ذلك. ويحدث النوع الأخر من التنظير عندما يتم تصميم البحث كما يتم تنفيذه، ويمكن أن يطلق عليه التنظير أثناء الدراسة الرئيسية. هذا النوع من التنظير هو في كثير من النواحي شبيه بنظرية مبكرة ولكنه أقل استكشافية، ويستند عادة إلى البيانات التي تم جمعها بطريقة منهجية.

هناك أيضا القضية الخاصة بنوع الموضوع، الذي ينبغي أن يعمل عليه علماء العلوم الاجتماعية. وقد ذكرت مسبقًا أننا نحتاج إلى موضوع جيد من أجل أن ننظر

بشكل جيد. ولكن ما أعنيه بموضوع جيد، ليس واضحًا جدا، وأبعد من فكرة أنه يجب أن يكون موضوعًا مهماً، على المستوى الاجتماعي أو الوجودي.

وأخيرًا، فإن الدراسة الأساسية ينبغي أن تتبع مرحلة التنظير المبكرة أو الإبداعية مبدئيًا. إذا كانت نتيجة الدراسة المتمهيدية واعدة - إذا كنت ترغب في الحصول على شيء واعد ومثير للاهتمام - فستحتاج إلى الانتقال إلى المرحلة التالية، وهي رسم البحث وتصميمه ثم تنفيذه. ولكن إذا لم تنجح الدراسة التمهيدية، فمن الأفضل التخلي عن الموضوع، أو على الأقل استبعاده بشكل مؤقت الآن، والانتقال إلى شيء آخر.

فن التنظير المبدع في العلوم الاجتماعية

١- التنظير يعني أولوية تطوير أفكارك، باعتبارها متعارضة مع استخدام نظريات الآخرين.
٢- التنظير بمثابة نشاط عملي، وشيء ما يتم تعلمه من خلال إجرائه عمليًا.
٣- من خلال التنظير، فإنك تقوم بتصميم طرق كثيرة في التفكير مثل استخدام الاستعارات المجازية، والقياسات، والتفكير البديهي، وكذلك التفكير المنطقي، والتكهنات، والارتباط الحر، والتخمين، والخيال، وأكثر من ذلك.
٤- من أجل التنظير بشكل جيد، تحتاج بطريقة ما إلى الوصول إلى اللاوعي الخاص بك.
٥- يحتاج التنظير إلى مساحة متميزة خاصة به في عملية البحث العلمي.
٦- يحدث جزء مهم من التنظير خلال المرحلة الأولى من عملية البحث، قبل مرحلته الثانية، والتي يتم من خلالها تصميم البحث ويتم إجراء دراسة كاملة وفقاً للأساليب المنهجية المقبولة (وتسبق الدراسة التمهيدية، الدراسة الرئيسية).
٧- ثمة العديد من الأجزاء، أو الخطوات من أجل التنظير: الملاحظة، وبناء النظرية، والإتيان بتفسيرات علمية. تحدث أيضًا مثل هذه الخطوات أثناء إجراء الدراسة الرئيسية.
٨- إن بناء النظرية، أو تزويد النظرية ببناء، يتألف من أنشطة مثل التسمية، وبناء المفاهيم، وربما الحصول على تصنيف، واستخدام الاستعارات والقياسات. من خلال الدراسة التمهيدية، فإن بناء النظرية يسبقه الملاحظة، ويكون متبوعًا بالتفسير.

٩- تنفيذ المهام المختلفة للتنظير يتحول إلى مهارة، والتي من خلالها يتم التعامل مع مثل هذه المهام بطريقة أكثر سهولة.
١٠- إن المفاهيم، والأنماط، والعناصر الأخرى من التنظير ينبغي أن تستخدم ليس فقط من أجل بناء نظرية أولية، ولكن أيضًا من أجل أغراض ارشادية.
١١- بالإضافة إلى التنظير المبكر أثناء الدراسة التمهيدية، فإن التنظير يحدث عندما يتم تصميم البحث وتنفيذه (التنظير أثناء إجراء الدراسة الأساسية). أيضًا، يحدث نمط التنظير غير الإمبريقي الذي يتناول الافتراضات التمهيدية من أجل البحث الإمبريقي، والقضايا المتشابهة ذات الصلة (التنظير الأساسي).
١٢- أنت في حاجة لاختيار موضوع جيد من أجل أن تنظر بشكل جيد.
١٣- لو كانت نتيجة مرحلة التنظير المبكر إيجابية، بمعنى أنك توصلت إلى شيء واعد ومثير للاهتمام، يجب أن تنتقل إلى الدراسة الرئيسية. إذا لم يكن الأمر كذلك، فقد ترغب في الانتقال إلى موضوع آخر.

تعليق: تلخص هذه النقاط مقاربة التنظير التي تم تأييدها في هذا الكتاب. أشير إلى هذه المقاربة باعتبارها فن التنظير الإبداعي في العلوم الاجتماعية. عن طريق الإبداع، أعني أنه مثلما أن معرفة الأساليب المنهجية تخلق كفاءة في التعامل مع البيانات، فإن معرفة التنظير تجعل من الممكن أن تكون إبداعية في التعامل مع النظرية. وتشير كلمة الفن إلى الطبيعة العملية للتنظير.

مرة أخري: التنظير يمكن تعلمه

لقد ناقشت في العديد من المرات، أن التنظير ليس شيئا يمكن القيام به من خلال أفراد موهوبين بشكل إستثنائي، ولكنه شيئا يمكن لأي فرد أن يتعلم كيف يمكنه القيام به ("يمكن لأي فرد أن ينظر"). من أجل تفعيل هذا النقاش، فلقد أشرت إلى نموذج التعلم الخاص بالإخوين "دريفوس"، فوفقا لهذا النموذج تبدأ بإتباع قواعد معينة، وبعد ذلك، في مرحلة لاحقة، يمكنك تنحية مثل هذه القواعد جانبًا. لو أنك لم تستبعد مثل هذه القواعد، عند هذه النقطة، فمثل هذه القواعد ستعوق قدرتك عن الانتقال إلى المرحلة النهائية. وتكون مهارتك بديهية عند هذه النقطة.

ولكن يوجد أيضًا نموذج آخر للتعلم يلائم، في تصوري، عملية التنظير إلى حد كبير، كما يلقي الضوء على بعض النقاط، التي لم يتعامل معها نموذج التعلم الخاص بالإخوين "دريفوس". تم تطوير هذا النموذج للتعلم من قبل "هوارد بيكر"

كجزء من قصته المعروفة عن الغرباء، حول كيف يتعلم الناس أن يصبحوا مدخنين الماريجوانا؟

ويوجد جانبان خاصان بنظرية "بيكر" في التعلم، يناسبان أيضًا مثال كيفية تعلم التنظير. الأول، يتمثل فيما يناقشه "بيكر" حول كيفية تعلمك القيام بشيء، يمثل قليلا من الغموض قبل أن تجربها وتعرف كيف تبدو. والثاني، يناقش بيكر من خلالها نشاطًا قد تستمتع به في النهاية.

ووفقًا لبيكر، يعد تعلم الاستمتاع بتعاطي الماريجوانا نشاطًا اجتماعيًا؛ كما يستمر في مراحل. "إن الدوافع والرغبات الغامضة –في هذه الحالة، على الأرجح في الغالب تتمثل في تكرار الفضول حول نوع الخبرة، التي يحققها المخدر– ويتم تحويلها إلى أنماط محددة للفعل، من خلال التفسير الاجتماعي للتجربة الحسية المعاشة، والتي تعد في حد ذاتها غامضة" (Becker 1973: 42).

ومن أجل أن تصبح متعاطيًا للماريجوانا، ينبغي أولاً أن تتعلم أن تأخذ الشهيق بطريقة معينة. فأنك لا تستنشقها، على سبيل المثال، بنفس الطريقة عندما تدخن السيجارة. فثمة آلية معينة ينبغي عليك أن تتعلمها. ينبغي عليك أيضًا أن تتعلم تحديد تأثيرات الماريجوانا وتحاول إعادة انتاج مثل هذه التأثيرات.

وأخيرًا، عليك أن تفسر تأثير تعاطي الماريجوانا باعتبارها ممتعة:

يشعر المستخدم بالدوار والعطش. يشعر بوخز في فروة رأسه. يخطئ في تقدير الوقت والمسافات. هل هذه الأشياء ممتعة؟ هو غير متأكد. إذا كان سيستمر في استخدام الماريجوانا، يجب عليه أن يقرر أنها كذلك (Becker 1973: 53).

ويدعي بيكر تعميمًا معينًا للطريقة التي تدار بها عملية التعلم، ومن وجهة نظري فربما لا يكون هذا مختلفًا عن تعلمك كيفية التنظير. وفي الحالة الأخيرة أيضًا، فإنك تبدأ بشكل أساسي برغبة غامضة، ومعرفة قليلة حول ما سوف تكون عليه النتيجة النهائية. وينبغي عليك، على نحو مشابه، أن تتعلم آلية التنظير من الآخرين. وينبغي عليك أن تعلم نفسك آلية الانخراط في عملية التنظير، وتتفحص ماهية آثارها في طريقة تفكيرك.

ويوجد أخيرًا الاستمتاع والشعور بالرضا، والتي تأتي في النهاية. وثمة استمتاع خاص جدا يصاحب عملية التنظير، وفي متابعة طريقة تفاعل العقل مع الواقعة الأمبريقية، وكيفية استنتاجك للأفكار. ومن الممتع جدًا أيضًا وضع هذه الأفكار في نظرية كاملة على طول الطريق من الملاحظة إلى التفسير. لقد أبدعت شيئًا بنفسك، وهذا أمر مرض للغاية.

البحث الإمبريقي بشأن التنظير

من الواضح أننا نحتاج أن نعرف أكثر عن التنظير مقارنة بما نقوم به حاليا من أجل الحصول على أفضل تعامل في هذا الشأن. وهذا صحيح بشكل خاص عندما دعم التنظير من هذا النمط هنا ليس فقط كجانب عملي، ولكن أيضًا كجانب تعليمي. فنحن نحتاج أن نعرف ليس فقط كيفية التنظير بأنفسهم، ولكن أيضًا كيفية تدريس التنظير للآخرين.

قد يكون من المفيد البدء بالتمييز بين موضوعين مختلفين للدراسة؛ الموضوع الأول يتمثل في كيفية إدارة موضوع التنظير حاليًا. كيف، ومتى، وأين؟ يمكن استخدام كثير من الوسائل المختلفة لدراسة هذا الموضوع، مثل المسوح، والمقابلات الشخصية، والمذكرات الشخصية، والملاحظة بالمشاركة، ودراسات الوقت، وما شابه (انظر، على سبيل المثال: Latour and Woolgar 1986).

يمكن أيضًا استخدام نفس الأدوات لدراسة الموضوع الثاني الأكثر أهمية –أي كيف تنظر بشكل إبداعي أكثر. يمكن أن نحتاج إلى بعض الأدوات لهذا الغرض منذ تم تصميم التنظير الإبداعي لبعض أشكال التفكير، والتي لم تناقش حاليًا بشكل كبير بين علماء العلوم الاجتماعية. قد تكون بروتوكولات التنظير المتمايزة واحدة من هذه الأدوات. ولنذكر أدوات أخرى للتحقيق في بعض المعرفة الضمنية للمنظرين الناجحين – والتي لابد من اختراعها.

لو انتقلنا الآن من مشكلة تدريس نفسك كيف ننظر إلى مشكلة التدريس للآخرين، تظهر عدد من القضايا الجديدة. هذا أيضا بحاجة إلى فهم، ونقاش أفضل بكثير.

أولاً، يبدو من المرغوب فيه أن يكون أساتذة التنظير قد تعلموا كيفية وضع نظرية بأنفسهم، حتى يكونوا على دراية بالعملية المعنية. فالهدف من ذلك هو عدم وجود عدد قليل من الأساتذة الكاريزميين الذين يحاضرون في النظرية أو التنظير، ولكن من خلال تطوير طرق عملية يستطيع من خلالها الأستاذ العادي تعلم كيفية تعليم المهارات الأساسية للتنظير إلى الطالب العادي.

وكلما تعلمنا المزيد عن تدريس التنظير، وكلما كان هناك تواصل أكثر بين أولئك الذين يقومون بتدريس المحاضرات في هذا الموضوع، كان من الأسهل الوصول إلى هدف تطوير مقاربة عامة لهذا الموضوع تكون فعالة ويمكن إعادة إنتاجها بسهولة.

لا يزال هناك العديد من الفخاخ التي يجب تجنبها لمن يدرسون التنظير. فعلى سبيل المثال، وجدت دراسة واحدة لطيارين مدربين في القوات الجوية الأمريكية أن الطريقة التي أخبر بها المدربون الطلاب بتنفيذ مهمة اختلفت عن الطريقـــة التي أثبتوا من خلالها كيفية وجوب القيام بذلك في الفصل الدراسي. طلبـــوا من الطلاب مسح الأدوات بطريقة خاصة، بينما قاموا بذلك بطريقة مختلفة (Dreyfus and Dreyfus 1986: 152–53).

قد يكون الأمر كذلك في أن مثال الطيارين المدربين لديهم بعض التعميم على ذلك. قد يكون بعضنا في غفلة عندما نقوم بتوصيف كيف ننظر بأنفسنا. قد ندرس أيضًا للطلاب كيفية القيام بشيء ما بطريقة ما، بينما نمضي بطريقة مختلفة عندما نقوم بذلك بأنفسنا.

وفي مواجهة هذا الإتجاه، هناك طريقة واحدة تتمثل في أن تكون ملاحظًا لنفسك وتدرس عن كثب كيفية قيامك بالأمور. قد يكون من المفيد الاحتفاظ بمفكرة عندما تقوم بتدريس التنظير؛ وفي بعض الأحيان، يمكن أن يكون تسجيل الأفلام وتصويرها مفيدًا أيضًا.

ويذكرنا هذا المثال أيضًا بوجود جانب أخلاقي للتنظير. في الطب، تؤكد أحد المبادئ الأخلاقية أنه يجب عليك التصرف بطريقة لا تحدث أي ضرر ("أولاً، لا ضرر"). ربما هناك حاجة إلى بعض المباديء المماثلة عندما يتم تدريس التنظير.

التنظير وتصميم البحث العلمي

على الرغم من وجود البيانات المتكررة، قد يعتقد بعض القراء على العكس من ذلك أن التنظير لهذا النمط الذي دعا له هذا الكتاب ينظر إليه بإعتباره هدفاً في حد ذاته، ولهذا السبب فإن هذا النمط من التنظير يقوض من البحث الإمبريقي. ولكن هذه القراءة غير صحيحة للحجة التي تم وضعها والبناء عليها في الكتاب.

بدلا من هذا الاعتقاد المتصور لدى بعض القراء، هذه الحجة ستكون مفيدة في أن يكون لدينا مرحلة من التنظير قبل صياغة وتصميم وتنفيذ البحث الاجتماعي، وحاليا يتم إهمال مثل هذه الخطوة أو تسريعها على نحو كبير جدًا. إن السؤال البحثي الذي ينتج عن طريقة فعل الأشياء اليوم لن يتسنى له أن يكون سؤالاً إبداعيًا. وينحو هذا الكتاب، إضافة إلى الأهداف الأخرى، إلى لفت الإنتباه لهذه الحقيقة، وأيضًا اقتراح طريقة للتعامل معها.

لا يكمن الهدف في مهاجمة الأدوات المنهجية التي يتم استخدامها حاليًا في العلوم الاجتماعية. أنني أناقش أن التنظير يحدث عندما تخطط لتصميم البحث، أو عندما تقوم بتنفيذه. في الواقع، ثمة عدد من الأعمال ينبغي القيام بها في النظرية في أعقاب القيام بالدراسة التمهيدية، ومن الحتمي أن يلم المنظر بالأدبيات ذات الصلة. وبدون دراية كافية بهذه النقطة، لن تكتمل الدراسة.

إن الخطوات المتعددة التي تسهم في صنع التنظير أثناء الدراسة التمهيدية، تحدث أيضًا أثناء القيام بالدراسة الرئيسة. ليس من الضروري القيام بمثل هذه الخطوات بنفس الشكل وبنفس الترتيب، لكن، على الرغم من ذلك، تكون الخطوات حاضرة أثناء الدراسة الرئيسية. كما أن الغرض من إجراء مثل هذه الخطوات في الدراسة التمهيدية هو أيضًا نفس غرض الدراسة الرئيسية، والمتمثل في التوصل إلى تفسير ظاهرة (اجتماعية) تجريبية.

ومع ذلك، وبعد ذكر كل هذا، يبدو أيضًا أن فكرة إضافة مرحلة من التنظير إلى عملية البحث، دون تغيير هذه العملية بطريقة ما، ربما تكون وهمية. الوضع الأكثر واقعية هو أنه ينبغي إجراء بعض التغييرات على الطريقة التي نقوم من خلالها بالتنظير حاليًا إلى تصميم البحث وكيفية تنفيذه.

وقد ذُكِر بالفعل أن المشاريع البحثية التي لم تنجح في مرحلة التنظير المبكرة ينبغي على الأرجح ألا يتم تنفيذها. ومن المحتمل أيضًا أن تكون المشروعات التي تصل إلى مرحلة تصميم البحث على نحو تصوري مفهوم بشكل أفضل مما هي عليه حاليًا.

تعمل هذه الحجة أيضًا في الإتجاه الآخر. وسوف تنعكس المهارات والخبرات التي يتمتع بها الباحث في تنفيذ تصميم البحث في مهارته أو مهارتها، خلال مرحلة التنظير المبكرة، بمجرد اتخاذ قرار بتضمين الدراسة التمهيدية. وبعبارة أخرى، فإن الخط الفاصل بين مرحلة التنظير المبكرة وعملية البحث التقليدية سوف يتآكلان إلى حد ما.

وربما يكون صحيحًا أيضًا أنه بإضافة مرحلة كاملة من التنظير لعملية البحث، سيكون هناك تنظير أقل بعض الشيء أثناء الدراسة الرئيسية. ويتبين، ما لم يكن ذلك، بطبيعة الحال، أن النظرية الأولية كانت خاطئة، وفي هذه الحالة عليك إعادة القيام بكل، أو بعض أجزاء التنظير أثناء الدراسة الرئيسية (اسم الظاهرة، وتكوين المفاهيم، وما إلى ذلك).

وبالمثل، فإن الحصول على بيانات أكثر وأفضل قد يجعل من الضروري

الانخراط في إعادة التشكيل. بعض المشاكل لا يمكن حلها إلا في عملية البحث الرئيسية. وجود بيانات سليمة لا يترجم إلى فهم فوري، ولكن في كثير من الأحيان يتم ترجمته إلى نوبات طويلة من السلوك التكراري قبل أن يتم إنتاج التفسير النهائي.

هناك أيضا بعض المهام المتعلقة بالنظرية، والتي من حيث المبدأ تنتمي فقط إلى مرحلة الدراسة الرئيسية. وتشمل هذه الأمور إضعاف واخضاع النظرية المبدئية، وإعطائها شكلاً منطقيًا، والمضي قدمًا في تفسيرها بشكل متكرر.

ومن هذه المهام الأخرى صياغة الفرضيات (أو ما يعادلها). ومن المأمول أن تكون هناك نظرية مبدئية خلاقة في هذه المرحلة، كنتيجة للدراسة التمهيدية، ولكن من الضروري الآن ترجمة هذه النظرية إلى فرضيات قابلة للاختبار. ويتطلب هذا النوع من النشاط تمايز وإبداع النظرية (على سبيل المثال: Goertz 2006).

تحدث أيضًا المهام المهمة المتضمنة في دمج النظرية بعناية في الأدبيات المتاحة، وربطها ببعض خيوط من النظرية الحالية أثناء الدراسة الرئيسية. إن تضمين النظرية المقترحة في نطاق أوسع من النظرية أمر حاسم من أجل إظهار أن ما يجري البحث عنه يمثل مشكلة لم يتم حلها بالفعل، وأن هناك سببًا جيدًا للبحث.

من خلال ربط النظرية المبدئية بالنظريات القائمة، فإنك أيضًا تُظهر كيف تتناسب النظرية الحالية مع تقاليد النظام الذي تتبعه، وكيف يمكن إثراء هذا التقليد من خلال إجراء البحث الجديد. إذا لم يتم ذلك في النظرية الجديدة، مهما كانت ثاقبة، سوف ننسى المغامرة، ومواجهة الصعوبات إلى السير في طريق مسدود. هذا هو بالمناسبة أيضا حيث تتقابل المشكلة الهامة الخاصة بتراكم المعرفة في العلوم الاجتماعية بإشكالية التنظير (على سبيل المثال، Abbott 2006).

وفيما وراء البيانات العامة لهذا النوع من التنظير خلال إجراء الدراسة التمهيدية والدراسة الرئيسة، ينبغي أن يضاف إلى ذلك أن الأدبيات حول التنظير، وتصميم البحوث تشكل حاليًا نوعين من الأدبيات المنفصلة مع قليل من التداخل. فهم يحتاجون من وجهة نظري إلى أن يقتربوا أكثر من بعضهم البعض. على الأقل يجب أن يبدأ كل منهما في الإشارة إلى الآخر بطريقة منتظمة.

على المستوى العملي، يبدو أيضًا أن كل هذه الأدبيات سوف تكون أكثر فائدة من خلال الاتصال مع الآخر. فمن الخطير، على سبيل المثال، الانخراط في

التنظير دون أن يكون لديك معرفة جيدة بما يجب فعله بمجرد الوصول إلى تصميم البحث والعكس بالعكس.

إلى جانب ذلك، يمكن إضافة أن الأدبيات المتعلقة بتصميم البحث، وكيفية تنفيذ خططك البحثية، تتضمن الكثير من المواد التي تساعد المنظر. وأشير مرة أخرى إلى مثال لأدبيات العلوم السياسية المرتكزة على التحليل المقارن، وكيفية بناء المفاهيم وصياغتها إجرائيًا.

وتوجد أيضا بعض الأفكار في الأدبيات الخاصة بالتنظير التي قد تحسن الأدبيات القائمة على تصميم البحوث. خذ، على سبيل المثال، فكرة استخدام المفاهيم، والاستعارات، وما إلى ذلك بطريقة ارشادية. هذه المقاربة قد تستخدم أيضا لتصميم البحوث.

ولقد حقق رايت ميلز هذه النقطة بدقة في كتابه "الخيال السوسيولوجي". بمجرد القيام بتصميم للبحث، كما يذكر، قد تأتي ببعض الأفكار الممتعة وغير المتوقعة:

على الرغم من أنك لن تتمكن مطلقًا من الحصول على الأموال التي يمكنك من خلالها إجراء العديد من الدراسات الإمبريقية التي تقوم بتصميمها، فمن الضروري أن تستمر في القيام بتصميمها. بمجرد أن تضع دراسة تجريبية، حتى لو لم تتبعها، فإنها تقودك إلى بحث جديد عن البيانات، والتي غالباً ما تتحول إلى علاقة غير متوقعة ذات صلة بمشكلاتك (Mills 1959: 205).

التنظير وافتراضاته السياسية – الأخلاقية

يمكن إدعاء أن جميع النظريات الاجتماعية، بما في ذلك تلك التي تتناول التنظير، لها بعد سياسي–أخلاقي، بمعنى أنها تأخذ سمات معينة في المجتمع والطبيعة البشرية كأمر مسلم به. يمكن في بعض الأحيان أن يقترب هذا النوع من المفاهيم السياسية والأخلاقية من الافتراضات التمهيدية التي تمت مناقشتها في الفصل الثامن.

لو أخذت نفسي مثالًا، فإنني أعلم إنني أحمل عددًا من الآراء السياسية الأخلاقية التي من المحتمل أن تكون على صلة بالكثير من الأفكار التي دافعت عنها في هذا الكتاب. وسوف أحاول في باقي هذا القسم أن أقدم هذه الأفكار، من خلال جهد من أجل جعل تفكيري أكثر وضوحًا، وأيضًا من أجل أن أوجه الانتباه لهذا النوع من الموضوعات.

وسيكون الكثير من القراء غير مستمتعين بأفكاري السياسية–الأخلاقية، وقد يرغبون في تخطي الفقرات القليلة القادمة والانتقال إلى القسم التالي. ويتعامل هذا القسم مع قضية مختلفة، ولكن ذات صلة–بمعنى، يجب أن يكون هناك بعد معياري للتنظير، وإذا كان الأمر كذلك، فماذا يجب أن يكون مثل هذا البعد المعياري؟

يعد البشر، كما أرى الأشياء، كلهم متفردون ومتساوون. يتمتع كل شخص بقدرة على التفكير، والتفكير بحرية لا تقدر بثمن بالنسبة للفرد. إن المجتمع الذي تحترم فيه هذه القيم، ويتم تشجيعها، والنظر إليها على أنها خير جمعي يمثل مجتمعاً جيداً لي.

وتأتي الأفكار إلى حد كبير من "إمانويل كانط"، ونمط التنظير الذي أسانده يتماشى بشكل جيد مع جوانب عديدة لفلسفته. إنني أيضًا متأثر بعمل متابعي "كانط"، وخصوصا تلك التي من "حنا أرندت" Hannah Arendt (١٩٧٨).

يعد كل من التفكير في الذات، ومعاملة كل شخص كهدف وليس كوسيلة، موضوعان رئيسان في التراث الكانطي. اثنان آخران أجدهم ملهمين في أن كل فرد يمثل بداية جديدة (ولادة)، وأنه يجب عليك دائما أن تحاول دمج وجهة نظر الآخرين عندما تفكر (الفطرة السليمة). هناك أيضا فكرة مفادها أن أفكارك وأفعالك يجب أن تكون قادرة من حيث المبدأ على الوقوف في وجه محكمة العقل في ذهنك.

ألهمني نص واحد من "كانط" عندما فكرت في التنظير وهو: "ما هو التنوير؟" "What Is Enlightenment?" ويجادل "كانط" هنا أن كل شخص لديه القدرة على التفكير لنفسه أو لنفسها، ولكن أيضا، هناك قوى موجودة تحاول منع هذا. يمكن العثور على بعض هذه القوى خارج الفرد، والآخرين داخل الفرد.

ويذكر "كانط" بالنسبة إلى أسئلة الضمير، أننا نميل إلى الذهاب إلى كاهن. أو نقرأ كتاب كي نتجنب أن نفكر في أنفسنا. كل من العقائد الدوجماطيقية، والصيغ الجاهزة لها نفس التأثير.

هناك أيضًا أشخاص بعينهم يرغبون في التفكير في أشخاص آخرين، هم ما يدعوهم كانط الحراس. ودائمًا ما كان هؤلاء الأشخاص على استعداد للتفكير من أجلنا، ويشجعوننا على الاعتماد عليهم، بدلا من التفكير بأنفسنا.

ولكن لا ينبغي لنا الاستماع إلى الحراس، كما يقول كانط. قد يكون صحيحًا أن المرات القليلة الأولى التي نحاول التفكير فيها لأنفسنا، سوف نفشل ونسقط على وجهنا. لكن يمكننا أن نتعلم من هذه التجربة، وبعد بضع إخفاقات فإننا سننجح.

مثل العديد من فلاسفة أخرين، رأى "كانط" أن التفكير هو العمل الانفرادي. ولكن حتى لو كان صحيحًا أن كانط لم يطور نظرية تفكير تتمحور حول رؤية لمجتمع من المفكرين، فإنه يقول أيضًا "إن الصحبة لا غنى عنها للمفكر" (Arendt 1992: 10).

يقول كانط أن البشر كائنات اجتماعية، ونمط حياتنا وتفكيرنا هو مع أناس آخرين. لا ينبغي أن يسعى المفكر فقط إلى صحبة الآخرين، بل يجب عليه/عليها أيضًا محاولة تطوير القدرة على النظر إلى الأمور من منظور أشخاص آخرين. تعد الفطرة السليمة احساس كالحواس الأخرى، مثل السمع، والرؤية، وما إلى ذلك. وتعمل الفطرة السليمة أساسًا من خلال الخيال، كما ترتبط بالأخلاق بالإضافة إلى الفن.

البعد المعياري

أمتلك الكثير من الجذور الفلسفية والأخلاقية لأفكاري. ولكن ما هو الوضع إذا انتقلنا إلى موضوع مختلف ولكنه ذا صلة: هل ينبغي أن يكون للتنظير بعد قيمي واضح وعلني؟ اعتقد في ذلك شخص واحد هو "سي رايت ميلز"، وبما أنه كان مهتمًا بشدة بهذه القضية وكذلك بالتنظير، فإن حجته تستحق الانصات إليها.

وشعر "ميلز"، استناداً إلى الأبحاث التي أجراها على البنية الاجتماعية للولايات المتحدة، أن العمل قد أصبح بلا معنى بشكل متزايد في المجتمع الحديث. ففي *الياقة البيضاء* يحدد "ميلز" كيف سيبدو نوع العمل البديل. ووصف هذا "بالنموذج الحرفي للعمل" (Mills 1953: 220-28).

لا يُسمح عادةً للناس المعاصرين، وفقاً لميلز، بأن يقرروا بأنفسهم ماذا يفعلون في العمل، ولا كيفية تنفيذ مهامهم. ونتيجة لذلك، فإنهم لا يميلون إلى تطوير أنفسهم عندما يعملون، وهم يعملون أساسًا للحصول على أموال. كما أنهم يفضلون الهزل عن العمل، ويستثمرون أنشطتهم الترفيهية في الإبداع الذي تم توظيفه في عملهم، في حال تم تنظيمه كحرفة.

ولكن هناك عدداً قليلاً من الوظائف في العالم الحديث، وفقا لميلز، حيث لا تزال الأعمال اليدوية و"أخلاقيات الحرف" ممكنة (على سبيل المثال، Mills 1953: 220,224). وهذا ينطبق بشكل خاص على أنشطة المثقفين والحرفيين المتميزين. ومن المهم أن نلاحظ أن ميلز تحدث عن أخلاقيات مرتبطة بالصنعة الحرفية، حيث

أن هذه النوعية بالتحديد هي التي تجعل نظرته تعد معيارية في طبيعتها، بما في ذلك ما يجب أن يقوله عن التنظير.

في *الخيال السوسيولوجي*، ينتقد "ميلز" بحدة محاولة ميكنة العلوم الاجتماعية، وهو يعارض هذا الاتجاه منتقلاً إلى رؤية بديلة لما يمكن أن تكون عليه العلوم الاجتماعية. حيث نجد فيها بيانه المعروف، والذي على عالم الاجتماع أن ينظر إلى وظيفته/ وظيفتها باعتبارها حرفة. ويوضح ميلز وجهة نظره بالطريقة التالية:

"كن حرفيًا جيدًا: تجنب أي مجموعة صارمة من الإجراءات. قبل كل شيء، اسع إلى تطوير واستخدام الخيال الاجتماعي. تجنب أي رؤية سلعية في الأدوات والتقنية. ادع إلى إعادة التأهيل للحرفي المتواضع التفكير، وحاول أن تصبح مثل حرفي بنفسك. اجعل كل واحد صانعًا لطريقة منهجية خاصة به. فليكن كل انسان منظرًا. اسمح للنظرية والمنهجية مرة أخرى أن تصبح جزءا من الممارسة الحرفية. أكد على أسبقية العالم الفردي؛ وقم بمعارضة صعود فرق البحث من الفنيين". .(Mills 1959: 224)

لكن ميلز لا يحث عالم الاجتماع فقط على أن يكون حرفيًا جيدًا، ويذكر ما يستلزمه ذلك من حيث عادات واتجاهات العمل. ويحاول أيضًا تحديد أنواع الموضوعات التي ينبغي على عالم الاجتماع العمل عليها.

يشير "ميلز" إلى أفكاره حول هذا الموضوع باسم "التقليدية الكلاسيكية" (انظر أيضًا Mills 1960). إلا أن الأعمال في التقليدية الكلاسيكية لم يتم تعريفها من قبل ميلز بالطريقة التقليدية، مثل أعمال ذات جودة استثنائية وقيمة دائمة. وبدلاً من ذلك، يعرِّف ميلز التقليدية الكلاسيكية بأنها مجموعة من الأعمال في العلوم الاجتماعية تحتوي على محاولات أصلية عميقة للإجابة على الأسئلة الثلاثة التالية: ما هي بنية هيكل مجتمع بعينه؟ ما هو موضعها في التاريخ؟ ما طبيعة أنواع البشر التي تسود في هذه البنية؟

يذكر ميلز، أن التقليدية الكلاسيكية، يوفر لعالم الاجتماع العادي *نماذج عامة* لكيفية التعامل مع هذه الأسئلة. في الواقع، إن واحدة من نقاط القوة لهذه النماذج الكلاسيكية (كما قد نطلق عليها) هي بالتحديد أنها تمتلك القدرة على إلهام علماء الاجتماع لخلق نظريات جديدة من خلال الاعتماد على رؤاهم العامة.

تتمثل القوة الأخرى في أن رفض نظرية، والتي تم إنشاؤها بهذه الطريقة، لا يؤدي بالضرورة إلى إضعاف النموذج العام. يبدو أن السبب في هذا هو أن هذا

النوع من النماذج، في رأي "ميلز"، هو نوع واسع ومرن للغاية، وبالتالي يصعب إثبات خطأه.

ويعد البعد المعياري للتقليدية الكلاسيكية واضح تماما في إنتاج ميلز نفسه، من إنتاجه العلمي المبكر، فيما يخص العمال الأمريكيين، إلى عمله الأخير بشأن تهديد الحرب العالمية الثالثة. كما أنه ضمني أيضًا في حجته بأنه يجب على عالم العلوم الاجتماعية الجيد أن يكون لديه القدرة على ربط السيرة الذاتية الفردية بالتاريخ. فالمشاكل الخاصة هي قضايا عامة، ويمكن حل القضايا العامة من خلال السياسة.

وعند هذه النقطة، يجب أن يكون واضحًا أن هناك علاقة واضحة بين الوجهة القيمية لميلز، وبين نوعية الموضوعات التي ينتقيها كموضع للدراسة. كما ينبغي أيضًا أن يكون واضحًا أن مقاربة ميلز للنظرية الاجتماعية تختلف في عدة نقاط رئيسية، وهي فكرة ميرتون عن نظرية النطاق المتوسط. ومن أجل شيء واحد، لم يرفض ميلز النظرية العامة أو النماذج العامة، لاستخدام المصطلحات الخاصة به. كما زعم ميلز أيضًا أن علماء الاجتماع، المنخرطين بعمق في المشاكل الكبرى الخاصة بعصرهم، يحظون بفرصة أفضل في الخروج بموضوعات مثيرة للاهتمام للتنظير من أولئك الذين ليسوا كذلك.

دور المجتمع

من خلال هذا الكتاب أناقش أنه من الممكن لباحث العلوم الاجتماعية أن يتعلم كيف يُنظر، وكيف يمكن أن يؤدي ذلك لعلم اجتماع خلاق. كما أقترح أيضًا أن التنظير هو شيء ما تتعلمه من خلال الفعل الذي يجب أن تقوم به بنفسك.

ولقد استخدمت في دراسة سابقة اصطلاح الشخصانية في مقاربتي الخاصة بالتنظير، في محاولة لتوضيح أنني لم أساند هذا النمط من الفردية على الرغم من ذلك اعتقدت أنه من الأهمية بمكان التركيز على الفرد (Swedberg 2012). فالنقطة الأساسية في التنظير، وفقًا لوجهة النظر هذه، تكمن في تطوير أفكارك، وألا تلجأ إلى نظريات الآخرين.

ويختلف بعض الزملاء والأصدقاء، الذين على دراية بوجهة نظري، ويتفقون معي في أنه ينبغي للمقاربة الجديدة في التنظير أن تدعم، تأتي المسألة عند تأكيدي على أهمية الفرد. فهم يشعرون أن وجهتي تبدو موغلة في الفردية،

وأن هذا المجتمع، لا الفرد، يجب أن يكون في بؤرة التنظير (على سبيل المثال، Reed and Zald 2014).

وتتمثل حجتهم في كون العالم الفرد هو نتاج المجتمع، وأنه لا يمكن أن يحدث تقدم حقيقي في التنظير دون إدراك هذه الحقيقة الأساسية على نحو ملائم. وأنه بالتركيز على دور الفرد، بالتوازي مع الخطوط الأخرى التي أقوم بها، يكون الوقوع في فخ الفردية، وتجاهل العلاقة العضوية الموجودة بين التنظير والمجتمع.

تكمن استجابتي لهذا النقد في أنه من الصحيح واقعيًا أن العالم الفرد هو نتاج المجتمع، وأن كافة التغيرات الاجتماعية الرئيسية هي جماعية في طبيعتها. حيث أختلف في كوني أجد مراجع للتأثير على قوي للمجتمع في القدرة على التنظير تعد مثيرة للاحباط إلى حد ما. والسبب في ذلك يرجع إلى أنه من الصعب ترجمة نمط الرؤية إلى التوجيهات العملية للفرد. وبدلاً من ذلك، دعت مثل هذه التوجيهات إلى تحليل فرع من فروع علم اجتماع المعرفة التي تعد صحيحة، ولكنها أيضًا غير مفيدة جدا عندما تأتي إلى توفير خطوط ارشادية عملية لكيفية التنظير.

وعلى مستوى أكثر عمومية، فإن حجتي قام "وتنجشتين" بالتعبير عنها بشكل جيد في احدى بياناته الحاذقة:

"لو أصبحت الحياة صعبة في تحملها، فإننا نفكر في تغيير ظروفنا. لكن التغيير الاكثر أهمية وفاعلية، هو تغيير في اتجاهاتنا، بصعوبة يحدث لنا، ويعتبر اتخاذ القرار في مثل هذه الخطوة صعب جدًا بالنسبة لنا" (Wittgenstein 1980: 53e).

وأبعد من هذه النقطة، أناقش أيضًا الآتي. من الممكن بالفعل اليوم خلق شيء ما من **ثقافة التنظير الإبداعي في العلوم الاجتماعية**. مثل هذه الثقافة سيكون من شأنها أن تعني ليس فقط أن الطلاب سيكونوا قادرين على إيجاد مقررات للتنظير، وأن مثل هذه المقررات ستزودهم بقدر من الكفاءة في التعامل مع النظرية، حيث توفر أدوات منهجية يتم تقديمها في دورات اليوم بكفاءة في التعامل مع الحقائق. وهذا يعني أيضًا أن الطلاب، بمجرد أن يبدأون دراستهم في العلوم الاجتماعية، سيصبحون أعضاءًا في مجتمع يكون فيه التنظير إبداعي، ومستقل ذو قيمة عالية، ليس فقط كمهارة فاعلة، لا غنى عنها، تحتاج إلى اكتسابها من أجل إنتاج العلوم الاجتماعية الجيدة، ولكن أيضا كقيمة جوهرية في حد ذاتها.

ملحق

كيف تنظر وفقًا لتشارلز بيرس

ملحق (*)
كيف تنظر وفقًا لتشارلز بيرس

افترض، على سبيل المثال، أن لدي فكرة تهمني. فكرة من إبداعي. من صنيعتي، إنها شخص صغير. أحبه، وسوف أغرق نفسي في إتقانها. بروز الفكرة ليس من خلال التعامل مع العدالة الباردة إلى دائرة أفكاري التي يمكنني أن أجعلها تنمو، ولكن عن طريق تعزيزها ومتابعتها، كما كنت أزرع الأزهار في حديقتي.

تشارلز س. بيرس، في مقالته "الحب التطوري"

Charles S. Peirce, "Evolutionary Love" (1)

تعد بعض المقاربات في التنظير هي من دواعي الاهتمام عند هؤلاء الذين يسعون إلى التنظير بطريقة مبدعة. أحد أكثر الاقتراحات التي بدرت إلى ذهني تكمن في عمل تشارلز إس بيرس. وثمة الكثير من الإشارات إلى عمله في هذا الكتاب، وبخاصة عند كتابة المقدمة، والفصل الخامس الذي يعني بمسألة التفسير. إلا أن مقاربة بيرس تعد غنية جدًا حيث أنها تستحق توصيفاً كاملاً خاصًا بها. بداية هذا الكتاب كنهايته مع بيرس تشكل تكريمًا لائقاً لعمله.

سأركز بشكل رئيسي على موضوعين في هذا الملحق. الموضوع الأول هو الاستنباط، ولكن ليس الكثير من الاستنباط بشكل عام كنصائح عملية طورها بيرس لكيفية أن تصبح نصائح جيدة في تشكيل الاستنباط (انظر، على سبيل المثال، Paavola 2006 لمراجعة الأدبيات المتعلقة بالاستنباط) في القيام بذلك، سوف أضيف إلى حد كبير ما قيل في وقت سابق.

سأقوم أيضا بإيجاز رؤية بيرس للعملية البحثية بأكملها، ليس بالتركيز فقط على دور الاستنباط، كما يحدث عادة. في حين كان بيرس يحب أن يشير إلى أن الاكتشافات تتم عن طريق الاستنباط، فقد أكد دائمًا أن هذه العملية كانت فقط جزءًا واحدًا من عملية البحث. وفي الختام، سأناقش أيضا الاختلافات بين مقاربة بيرس للتنظير والمقاربة الأخرى التي أدافع عنها في هذا الكتاب.

---

* ترجم الملحق الدكتورة نيفين زكريا محمد أمين.

حياة صعبة

أولاً، مع ذلك، إن الوصف الموجز لحياة بيرس يعد تطوريًا، حيث أنه تأثر بشدة بأفكاره وبالطريقة التي استلم بها عمله (انظر تحديدًا Brent 1993). ولد تشارلز ساندرز بيرس (١٨٣٩–١٩١٤) في مجتمع الطبقة المتوسطة المتطورة التي كانت موجودة في كامبريدج، ماساشوستس، خلال منتصف القرن التاسع عشر. كان والده أستاذاً لعلم الفلك والرياضيات في جامعة هارفارد، واعتبره الكثيرون أفضل متخصص في الرياضيات بين أبناء جيله. وكانت والدته ابنة عضو مجلس الشيوخ.

ذهب بيرس إلى جامعة هارفارد، حيث حصل على درجة البكالوريوس في عام ١٨٥٩ وحصل على درجة الماجستير في عام ١٨٦٢. لكنه تلقى تعليمه في المنزل من قبل والده. إدراكاً من بيرس الأب لمهارات ابنه، قام بتعليمه باكراً المهارات الأساسية للعالم، مثل جيمس ميل الذي درس جون ستيوارت ميل. وبهذه الطريقة، تعلم بيرس علم الرياضيات والكيمياء.

في سن الثانية عشر، اكتشف بيرس المنطق، والذي من الآن فصاعدا سيكون أول تواصل عقلي خاص به. حيث قرأ أيضا على نطاق واسع في الفلسفة والعلوم من تلقاء نفسه. التحق بمدرسة لورانس Lawerence العلمية، وتخرج منها بدرجة بكالوريوس العلوم في عام ١٨٦٣.

خلال هذه الطرق المختلفة، وضعت الأسس لحياة في العلوم من شأنها أن تجعل بيرس ليس فقط متعدد المهارات في جوانب الثقافة، بل واحدًا من الأفراد القلائل الذين يمكنهم التنافس مع أرسطو من حيث اتساع المعرفة والأصالة.

ساعد بيرس على إيجاد البراغماتية والسيميائية. كان أول عالم نفسي تجريبي في الولايات المتحدة. كان رائدًا في عدة أشكال من المنطق الرمزي. يمكن إضافة هذا إلى أن لديه معرفة مهنية بالكثير من العلوم، مثل علم الفلك، وعلم القياس، والجيوديسيا، والفيزياء، والرياضيات، والفلسفة وتاريخ العلوم.

ولكن كان هناك أيضا جانبًا مظلمًا لبيرس. دفعه والده إلى نقطة الانهيار. وشارك الاثنان في مرض مؤلم للغاية كان معروفاً في ذلك الوقت باسم ألم عصبي للوجه، واليوم معروف بالتهاب العصب الثالث. استخدم بيرس مخدرات مختلفة لمحاربة الألم، مثل الأفيون والمورفين، والذي أصبح مدمنا لها.

كان بيرس أيضاً جامحًا، غير مبالٍ بالتقاليد الاجتماعية، وركز تماماً على

هدفه في خلق نوع جديد من المنطق. كان لديه القليل من المال، وفقد معظم ما لديه من خلال العديد من مخططات الثراء. كان هناك نزعة عنيفة في طبيعته، والتي تعرض لها بشكل خاص زوجاته وخدامه.

وتتدرج مهنة بيرس وكذلك حياته إلى مرحلتين متميزتين. في البداية كان يعمل بشكل مربح وكان جزءًا من مجتمع الطبقة المتوسطة المنعم الذي نشأ فيه. في عام ١٨٦١، بدأ العمل في المسح الساحلي والجيوديسي، وهو نشاط يوفر له دخلاً بالإضافة إلى فرصة للعمل على بعض المهام العلمية التي تشغله.

ومع ذلك تمثلت رغبته الرئيسية في العمل بدوام كامل في المنطق، ولديه مهنة أكاديمية. في عام ١٨٧٩، عندما تم تعيينه في جامعة جونز هوبكنز كمحاضر في المنطق، مع وعد بالتثبيت، بدا وكأنه في طريقه لتحقيق هذا الهدف.

وسرعان ما أظهر بيرس مهارته كعالم في كل من المسح الساحلي، والمسح الجيوديسي، وقدم إسهامات هامة عديدة للجيوديسيا. كما ازدهر عمله في جامعة جونز هوبكنز. تعد جامعة جونز هوبكنز أول جامعة بحثية في الولايات المتحدة، تأسست في عام ١٨٧٦، وكان بيرس أحد الأشخاص الذين ساعدوا في جعل الجامعة مكاناً يتم فيه تنفيذ العمل العلمي الأصيل.

كما قام بيرس بتدريب عدد من الطلاب الموهوبين بشكل استثنائي في جامعة جونز هوبكنز، حيث اعتلى العديد منهم الوظائف البارزة. وكان جوزيف جاسترو واحداً من هؤلاء، وقد وصف كيف تفاعل بيرس مع تلاميذه بالطريقة التالية:

شروط المساواة التي قابلنا بها لم تكن في طريق الإطراء، لأن طريقته في اتباع مبدأ المساواة كانت مفرطة في البساطة والصدق. كنا أعضاء في جماعته "العلمية"، كانت التحية موجزة، وشرعنا في العمل الذي جمعنا، حيث وجدنا متعة أكثر من أي شيء آخر. جاء هذا النوع من التعاون وتفويض المسؤولية أقرب إلى جهاز تربوي مثله كأي طريقة أخرى استخدمها بيرس (Jastrow 1916: 725).

بدأت المرحلة الثانية والصعبة للغاية من حياة بيرس في أوائل ثمانينات القرن السابع عشر، حيث تم رفض تثبيته لأول مرة في جامعة جونز هوبكنز. ثم تم تشويهه في التحقيق الذي يجريه الكونجرس في المسح الساحلي والجيوديسي، وأُجبر أخيراً على ترك منصبه هناك. ومنذ منتصف تسعينيات القرن التاسع عشر، وحتى وفاته في عام ١٩١٤، عاش بيرس في فقر شديد، وخارج النظام المجتمعي الذي نشأ فيه.

هناك العديد من الأسباب للنهاية المفاجئة لمهنة بيرس الرسمية. كان جامحًا، وغريب الأطوار. كان يفتقر إلى اللباقة عندما علّق على عمل زملائه العلماء. كما كان ينظر إليه بعض المواطنين البارزين باعتباره يفتقر إلى الأخلاق بسبب أفكاره غير التقليدية عن المسيحية، وأكثر من ذلك لأنه بدأ يعيش مع امرأة قبل أن يأتي طلاقه من زوجته الأولى.

ومن دون علم بيرس، فقد قام أيضاً بتحويل عالم زميل إلى عدو لدود، قام مراراً وتكراراً بمنع محاولاته اليائسة أكثر فأكثر للعودة إلى الأوساط الأكاديمية، أو على الأقل الحصول على منحة بحثية. كان اسمه سيمون نيوكومب، وهو عالم فلك وعالم رياضيات لا يُذكر اليوم إلا على أنه عدو بيرس. لم يعرف بيرس أبدًا عداء نيوكومب لكنه اعتقد أن الناس تآمروا ضده.

بعد منتصف ثمانينات القرن التاسع عشر، كان بيرس في بعض الاحيان بلا مأوى، وبلا طعام في الكثير من الاحيان. في عام ١٨٩٧ كتب لصديقه وليام جيمس، لقد تعلمت الكثير عن الفلسفة في السنوات القليلة الماضية، لأنها كانت سنوات بائسة وفاشلة، رهيبة أكثر من أي شيء يمكن لأي رجل عادي أن يفهم مثل هذه الظروف، أو أن يتصورها ... عالم جديد لا أعرف عنه شيئًا، وحيث لا يمكن أن أجد أي شخص قد كتب عنها بالفعل عرف عنها الكثير، وقد تم الكشف عنها لي، عالم البؤس (Brent 1993: 258-59).

وخلال الفترة الثانية من حياته عاش بيرس بشكل رئيسي مع زوجته الثانية، جولييت بورتالاي، في ميلفورد، بنسلفانيا، في منزل دعاه بأرسبي. وقد أقاموا في هذا المنزل في معظم فصول الشتاء التي لا يستطيعون تحمل نفقات تدفئة المنزل، وكان هناك القليل لتناول الطعام. ونتيجة لذلك، سرعان ما عانى بيرس وزوجته من سوء التغذية والأمراض المختلفة.

حاول بيرس، طوال سنوات معاناته الشديدة، أن يكمل المهام التي حددها لنفسه كشاب، خاصة لوضع نوع جديد من المنطق. لم يكن قادرا ماليًا على مواكبة الأدبيات العلمية، وكثيرا ما كان عليه أن يكتب خلف صفحات المخطوطات القديمة.

وعلى الرغم من هذه الشدائد، فقد حافظ بيرس بإصرار على التفكير والكتابة. وبعد إقالته من جامعة جونز هوبكنز، أنتج حوالي ثمانين ألف صفحة من المخطوطة. معظم هذه المواد، ومعظم كتبه، تم التبرع بها لجامعة هارفارد بعد وفاته في عام ١٩١٤. واحتفظت زوجته ببقية كتاباته وكتبه، التي إما فقدت، أو أحرقت من قبل المالك الجديد لأرسبي، بعد وفاتها في ١٩٣٤.

رؤية بيرس للعملية البحثية

من الصعوبة بمكان أن نختصر في عجالة موقف بيرس بشأن أية قضية، وهذا يعد صحيحًا بالنسبة للطريقة التي يرى من خلالها العملية البحثية كنوع من التدريبات، قد قام بوصفها لهؤلاء الذين رغبوا أن يتعلموا كيف يُنظرون. ولهؤلاء الذين يهتمون بهذين الموضوعين، فإني أوصي بالكتابات الآتية تحديدًا: "التدريب في المنطق" (محاضرة من عام ١٨٩٨)؛ "كيف تنظر" (محاضرة من ١٩٠٣)؛ و"التخمين" (مخطوطة من حوالي ١٩٠٧) (Peirce 1929; 1935b; 1992b).

لدى رؤية بيرس في العملية البحثية أصلين أساسيين: عمله في مجال العلم، واهتمامه بالمنطق. فمن خلال تدريبه العلمي، كان بيرس على دراية بآلية تنفيذ التجارب العملية؛ ومن خلال عمله في مجال المنطق، أصبح شغوفًا جدا باكتشاف الطريقة الأكثر فاعلية في التفكير. وفي عمله لاحقًا امتدت وجهة نظره في المنطق إلى فلسفة أكثر رحابة امتدت لتشمل العملية البحثية.

كان بيرس ينظر إلى العملية البحثية من حيث المراحل، وتتطلب كل مرحلة شكلها الخاص في التفكير. فلقد اعتقد أن بإمكان العالم أن يتدرب على هذه الطرق في التفكير كما يدرب نفسه. وبعد أرسطو، دعا بيرس إلى اتباع هذه المراحل وهي الاستنباط abduction، والاستدلال deduction، والاستقراء induction.

ما كان قابلا للتطبيق على المنطق بالنسبة لأرسطو، وسع بيرس الطريق الذي ينبغي على البحث العلمي أن يتبعه بشكل عام. كما استثمر كل من المصطلحات الثلاثة لأرسطو–الاستنباط، والاستدلال، والاستقراء– في معنى مميز خاص به.

واعتقد بيرس أن الاستنباط، أو عملية الإتيان بفكرة علمية جديدة عادة ما ترتبك مع عملية الاستقراء:

"لم يسهم شيء بقوة في تقديم الأفكار الفوضوية، أو الخاطئة لمنطق العلم كالفشل في التمييز بين الأساليب المختلفة الأساسية للعناصر المختلفة للمنطق العلمي. تتمثل واحدة من أسوأ هذه التشوشات، بالإضافة إلى واحدة من أكثرها شيوعا، فيما يتعلق بالربط بين الاستنباط والاستقراء معا (غالبا ما يختلط ذلك أيضا بالاستدلال) باعتباره جدلًا بسيطًا". (Peirce 1958a: 218)

ووفقًا لبيرس، ومن أجل أن تصبح عالمًا جيدًا، فإنه من المهم أن تدرك أنه ينبغي على العملية البحثية أن تصيغ ثلاثة أنماط مختلفة من التفكير، وأن كل نمط على حدا ينبغي أن يستخدم في مهمة تختلف عن الأنماط الأخرى. فأنت تبدأ بمحاولة

الإتيان بفكرة جديدة (الاستنباط) (abduction). بعد ذلك، فإنك تتحرك في تطوير فرضيات من خلال هذه الفكرة (الاستدلال) (deduction). وتتركز المرحلة الأخيرة في العملية البحثية حول اختبار مثل هذه الفرضيات (الاستقراء) (induction).

بإمكانك أن تطور مهارتك في الاستدلال والاستقراء من خلال الممارسات العملية. لكن الاستنباط، على النقيض، ليس شيء ما يمكنك بسهولة تدريب نفسك عليه. فيجب عليك بشكل أساسي أن تأمل في أن تأتي بفكرة جديدة، وأن ترى بطريقة ما أنك تفعل ذلك.

طور بيرس نظامًا معقدًا من الفكر على مدار السنين، حيث كان كل نمط من هذه الأنماط الثلاثة من التفكير مرتبطاً بنظام، من العلامات بالإضافة إلى نظريته في علم الكونيات. بما أن هذا الجزء من فكر بيرس ليس له أي أثر يذكر على الجوانب العملية من وجهة نظره حول عملية البحث، فسوف أنحيه جانباً هنا.

الخطوة الأولى في الاستقصاء: الاستنباط

محور فكرة بيرس عن العملية البحثية تتمثل في فكرته عن الاستنباط. حاول بيرس، من خلال حياته، أن يفهم كيف تصنع الاكتشافات العلمية من منظور العالم، وأصبحت الكثير من هذه الأفكار عن هذا الموضوع جزءًا من فكرته حول الاستنباط.

وعند نهاية حياته، قرر بيرس أن يكتب "كتاب صغير" يمكن من خلاله أن يقدم "الطبيعة الحقيقية" للاستنباط. ومثل الكثير من المشروعات التي حاول أن ينفذها خلال سنوات فقره، لم يكتب لمشروع الكتاب الاكتمال (Fann 1970: 60).

وتبدأ العملية البحثية، وفقًا لبيرس، بالاستنباط، أو محاولة الإتيان بفكرة لتفسير شيء ما. وكما هو واضح من المحاضرة "كيف تُنظر" "How to Theorize" (١٩٠٣)، ومن خلال مصطلح الاستنباط، قصد بيرس تقريبا ما عناه بالنسبة للتنظير.

يمكن للمرء الحصول على فكرة جيدة لكيفية نظر بيرس إلى دور الاستنباط في عملية البحث من خلال دراسة اثنين من الاقتباسات التالية. وكلاهما يوضح أن الحصول على فكرة هو عملية أكثر من مجرد وجود شعاع من البصيرة المفاجئة.

الاقتباس الأول، حيث تقف (أ) للاستنباط، كإيجاز مثالي:

ملاحظة الحقيقة المذهلة جيم (ج)

ولكن إذا كانت (أ) صحيحة، فستكون (ج) صحيحة بطبيعة الحال.
وبالتالي، هناك سبب للاشتباه في أن (أ) صحيحة.

(Peirce 1934a: 189)

ويوضح الاقتباس الثاني طبيعة الاستنباط بطريقة فينومينولوجية، وليس بطريقة منطقية:

أمامنا كتلة من الحقائق. نذهب عبرها. نحن نفحصهم. نجدهم في تشابك مرتبك، غابة لا يمكن اختراقها. نحن غير قادرين على الاحتفاظ بهم في أذهاننا. نسعى إلى وضعهم على الورق؛ ولكن يبدو ذلك معقدًا للغاية بحيث لا يمكننا أن نثبت لأنفسنا بأن ما وضعناه يمثل الحقائق، ولا يمكننا أن نحصل على أي فكرة واضحة عما وضعناه. ولكن فجأة، وبينما نتأمل في خلاصة الحقائق لدينا ونسعى جاهدين لوضعها في النظام، فإنه يحدث لنا أنه إذا كنت ستفترض شيئًا أن يكون صحيحًا أننا لا نعرف ما إذا كان صادقًا، فإن هذه الحقائق سترتب نفسها بألمعية. هذا هو الاستنباط (Peirce 1997: 282).

يستحق كل عنصر من العناصر المختلفة التي تصنع عملية الاستنباط تعليقًا مختصرًا. ووفقًا لبيرس، أنت تبدأ من خلال العمل على بعض المشكلات. وتستمر في ذلك حتى تجد شيئًا ما مفاجئًا، وهذا ما تريد أن تفسره.

أنت الآن تركز ملاحظتك كما تأمل أن تكون قادرًا على الإتيان بتفسير. ومن أجل القيام بذلك، فإن عليك أن تخمن. أو بشكل أكثر دقة، يجب أن تخمن من أجل الإتيان باقتراح للتفسير، حيث أنه من غير الممكن أن تعرف قيمة التفسير حتى يتم اختباره في مواجهة الحقائق.

وتلعب المفاجأة دورًا رئيسًا في إصدار بيرس بشأن الاستقصاء. أنت تدرس شيئًا ما حتى تواجه ببعض الظواهر المفاجئة، وأن هذه هي الظاهرة هي التي تحتاج إلى تفسير. فالظاهرة تكون مفاجئة، لأنه بناءًا على معرفتك فإنك ستتوقع حدوث شيء آخر.

ويكتب بيرس:

"تبدأ العملية ككل من الاستنباط، والتي توصف الآن. فحدوثها يعد في حد ذاته مفاجأة. بمعنى، بعض المعتقدات، السلبية أو الإيجابية، المصاغة أو غير المصاغة، قد تم الاستغناء عنها حالاً" (Peirce 1998a: 287).

في وقت اندهاشك، فإنك تستمر وستركز في ملاحظتك أيضًا. فأنت تقوم بتكبير وتصغير ما أدهشك، من أجل إيجاد تفسيرًا له. إنك تقوم بذلك على أمل أن

تكون قادرًا على اكتشاف تفسيرًا لما يحدث. انت تأمل شيئين: أن يوجد تفسيرًا، وأنك سوف تكون قائمًا على إيجاده.

هناك عددًا من التفسيرات الممكنة، كما يقول بيرس، والمشكلة هي الإتيان بالتفسير الصحيح. ويكتب:

"أننا ملزمون أن نأمل في أنه على الرغم من أن التفسيرات المحتملة للحقائق الخاصة بنا قد تكون لا حصر لها بشكل دقيق، إلا أن عقولنا ستكون قادرة، في بعض التخمينات المحدودة، على تصور التفسير الحقيقي الوحيد لها. أننا لا بد أن نفترض، بشكل مستقل عن أي دليل على صحة ذلك. ومن خلال هذا الأمل، سنشرع في صياغة فرضية". (Peirce 1958a: 219)

وتتمثل الطريقة التي يسلكها العالم حول إيجاد التفسير الصحيح في التخمين. وباعتبارنا بشر، فإننا نولد مزودين بطريقة أو بأخرى بالقدرة على التخمين الصحيح، أو على الأقل بشكل صحيح بالمقارنة مع التخمينات العشوائية الخاصة بنا.

وفي النهاية، فإن مثل هذه الموهبة في التخمين لها علاقة بالقدرات الغامضة للعقل البشري، وأننا جزء عضوي من الكون ذاته الذي ندرسه:

أنا أستنتج في المقام الأول أن الإنسان يفسر شيئًا من المبادئ السرية للكون، لأن عقله قد تطور كجزء من الكون، وتحت تأثير هذه المبادئ السرية نفسها؛ وثانياً، أننا غالباً ما نشتق من ملاحظة الإيحاءات القوية التوصل إلى الحقيقة، دون أن نكون قادرين على تحديد ما هي الظروف التي لاحظناها والتي نقلت إلينا تلك الإيحاءات (Peirce 1929: 281-82).

يأتي الاقتباس من مقال بيرس بعنوان "التخمين"، والذي يناقش فيه أيضًا الدور الذي تلعبه خبراتنا كعلماء ينتهجون آلية التخمين. في حين أنه من الضروري أن يكون لدينا معرفة جيدة بما يقوله العلم، لكي نفاجأ بشيء غير معروف، فإن هذه المعرفة لا تفعل سوى القليل من أجل قدرتنا على التخمين الصحيح:

قد نكون مدعومين بالمعرفة السابقة في تشكيل فرضياتنا. في هذه الحالة، لن تكون هذه مجرد تخمينات محضة، بل ستكون مركبات معقدة من استدلالات يتم استنباطها من القواعد العامة التي نعرفها بالفعل، والتي تنطبق على الوقائع تحت الملاحظة، لمكون واحد، وتخمين محض، من أجل المكون الآخر (Peirce 1929: 268).

من خلال التخمين، فإننا نأتي بتفسير مؤقت. وفي حين يعني هذا النشاط أننا قمنا بعمل جديد ومبدع، فإن معظم التخمينات تكون خاطئة. وما إذا كان التخمين صحيحًا أم خاطئًا، فهو أمر لا يمكننا معرفته قبل اختبار التفسير المقترح. ولهذا السبب، لا يمكن، بأي حال من الأحوال، أن يمثل الاستنباط نهاية الاستقصاء.

الخطوتين الثانية والثالثة في الاستقصاء: الاستدلال والاستقراء

للتكرار، يجب أن يتبع الاستنباط، عمليتي الاستدلال والاستقراء كي يكون الاستقصاء مكتملاً، وأن تكون المساهمة العلمية ممكنة. يمثل كل من الاستدلال، والاستقراء طرقًا مختلفة في التفكير، وكذلك المراحل التي تمر عبرها بمجرد القيام بعملية الاستنباط.

الاستدلال هو نوع من "المنطق الضروري"، من حيث أنه يجب أن يتقدم حصريًا وفق المنطق، وليس له علاقة بالحقائق (على سبيل المثال، Peirce 1958a: 207). فأنت تقوم بالاستدلال على ما هو ضمني في عملية الاستنباط.

يجب القيام بمهمتين مختلفتين خلال مرحلة الاستدلال (Peirce 1935: 470–72). أولاً، يجب وضع التفسير المقترح، أو الاستنباط في الشكل الملائم، أي أنه يجب أن يكون مثل هذا الاستنباط مدعومًا، وواضحًا قدر الإمكان. ثانيًا، يجب أن تُشتق الفرضيات القابلة للقياس من النظرية المقترحة.

بمجرد صياغة فرضيات قابلة للاختبار، يجب وضعها أمام الحقائق، ويتم ذلك من خلال مرحلة الاستقراء. فأنت، في الأساس، تريد معرفة ما إذا كان الاستنباط صحيحًا أم لا. ويصف بيرس نوع الاختبار الذي هو سمة من سمات الاستقراء "البحث التجريبي" (على سبيل المثال، Peirce 1958b: 209).

واعتمادا على هذا الموقف، سوف يتخذ الاستقراء أشكالا مختلفة. فإذا كان من الممكن قياس المادة التجريبية، فأنت تريد المتابعة بطريقة واحدة؛ إن لم يكن، بطريقة أخرى. وعادة ما تتضمن نظرية الاحتمالية هذه المرحلة.

كذلك تأتي المخاوف الاقتصادية في الصورة في مرحلة الاستقراء. لدى العالم كمية محدودة من الوقت، والطاقة، والمال. كما يشرح بيرس في كتاباته عن "اقتصاد البحث"، يجب أن تؤخذ هذه الموارد في الاعتبار بعناية، عندما يقرر العالم متابعة أي من هذه الفرضيات (Peirce 1958a: 139–61, 206).

كيفية إجراء استقصاء وفقا لتشارلز إس بيرس

١- ابدأ البحث، واستمر حتى يدهشك شيء ما. (الاستنباط، الجزء الأول).
٢ - لاحظ بتركيز ما يدهشك. (الاستنباط، الجزء الثاني).
٣- آمل أن يكون هناك تفسير للحقائق المفاجئة، وتخمين ما قد يمكن أن يكون. (الاستنباط، الجزء الثالث).
٤- تحليل التفسير المؤقت، وتحويله إلى فرضيات واضحة، وقابلة للاختبار. (الاستدلال).
٥- لأسباب تتعلق باقتصاد البحث، حدد فرضية واحدة للعمل عليها. (الاستقراء، الجزء الأول).
٦ - اختبار الفرضية في مقابل البيانات. (الاستقراء، الجزء الثاني).

طرق تدريس بيرس ونصائح عملية لكيفية أن تصبح جيدًا في عملية الاستنباط

في حين أن بيرس لم يقم أبدًا بتطوير عقيدة علم أصول التدريس، فقد أشار من وقت لآخر إلى أفكاره حول هذا الموضوع (على سبيل المثال، Liszka 2011; Beauchamp 2012). وكان موقفه العام من التعليم عمليًا أيضًا وليس مجرد استخلاصات، ونظريات. يمكن أن يتجلى هذا من خلال اهتمامه الدائم بكيفية تعليم الطلاب تدريب أنفسهم على التفكير المنطقي.

يمكن العثور على مثال جيد لهذا في محاضرة عن "التدريب في المنطق" التي قدمها بيرس في جامعة كامبريدج، ماساتشوستس في عام ١٨٩٨. بدأ المحاضرة بالقول أنه يعارض وجهة النظر الحاكمة لعلم أصول التدريس في الولايات المتحدة، وبدلا من ذلك بيرس يؤمن "بالتعليم الليبرالي" (Peirce 1992b: 398). ووفقا لبيرس، في التعليم الليبرالي، تقوم بتعليم الطلاب "فن التفكير"، بدلا من بعض المعرفة المحددة (Peirce 1992b: 398).

تتوافق الحجة في هذه المحاضرة بشكل جيد مع وجهة نظر بيرس لمهمة الجامعة الحديثة. ففي الجامعة الحديثة، يجب أن يتعلم المعلمون والطلاب معًا. لا يوجد مكان للتدريس في أي جامعة، والتي تعد بشكل حصري مؤسسة تعلم (على سبيل المثال، Fisch 1986: 35–36).

يوضح بيرس في "التدريب على التفكير" "Training in Reasoning" ثلاث عمليات مختلفة، والتي تشكل معا فن التفكير، حيث ينبغي تعليم هذا للطلاب. تتمثل

هذه العمليات في: الملاحظة، والتجريب، والتعود. هذه الأشكال الثلاثة ليست هي نفسها مثل الاستنباط، والاستدلال، والاستقراء. ومع ذلك، فهذه العمليات تساعد الطالب على التفكير بفعالية، كما أنها مفيدة إذا أراد أو أرادت لاحقًا المشاركة في البحث العلمي.

تركيز بيرس في "التدريب في المنطق" هو تدريب على فن التفكير، ومن خلال ذلك يكون تدريبًا عمليًا. لأولئك القراء الذين يرغبون في تطوير قدراتهم الخاصة للاستنباط، هذا هو النص الرئيسي.

وفقًا لبيرس، لكي تكون جيدًا في الملاحظة، عليك أن تطور نوعًا من التفكير السلبي بشكل أساسي. وبهذا، فهو يعني أنه يجب عليك أن تتعلم ليس لعدم التدخل في ما يجري. بل يجب أن تستسلم له.

من خلال الملاحظة، عليك أن ترسم كلاهما، أي التدخل والاستسلام للحقائق، على قدرتك على "الاستقراء اللاشعوري"، وعلى "الوعي الأعلى" الخاص بك (Peirce 1992b: 397, 400). ويرتبط الأول بـــ "قوتك الترابطية"، ومن أجل الاستفادة منه، يجب أن تكون مرتاحًا، وأن تحاول استيعاب أكبر قدر ممكن مما تدرسه.

بمجرد الانتهاء من ذلك، يأتي دور الوعي الأعلى. بمساعدة هذا الضمير، تحاول فهم بنية كل ما تدرسه. وهناك دائما الإغراء للسماح للوعي الأعلى العلوي بتولي ودفع الجزء الخاص بالعقل الباطن من عقلك إلى هذا الجانب، والذي يجب ألا يُسمح بحدوثه على الإطلاق، وفقاً لبيرس، وإلا فإنك تخاطر ولن تتمكن من فهم الظاهرة المبحوثة على الإطلاق.

وكما يقول: إن الطريقة التي تصبح جيدة في الملاحظة، هي المشاركة في العديد من التمارين لزيادة قدرتك على التمييز. يميز بيرس بين مراقبة الأشياء، والعواطف، والحالات العقلية، لكنه لا يحدد أي التمارين الجيدة لكل منها. ومع ذلك، ومن خلال المشاركة في التدريبات التي تعزز من احساسك بالتمييز لمدة شهر واحد فقط، كما يقول، من الممكن إحراز تقدم كبير.

العنصر الثاني في فن التفكير هو *التجريب*. وهو مختلف تمامًا عن الملاحظة، حيث يناشد إحساسك بالنشاط بدلاً من السلبية. ما يهم هنا هو الطاقة، والمثابرة، وقوة الإرادة. يقول بيرس أن الطريقة الجيدة لتدريب قدرتك على التجريب هي رفع الأثقال.

جزء مهم من تعلم كيفية التجربة هو الاحتفاظ بالسجلات. "كل شيء يستحق الملاحظة يستحق التسجيل" (Peirce 1992b: 408). إذا كنت تأخذ ملاحظات دقيقة وتحفظها، فبعد بضع سنوات سيكون لديك مجموعة قيمة تساعدك على أن تكون مفكراً فعالاً للغاية.

نقطة أساسية يجب تذكرها، عند تتبع المعرفة بهذه الطريقة، هي أنه يجب عليك الاحتفاظ بملاحظاتك بطريقة تمكنك من الوصول إليها بسرعة. يجب أيضًا أن تكون قادرًا على "**إعادة ترتيب**" مثل هذه الملاحظات بسهولة (Peirce 1992b: 408؛ التأكيد في النص الأصلي).

النوع الثالث من التفكير المنطقي، والذي يعد مهمًا لفن التفكير هو التعود، وهو ما يعني بالنسبة لبيرس قدرتك على تكوين عادات عقلية جديدة وتخليص نفسك من العادات القديمة. وتوصف العادة العقلية باعتبارها "رابطة للأفكار" (Peirce 1992b: 411).

واتساقًا مع بيرس، يعاني الأطفال من مرونة العقل التي يفتقر إليها البالغون، ومن المهم محاولة إعادة بناء هذه القدرة في نفسك. "أن تكون فيلسوفا، أو عالمًا، يجب أن تكون طفلاً صغيراً، بكل صدق، ورؤية الطفل الساذجة، مع كل مرونة عادات الطفل العقلية" (Peirce 1992b: 412).

تكمن الطريقة الجيدة في تطوير قدرتك على التعود في قراءة الكتب الشيقة؛ وكذلك في إجراء محادثات مع الناس المعنية، فهذه الأنواع من النشاط لها تأثير إيجابي، ومع ذلك، عليك أن تدخل بعمق في المنظور الذي يتبعه المؤلف أو شريك المحادثة. وبينما الدخول في منظور الآخرين ليس من الصعب بشكل خاص، وفقا لبيرس، فإنه من الصعب أيضًا العثور على الكتب الجيدة والأشخاص المثيرين للاهتمام.

هناك أيضا بعض التمارين الأخرى التي يمكن استخدامها لتعزيز قوتك في التعود. التمرين الأول هو تدريب نفسك على كيفية تقسيم الموضوع، وتصنيفه. الآخرون يملكون عندما يكون هدفهم تعليمك كيفية بناء التعريفات وتحليل الأفكار. كما أنه من المفيد التعبير عن النظريات والأفكار الجدلية في كلمات قليلة، وبطريقة موجزة قدر الإمكان.

يمكنك، في كتابات بيرس، العثور على العديد من النصائح العملية الأخرى لكيفية تطوير أفكارك. بعض هذه النصائح لها علاقة بالنشاط الذي نسب إليه بيرس

أهمية خاصة منذ سنواته الأولى. هذه هي القدرة على الفكرة الخيالية المرحة، أو ما يطلق عليه بيرس "مسرحية موسى" (Peirce 1935: 452–65).

وتنتمي الفكرة الخيالية المرحة لعائلة واحدة مثل الاستقراء الباطني الذي يشير إليه بيرس في "التدريب على التفكير المنطقي". ويمكن استخدام هذا الاستقراء لتحديث عقلك، وأيضا عندما يكون لديك مشكلة تبدو "غير قابلة للحل تماما" (Peirce 1935: 460).

أفضل طريقة للانخراط في الفكرة الأساسية تتمثل في القيام بنزهة عند الفجر أو عند الغسق. يوصي بيرس بإنفاق من ٥ إلى ٦ في المائة من وقت الاستيقاظ بهذه الطريقة، وهو ما يعني شيئًا مثل ساعة واحدة يوميًا. خلال هذا الوقت السحري، يجب أن تذهب فقط:

ادخل زورقك الشراعي الصغير، ادفعه في بحيرة التفكير، واترك أنفاس السماء لتنفخ شراعك. بعيونك المفتوحة، استيقظ على ما يدور حولك أو ما في داخلك، وافتح محادثة مع نفسك، مثل هذا هو كل التأمل. (Peirce 1935: 461)

قبل مغادرة بيرس ونصائحه العملية حول كيفية الانخراط في الفكرة الخيالية، يجب أن نشير مرة أخرى إلى أنه لم ير محاولاته لزراعة اللاوعي، باعتبارها غير علمية. بينما كان بيرس يعمل في جامعة جونز هوبكنز في ثمانينيات القرن التاسع عشر قام بتجربة على اللاوعي، وكيف يمكنك تحسين وصولك إليه (Peirce and Jastrow 1885؛ انظر أيضا Peirce 1868).

سبب واحد لماذا لا يزال المقال الذي أنتجه، بعنوان "على اختلافات صغيرة"، في هذا الصدد مع تصميم البحوث المتطورة، والذي يتضمن الاستخدام المبكر للعشوائية (على سبيل المثال، Hacking 1988). سبب آخر هو الطريقة الذكية التي قام بها الباحثون بالتحقيق في اللاوعي، أو بشكل أكثر دقة، الطريقة التي يمكن بها للناس أن يستخلصوا بطريقة معينة ما يحدث في اللاوعي لديهم.

أخذ كل من "بيرس" و"جاسترو"، نقطة انطلاقهما من النتيجة الشهيرة لفيشنر أن الناس لديهم حدود، حيث أنهم غير قادرين على استيعاب الاختلافات الصغيرة في الأحاسيس. كان اكتشافهم الرئيسي في أن "فيشنر" لم يكن على صواب، وأن الناس يتصورون مثل هذه الاختلافات الصغيرة – ولكن دون أن يدركوا ذلك.

بالتعميم على هذه النتيجة، يستنتج المؤلفون المقالة على النحو التالي:

نحن نجمع ما يمر في عقول بعضنا البعض إلى حد كبير من الأحاسيس التي

تصاب بالإغماء لدرجة أننا لسنا على دراية كافية بوجودها، ولا يمكن أن نعطي أي حساب كيف نصل إلى استنتاجاتنا في مثل هذه الأمور. ويمكن تفسير هذه النظرة الثاقبة للإناث بالإضافة إلى بعض ظواهر "توارد الخواطر" بهذه الطريقة. **مثل هذه الأحاسيس الباهتة يجب أن تدرس بشكل كامل من قبل علماء النفس وأن يتم زرعها بعناية في كل فرد.** (Peirce and Jastraw 1885: 83؛ تمت إضافة التوكيد)

ملاحظات ختامية

إذا قمت بمقارنة نسخة التنظير التي تم تقديمها في هذا الكتاب بكتاب بيرس، فسوف تجد أوجه تشابه وكذلك اختلافات. بالنسبة إلى التشابهات، فإن ما أسميه التنظير الإبداعي هو قريب من بعض أفكار بيرس عن الاستنباط، حتى لو ركزت بشكل أساسي على اكتشافات متواضعة للغاية. مثل بيرس، حاولت أيضًا أن أجادل بأن التنظير جزء من عملية البحث ككل، حيث يُنظر إلى اختبار النظرية في مقابل الحقائق على أنه جزء ضروري.

لكن توجد بعض الاختلافات أيضًا. بينما يقوم بيرس بتقسيم عملية البحث إلى الاستنباط، والاستدلال، والاستقراء، أقوم بتقسيمه إلى الدراسة التمهيدية، والدراسة الرئيسة. يحدث التنظير من خلال كل هذه العمليات، ولكن بطرق مختلفة إلى حد ما.

هناك مسألة أخرى تستحق الذكر، وهي أن عملية البحث الخاصة ببيرس مصممة بشكل وثيق في العلوم الطبيعية. وعلى النقيض، فإن حجتي حول التنظير، تتعامل فقط مع العلوم الاجتماعية. لا يوجد في عقلي أي سبب مقنع لماذا يجب أن ترسم خطًا حادًا بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية. لا يزال، يبدو ذلك في التعامل مع العلوم الاجتماعية، فإنك يجب أن تولي اهتماما أكبر، وربما أيضا نوعا مختلفا من الاهتمام، إلى مثل هذه الظواهر مثل اللغة، والمعنى، والذاتية.

بالنسبة لبيرس، يبدو أن الاكتشافات مدفوعة بشكل أساسي بالمفاجآت، لكن من وجهة نظري قد تكون هناك أسباب أخرى أيضًا. يمكنك ببساطة أن تكون مهتمًا بشيء ما، أو مفتونًا بشيء ما، أو مدفوعًا بدوافع غير علمية مختلفة لدراسة شيء ما، بما في ذلك السياسة والدين. إن الإدعاء بأن الاكتشاف يمكن أن يحدث فقط كرد فعل على المفاجأة لا يبدو مفيدا للغاية.

قد يكون هذا هو الحال، الذي يصفه أيضا بيرس في بعض الأحيان عملية البحث بطريقة تخطيطية جدا، وخصوصا عندما يشير إلى المراحل الثلاث؛ الاستنباط، والاستدلال، والاستقراء. وتشكل الرسالة التي يحصل عليها القارئ في هذا الإجراء بهذا الترتيب أفضل طريقة للقيام باكتشاف.

غير أن هذه النظرة للأمور قد لا تعكس تعقيدًا لما يجري عندما يحدث الاكتشاف، ومن ثم فإن تعريض الباحث لمخاطر يعد نوعًا خاطئًا من النصيحة. ما هو متضمناً أيضًا هو محاولة من جانب بيرس لوضع نموذج لعملية البحث عن كثب بعد المنطق.

في النهاية، بالطبع، هذه هي نقاط صغيرة مقارنة مع الأفكار الخالصة الحقيقية لبيرس. إن خلق فكرة جديدة وعلى قيد الحياة، هو مثل ولادة طفل بالنسبة لبيرس. كذلك هي الحالة فإن كتاباته تشكل مصدراً لا ينضب تقريباً للثراء لأي شخص مهتم بالتنظير. وعلى المستوى العملي، وبالنسبة لكل موضوع في عملية التنظير، تحدثت عنه في هذا الكتاب – مثل الملاحظة، والتسمية، والتفسير، وهكذا– كان عمل "بيرس" مصدراً كبيراً للإلهام. أعتقد أن الطلاب الآخرين في العلوم الاجتماعية المهتمين بالتنظير سيجدون أيضًا عمل بيرس مجزٍ للغاية.

الهوامش

الهوامش

الفصل الأول

(1) Coleridge 1812: 132.

(٢) وفقًا لجنيفر بلات Jennifer Platt، لا يُعرف سوى القليل عن الدراسات التجريبية (Platt 2011، انظر، على سبيل المثال: van Teijlingen and Hundley 2001). يمكن وصف الدراسات التجريبية على أنها عمليات تجريبية غير رسمية. يريد المرء، على سبيل المثال، معرفة ما إذا كان قسما من الاستبيان سيكون مفيدا أم لا. في المقابل، يتم إجراء دراسة استكشافية في العادة عندما لا يعرف الشخص سوى القليل جدًا عن الموضوع، لكنه لا يريد إجراء دراسة كاملة. وفقًا لروبرت ك. ميرتون وهارييت زوكرمان Robert K. Merton and Harriet Zuckerman، "يمكن أن تأخذنا الورقة الاستكشافية بمشكلات موضوعنا: صياغة الأسئلة الرئيسية التي ينبغي البحث فيها مع الأساس المنطقي للنظر فيها باعتبارها أسئلة تستحق البحث" (Merton and Zuckerman 1973: 497–98, 559). تختلف الدراسة القبلية عن كل من الدراسة التجريبية والدراسة الاستكشافية من حيث أنها تهدف إلى أن تكون جزءًا أساسيًا من الدراسة الكاملة. والغرض منها أيضا النظرية في المقام الأول.

الفصل الثاني

(1) Doyle 1892: 7.

الفصل الثالث

(1) Whitehead 1929: 4; cf. Parisi 2012: 232.

الفصل الرابع

(1) Bacon 1902: 72.

الفصل الخامس

(1) Peirce 1902: 427.

الفصل السادس

(1) Polya 1954: 68.

الفصل السابع

(1) Wittgenstein 1980: 24e.

(٢) السطر الأول: مجموع المؤسسات (Goffman 1961)، السطر الأخير: زرع الأيدي (Hughes 1984b: 570–71). السطر الثاني هو مثال تم اختراعه.

الفصل الثامن

(1) Peirce and Ladd-Franklin 1902: 693.

الفصل التاسع

(1) Dickinson 1914: 29.

الفصل العاشر

(1) Whewell 1860: 134.

الملحق

(1) Peirce 1893: 178.

المراجـع

المراجع

لا يوجد في الوقت الحالي العديد من الكتب والمقالات التي تتناول مسألة كيفية التنظير بطريقة عملية وإبداعية في العلوم الاجتماعية. حاولت أن أناقش أسباب هذه الحالة في نسخة أولية من أطروحتي والتي صدرت في مقالة بعنوان، "التنظير في علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية: الانتقال إلى سياق الاكتشاف" (سويدبرج ٢٠١٢). ومع ذلك، هناك عدد كبير من الكتب والمقالات التي تحتوي على مقاطع قصيرة ومقاطع ذات أهمية كبيرة. وقد أدرجت بعض هذه في قائمة المراجع التالية.

من وجهة نظري، أرى أن تشارلز س. بيرس وماكس فيبر هما المؤلفان اللذان طورا المدخل الأكثر تعليما والأكثر فائدة في التنظير. العيب عند كل منهما هو أن ما يقولونه حول هذا الموضوع منتشر بطول كتاباتهم ولا يمكن تحديد موقعه بسهولة. وعلى الرغم من أن كتاباتهم مثيرة للغاية، إلا أنها صعبة وتستغرق وقتاً طويلاً.

يعد بيرس أكثر وضوحا من فيبر حول ما يدور في التنظير. ومن ناحية أخرى، يهتم بشكل أساسي بالعلوم الطبيعية. أما فيبر، فعلى النقيض، يهتم بشكل أساسي بالعلوم الاجتماعية، وخاصة محاولاته لمعالجة طرق إدماج المعنى في التحليل.

هناك ثلاثة نصوص مهمة وسهلة إلى حد ما كتبها بيرس وجدت أنها مفيدة للغاية هي "التخمين" "Guessing" (1929)، "كيف تُنظر" " How to Theorize" (1934b)، و"التدريب على التفكير" "Training in Reasoning" (1992b). توجد العديد من مختارات الكتابات الأساسية لبيرس، وأكثر هذه الكتابات فائدة هي مجموعة من مجلدين بعنوان The Essential Peirce (1992a).

وبالنسبة لفيبر، فإن مقالاته عن فلسفة العلوم وثيقة الصلة بالموضوع، وهي متاحة اليوم بترجمة جديدة تحت عنوان "الكتابات المنهجية المجمعة" Collected Methodological Writings (2012). "العلم كمهنة" "Science as a Vocation" (1946)" وتتضمن أيضا الفقرة الأولى في الفصل الأول (في الجزء ١) من الاقتصاد والمجتمع Economy and Society (1978) على الكثير من المواد ذات الصلة.

وأوصي بعد بيرس وفيبر بالكتب الثلاثة التالية، والتي لا تناقش النظريات بشكل عام فحسب، بل تحدد أيضًا بعض الخطوات التي يجب اتباعها: كتاب مقدمة

للنماذج في العلوم الاجتماعية، الذي كتبه كل من جون لاف وجيمس مارش وصدر عام ١٩٩٣، وكتاب بناء النظريات الاجتماعية لمؤلفه آرثر ستنشكومب عام ١٩٦٨، وكتاب الخيال السوسيولوجي لمؤلفه سي. رايت ميلز الصادر عام ١٩٥٩.

في كتاب لاف ومارش، يجب الاهتمام بشكل خاص بالفصل الثاني، حيث يعرض المؤلفان "نموذجًا لعملية بناء النماذج" (Lave and March 1993: 19–20, 40–42). وفي كتاب ستنشكومب، يمكن العثور على أفضل المواد في الفصلين الأول والثاني. أما كلام ميلز الأكثر فائدة عن التنظير فيمكن أن تجده في ملحق كتاب "الخيال السوسيولوجي"، والمعنون "حول الحرف الفكرية".

وتعد مقالة كارل فايك Karl Weick المعنونة "بناء النظرية كخيال مُدَرب" (1989; see also Weick 1995, 2014) مقالة عامة جدا ومتاحة/سهل الوصول إليها. وهناك مقال آخر مفيد، كتبه علم آخر في العلوم الاجتماعية، وهو مقال روبرت ميرتون بعنوان "ثلاث مقتطفات من ملاحظات عالم اجتماع" “Three Fragments from a Sociologist’s Notebooks” (1987)، حيث يشير العنوان الفرعي لمقال ميرتون إلى ثلاث موضوعات رئيسية هي: "تأسيس الظاهرة والجهل المحدد والمواد البحثية الاستراتيجية".

اهتم العديد من المؤلفين الذين ساهموا في كتاب "التنظير في العلم الاجتماعي: سياق الاكتشاف Theorizing in Social Science: The Context of Discovery، الذي حرره سويدبرج عام ٢٠١٤ (Swedberg 2014) بالتنظير لفترة طويلة. ومن بين هؤلاء كارين كنور سيتينا Karin Knorr Cetina وجيمس مارش James G. March وستيفن تيرنر Stephen Turner وديان فوجان Diane Vaughan وكارل ويك Karl Weick. يمكن أيضًا العثور على العديد من الأفكار الموحية في فصول المؤلفين الآخرين.

يمكن العثور على بعض المواد المثيرة للاهتمام حول التنظير في الكتابين التاليين، حتى لو لم يكن التنظير محل الاهتمام الأساسي في كل منهما: كتاب طرق الاكتشاف Methods of Discovery، لمؤلفه أندرو آبوت، وكتاب حيل المهنة Tricks of the Trade لمؤلفه هوارد بيكر.

أوصي أيضًا بكتاب مفاهيم العلوم الاجتماعية الذي كتبه جاري جورتز Gary Goertz عام ٢٠٠٦، من أجل موضوع تكوين المفاهيم؛ وكذلك كتاب ابتكار المفاهيم العلمية الذي كتبته نانسي نرسيسيان Nancy Nersessian عام ٢٠٠٨،

للمزيد حول موضوع التشابه؛ وكتاب النماذج والاستعارات الذي كتبه ماكس بلاك Max Black عام ١٩٦٢، في موضوع دور الاستعارات.

نادراً ما تتم مناقشة موضوعي التفسير والسببية من منظور التنظير، ولكن عادةً ما يُنظر إليهما باعتبارهما جزء من المناهج وفلسفة العلم. وحول هذا الموضوع فهناك نصان عامان وجدت أنهما مفيدين هما: النص الأول كتبه كل من جاري جورتز وجيمس ماهوني Gary Goertz and James Mahoney عام ٢٠١٢ بعنوان حكاية ثقافتين: البحوث الكيفية والكمية في العلوم الاجتماعية؛ والنص الثاني هو كتيب أكسفورد لعلم المناهج السياسية، الذي حرره كل من جانيت م. بوكس – ستيفنزميير Janet M. Box-Steffensmeier، وهنري برادي Henry Brady، وديفيد كولير David Collier عام ٢٠٠٨.

من المهم أيضا أن يكون لديك بعض الدراية بالعلم المعرفي وخاصة علم النفس المعرفي من أجل فهم عملية التنظير. وهناك طريقة وحيدة لاكتساب هذه الدراية وهي أن تقرأ كتاب تمهيدي في العلم المعرفي و/أو في علم النفس المعرفي. يوجد أيضا عدد من الكتيبات المفيدة حول هذين الموضوعين، تتضمن فصولا حول المفاهيم والذاكرة والعواطف وما إلى ذلك (انظر على سبيل المثال: The Cambridge Handbook of Cognitive Science, edited by Keith Frankish and William Ramsey [2012]; and The Oxford Handbook of Cognitive Psychology, edited by Daniel Reisberg [2013]). وللحصول على معلومات مفيدة حول كيفية تفسير الناس للأشياء وشرحها، بما في ذلك كيفية استخدامهم للاستنتاج والحدس والتشابه وما إلى ذلك، انظر دليل أكسفورد للتفكير والاستنتاج The Oxford Handbook of Thinking and Reasoning، الذي حرره كل من كيث هولياك Keith Holyoak وروبرت موريسون Robert Morrison عام ٢٠١٢.

وفي موضوع الاستدلال، أوصي بكتاب جورج بوليا George Polya بعنوان كيف تحلها How to Solve It الصادر عام ١٩٥٤، وكتاب دانييل كانيمان Daniel Kahneman بعنوان التفكير السريع والبطيء Thinking, Fast and Slow الصادر عام ٢٠١١. وحول دور الخيال، هناك (مرة أخرى) كتاب سي. رايت ميلز C. Wright Mills بعنوان الخيال السوسيولوجي The Sociological Imagination الصادر عام ١٩٥٩. وفي موضوع نشأة كلمات نظرية وتنظير في اليونان القديمة، انظر بشكل خاص كتاب أندريا ويلسون نايتنجيل Andrea Wilson

Nightingale بعنوان نظارات الحقيقة في الفلسفة اليونانية الكلاسيكية: نظرية في سياقها الثقافي Spectacles of Truth in Classical Greek Philosophy: Theoria in Its Cultural Context الصادر عام ٢٠٠٩، أخيرا وليس آخرا، فإن كتاب لودفيج فيتجنشتاين Ludwig Wittgenstein بعنوان التحقيقات الفلسفية Philosophical Investigations المنشور عام ١٩٥٣ تعتبر شرطا أساسيا لأي شخص يتطلع إلى أن يكون منظراً حديثًا.

Abbott, Andrew. 1995. “Things of Boundaries,” *Social Research* 62, no. 4 (Winter): 857−82.

————. 1997. “Seven Types of Ambiguity,” *Theory and Society* 26, no. 2–3 (April–June): 357–91.

————. 2001. *Time Matters: On Theory and Method*. Chicago: University of Chicago Press.

————. 2004. *Methods of Discovery: Heuristics for the Social Sciences*. New York: W. W. Norton.

————. 2006. “Reconceptualizing Knowledge Accumulation in Sociology,” *The American Sociologist* 37, no. 2: 57−66.

————. 2007. “Against Narrative: A Preface to Lyrical Sociology,” *Sociological Theory* 25, no. 1: 67−99.

————. 2011. “Andrew Abbott’s Short List of Rules for Theorizing.” Comments presented at the Junior Theorists’ Seminar, American Sociological Association, Las Vegas, August 19.

Abend, Gabriel. 2008. “The Meaning of ‘Theory’”, *Sociological Theory* 26, no. 2 (June): 173−99.

Adler, Franz. 1947. “Operational Definitions in Sociology,” *American Journal of Sociology* 52, no. 5: 438–44.

Agevall, Ola. 2008. *The Career of Mobbing: Emergence, Transformation, and Utilization of a New Concept*. Växjö: Department of Social Science, Växjö University.

Alexander, Jeffrey. 2006. *The Civil Sphere*. New York: Oxford University Press.

American Sociological Association (ASA). 2012. *Social Capital, Organizational Capital, and the Job Market for New*

Sociology Graduates. Washington, DC: ASA.

————. 2013. “Recruitment and Retention of Sociology Majors,” *ASA Footnotes* 41, no. 1 (January): 1, 4.

Anderson, Chris. 2008. “The End of Theory: The Data Deluge Makes the Scientific Theory Obsolete,” *Wired Magazine*, June 23. Available at http://www.wired.com/science/discoveries/magazine/16–07/pb_theory (accessed November 8, 2013).

Arendt, Hannah. 1978. *The Life of the Mind*. New York: Harcourt.

————. 1992. *Lectures on Kant’s Political Philosophy*. Chicago: University of Chicago Press.

Aristotle. 1984. *The Complete Works of Aristotle*. Ed. Jonathan Barnes. Rev. Oxford trans., 2 vols. Princeton, NJ: Princeton University Press.

————. 1991. *The Art of Rhetoric*. Trans. H. C. Lawson-Tancred. London: Penguin Books.

————. 2001. *The Basic Works of Aristotle*. Ed. Richard McKeon. New York: Modern Library.

Bachelard, Gaston. 1984. *The New Scientific Spirit*. Boston: Beacon Press.

Bacon, Francis, 1902. *Novum Organum*. Ed. Joseph Devey. New York: P. F. Collier and Son.

Bailey, Kenneth. 1973. “Constructing Monothetic and Polythetic Typologies by the Heuristic Method,” *Sociological Inquiry* 14 (Summer): 291−308.

Beach, Derek, and Rasmus Brun Pedersen. 2013. *Process-Tracing Methods: Foundations and Guidelines*. Ann Arbor: University of Michigan Press.

Beauchamp, Richard. 2012. “Peirce, Thirdness, and Pedagogy: Reforming the Paideia.” Available at http://www.bu.edu/wcp/Papers/Amer/AmerBeau.htm (accessed November 25, 2012).

Becker, Gary. 1976. *The Economic Approach to Human Behavior*. Chicago: University of Chicago Press.

Becker, Howard S. 1973. *Outsiders: Studies in the Sociology of*

Deviance. New York: Free Press.

————. 1982. *Art Worlds*. Berkeley: University of California Press.

————. 1998. *Tricks of the Trade: How to Think about Your Research while You're Doing It.* Chicago: University of Chicago Press.

————. 2011. E-mail message to Richard Swedberg, April 27.

————. 2012. "Learning to Observe in Chicago." Available at http://home.earthlink.net/~hsbecker/articles/observe.html (accessed July 24, 2012). First published as "Learning to Observe in Chicago," in *La gout de l'observation*, ed. Jean Peneff, pp. 60–61, 76–77, and 126–27. Paris: La Découverte (in French).

Berezin, Mabel. 2009. "Exploring Emotions and the Economy," *Theory and Society* 35: 335−46.

Biello, David. 2006. "Fact or Fiction?: Archimedes Coined the Term 'Eureka!' in the Bath," *Scientific American* (December 8). Available at http://www.scientificamerican.com/article.cfm?id=fact-or-fiction-archimede (accessed January 8, 2013).

Biernacki, Richard. 2012. *Reinventing Evidence in Social Inquiry*. New York: Palgrave Macmillan.

Black, Max. 1962. *Models and Metaphors: Studies in Language and Philosophy*. Ithaca, NY: Cornell University Press.

Bloch, Marc. 1964. *The Historian's Craft*. New York: Vintage Books.

Blumer, Herbert. 1954. "What Is Wrong with Social Theory?"*American Sociological Review* 19: 4–10.

Boudon, Raymond. 1995. "Massimo Borlandi Interviews Raymond Boudon," *Schweizerische Zeitschrift für Soziologie* 21, no. 3: 559–73.

Bourdieu, Pierre. 1988. "Vive la Crise! For Heterodoxy in Social Science," *Theory and Society* 17: 773−87.

Bourdieu, Pierre, Jean-Claude Chamboredon, and Jean-Claude Passeron. 1991. *Sociology as a Craft: Epistemological Preliminaries.* New York: Walter de Gruyter.

Box-Steffensmeier, Janet M., Henry Brady, and David Collier (eds.).

2008. *The Oxford Handbook of Political Methodology*. New York: Oxford University Press.

Brady, Henry. 2008. "Causation and Explanation in Social Science." In *The Oxford Handbook of Political Methodology*, ed. Janet M. Box-Steffensmeier, Henry Brady, and David Collier, pp. 217–70. New York: Oxford University Press.

Brent, Joseph. 1993. *Charles Sanders Peirce: A Life*. Bloomington: Indiana University Press.

Brown, Richard. 1977. *Poetic for Sociology: Toward a Logic of Discovery for the Human Sciences*. Cambridge, UK: Cambridge University Press.

Bruffee, Kenneth. 1993. *Collaborative Learning: Higher Education, Inter dependence, and the Authority of Knowledge*. Baltimore: Johns Hopkins University Press.

Bruun, Hans Henrik. 2007. *Science, Values and Politics in Max Weber's Methodology*. Expanded ed. Aldershot, UK: Ashgate.

Bulmer, Martin. 1984. *The Chicago School of Sociology: Institutionalization, Diversity, and the Rise of Sociological Research*. Chicago: University of Chicago Press.

Camic, Charles, and Neil Gross. 1998. "Contemporary Developments in Sociological Theory: Current Projects and Conditions of Possibility," *Annual Review of Sociology* 24: 453−76.

Cardoso, Fernando Henrique. 2006. *The Accidental President of Brazil: A Memoir*. New York: Public Affairs.

Carrère, Sybil, and John Gottman. 1999. "Predicting Divorce among Newlyweds from the First Three Minutes," *Family Process* 38, no. 3: 293−301.

Cartwright, Nancy. 2011. "A Philosopher's View of the Long Road from RCTs to Effectiveness," *The Lancet* 77, no. 9775: 1400−1401.

Chambliss, J. J. 1991. "John Dewey's Idea of Imagination," *Journal*

of Aesthetic Education 25, no. 4: 43–49.

Chomsky, Noam. 1991. "Linguistics and Cognitive Science: Problems and Mysteries." In *The Chomskyan Turn*, ed. Asa Kasher, pp. 26–55. Cambridge, UK: Blackwell.

————. 2004. "The Creative Experience." In *Language and Politics*, ed. C.-P. Otero, pp. 89–102. Oakland, CA: AK Press.

Coleman, James. 1964. *Introduction to Mathematical Sociology*. New York: Free Press.

Coleridge, Samuel Taylor. 1812. *The Friend: A Series of Essays*. London: Gale and Curtis.

————. 1967. *Biographia Literaria*. Oxford, UK: Oxford University Press.

Collier, David, and John Gerring (eds.). 2009. *Concepts and Method in Social Science: The Tradition of Giovanni Sartori*. New York: Routledge.

Collier, David, Jody Laporte, and Jason Seewright. 2008. "Typologies: Forming Concepts and Creating Categorical Variables." In *The Oxford Handbook of Political Methodology*, ed. Janet M. Box-Steffensmeier,

Henry Brady, and David Collier, pp. 152–73. New York: Oxford University Press.

Collier, David, and James Mahon Jr. 1993. "Conceptual 'Stretching' Revisited: Adapting Categories in Comparative Analysis," *American Political Science Review* 87, no. 4 (December): 845−55.

Conté, Rosaria, et al. 2012. "Manifesto of Computational Social Science," *European Physical Journal Special Topics* 214: 325−46.

Coser, Lewis. 1994. "Introduction." In *On Work, Race, and the Sociological Imagination*, ed. Everett C. Hughes, pp. 1−17. Chicago: University of Chicago Press.

Damasio, Antonio. 2003. *Looking for Spinoza: Joy, Sorrow, and the Feeling Brain*. New York: Mariner Books.

Davis, Murray. 1971. "That's Interesting! Towards a Phenomenology

of Sociology and a Sociology of Phenomenology," *Philosophy of the Social Sciences* 1: 309−44.

Dewey, John. 1934a. *Art as Experience*. New York: Minton, Balch & Company.

————. 1934b. *A Common Faith*. New Haven, CT: Yale University Press.

————. 1938. *Logic: The Theory of Inquiry*. New York: Henry Holt.

Dewey, John, and Arthur Bentley. 1945. "A Terminology for Knowing and Naming," *Journal of Philosophy* 42, no. 9 (April): 225−47.

Dickinson, Emily. 1914. *The Single Hound: Poems of a Lifetime.* Boston: Little, Brown, and Company.

Dobbin, Frank. 2009. "How Durkheim's Theory of Meaning-Making Influenced Organizational Studies." In *The Oxford Handbook of Sociology and Organization Studies: Classical Foundations*, ed. Paul Adler, pp. 200–222. New York: Oxford University Press.

Doyle, Conan. 1892. *Adventures of Sherlock Holmes*, vol. 2. New York: Harper & Brothers.

Dreyfus, Hubert. 2009. *On the Internet*. London: Routledge.

Dreyfus, Hubert, and Stuart Dreyfus. 1986. *Mind over Machine: The Power of Human Intuition and Expertise in the Era of the Computer*. New York: Free Press.

Dunbar, Kevin and David Klahr. 2012. "Scientific Thinking and Reasoning." In *The Oxford Handbook of Thinking and Reasoning,* ed. Keith Holyoak and Robert Morrison, pp. 701−18. New York: Oxford University Press.

Durkheim, Emile. 1964. *The Rules of Sociological Method*. Trans. S. Solvay and J. Mueller. New York: Free Press.

————. 1974. "Individual and Collective Representations." In Emile Durkheim, *Sociology and Philosophy*, ed. Talcott Parsons, pp. 1–34. New York: Free Press.

————. 1978. "Course in Sociology: Opening Lecture." In Emile Durkheim, *On Institutional Analysis*, ed. Mark

Traugott, pp. 43–70. Chicago: University of Chicago Press.

————. 1982. “The Method of Sociology.” In Emile Durkheim, *The Rules of Sociological Method*, trans. W. D. Halls, pp. 245–47. New York: Free Press.

Engell, James. 1981. *The Creative Imagination: Enlightenment to Romanticism*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Ericsson, K. Anders, and Herbert Simon. 1980. “Verbal Reports as Data,” *Psychological Review* 87, no. 3: 215−51.

Espeland, Wendy Nelson. 2012. “Theorizing Is a Verb,” *Perspectives: Newsletter of the ASA Theory Section* 34, no. 2 (December): 1−3.

Fann, K. T. 1970. *Peirce’s Theory of Abduction*. The Hague: Martinus Nijhoff. Firebaugh, Glenn. 2008. *Seven Rules for Social Research*. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Fisch, Max. 1986. *Peirce, Semiotic, and Pragmatism: Essays by Max H. Fisch*. Bloomington: Indiana University Press.

Forché, Carolyn, and Philip Gerard (eds.). 2001. *Writing Creative Nonfiction*. Cincinatti: Story Press.

Frankish, Keith, and William Ramsey (eds.). 2012. *The Cambridge Handbook of Cognitive Science.* Cambridge, UK: Cambridge University Press.

Freud, Sigmund. 1998. *The Interpretation of Dreams*. Trans. James Strachey. New York: Avon Books.

Gambetta, Diego. No date. “Empirical Puzzles.” The webpage of Diego Gambetta, Nuffield College, Oxford University. Available at http://www.nuffield.ox.ac.uk/People/sites/Gambetta/Other%20Papers/Empirical%20puzzles%20for%20teaching%20and%20research.pdf (accessed December 15, 2012).

Gardner, Howard. 1987. *The Mind’s New Science: A History of the Cognitive Revolution*. New York: Basic Books.

Geertz, Clifford. 2000. “Thick Description: Towards an Interpretive

Theory of Culture.” In *The Interpretation of Cultures*, pp. 3–30. New York: Basic Books.

Gentner, Dedre. 1982. “Are Scientific Analogies Metaphors?” In *Metaphor: Problems and Perspectives*, ed. David Miall, pp. 106–32. Sussex: Harvester Press.

————. 2003. “Analogical Reasoning, Psychology of.” In *Encyclopedia of Cognitive Science,* ed. Lynn Nadel, vol. 1, pp. 106–12. London: Nature Publishing Company.

Gentner, Dedre, and Linsey Smith. 2013. “Analogical Learning and Reasoning.” In *The Oxford Handbook of Cognitive Psychology*, ed. Daniel Reisberg, pp. 668–81. New York: Oxford University Press.

Gert, Heather. 1997. “Wittgenstein on Description,” *Philosophical Studies* 88: 221−43.

Glaser, Barney, and Anselm Strauss. 1967. *The Discovery of Grounded Theory: Strategies for Qualitative Research.* Chicago: Aldine Publishing Company.

Goertz, Gary. 2006. *Social Science Concepts: A User’s Guide*. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Goertz, Gary, and James Mahoney. 2012. *A Tale of Two Cultures: Qualitative and Quantitative Research in the Social Sciences.* Princeton, NJ: Princeton University Press.

Goffman, Erving. 1961. *Asylums: Essays on the Social Situations of Mental Patients and Other Inmates.* New York: Anchor Books.

Goldthorpe, John. 2001. “Causation, Statistics, and Sociology,” *European Sociological Review* 17, no. 1: 1−20.

Groopman, Jerome. 2007. *How Doctors Think*. Boston: Houghton Mifflin. Hacking, Ian. 1983. *Representing and Intervening: Introductory Topics in the Philosophy of Natural Science.* Cambridge, UK: Cambridge University Press.

————. 1988. “Telepathy: Origins of Randomization in Experimental Design,” *Isis* 79, no. 3 (Special Issue):

427–51.

Hart, H.L.A., and A. M. Honoré. 1958. *Causation in the Law*. New York: Oxford University Press.

Hedström, Peter, and Richard Swedberg (eds.). 1998. *Social Mechanisms: An Analytical Approach to Social Theory*. Cambridge, UK: Cambridge University Press.

Heidegger, Martin. 1976. *What Is Called Thinking?* Trans. J. Glenn Gray. New York: Harper.

————. 1977. “Science and Reflection.” In Martin Heidegger, *The Question Concerning Technology and Other Essays*, pp. 154–82. New York: Harper.

Heilbron, Johan. 2011. “Practical Foundations of Theorizing in Sociology: The Case of Pierre Bourdieu.” In *Social Knowledge Making*, ed. Charles Camic, Neil Gross, and Michèle Lamont, pp. 181–205. Chicago: Chicago University Press.

Heltberg, Therese. 2011. “What Is—Really— in a Dataset?,” *Nordic Studies on Alcohol and Drugs* 28: 501–19.

Holyoak, Keith and Robert Morrison (eds.). 2012. *The Oxford Handbook of Thinking and Reasoning*. New York: Oxford University Press.

Hughes, Everett C. 1984a. “The Place of Field Work in Social Science.” In *The Sociological Eye: Selected Papers*, pp. 496–506. New Brunswick, NJ: Transaction Press.

————. 1984b. *The Sociological Eye*. New Brunswick, NJ: Transaction Press.

Hughes, Everett C., and Helen MacGill Hughes. 1952. ”What’s in a Name?” In *When Peoples Meet*, ed. Everett C. Hughes and Helen Mac-Gill Hughes, pp. 130–44. New York: Free Press.

Iggers, Georg G., Edward Wang, and Supriya Mukherje. 2008. *A Global History of Modern Historiography*. Harlow, UK: Longman.

Ionnadis, John P. 2005. “Why Most Published Research Findings Are False,” *PLoS Medicine* 2, no. 8: e124. Available at

http://www.plosmedicine.org/article/info:
doi/10.1371/journal.pmed.0020124 (accessed February 23, 2013).

Jackson, Michelle, and D. R. Cox. 2013. "The Principles of Experimental Design and Their Application in Sociology," *Annual Review of Sociology* 39: 27–49.

Jastrow, Joseph. 1916. "Charles S. Peirce as a Teacher," *Journal of Philosophy* 13, no. 26 (December 21): 723−26.

Jefferies, Janis. 2012. "Pattern, Patterning." In *Inventive Methods: The Happening of the Social*, ed. Celia Lury and Nina Wakeford, pp. 125–35. London: Routledge.

Kahneman, Daniel. 2011. *Thinking, Fast and Slow*. New York: Farrar, Straus, and Giroux.

Kahneman, Daniel, and Amos Tversky. 1982. "The Simulation Heuristic." In *Judgment under Uncertainty: Heuristics and Biases*, ed. Daniel Kahneman, Paul Slovic, and Amos Tversky, pp. 201−8.

Cambridge, UK: Cambridge University Press.

Kang, Min Jeong, et al. 2009. "The Wick in the Candle of Learning: Epistemic Curiosity Activates Circuitry and Enhances Memory," *Psychological Science* 20, no. 8: 963−73.

Kant, Immanuel. 1970. "An Answer to the Question 'What Is Enlightenment?'" In Immanuel Kant, *Kant's Political Writings*, ed. Hans Reiss, pp. 54–63. Cambridge, UK: Cambridge University Press.

————. 1998. *Critique of Pure Reason*. Trans. Paul Gruyer and Allen Wood. Cambridge, UK: Cambridge University Press.

Kaplan, Abraham. 1964. *The Conduct of Inquiry: Methodology for Behavioral Science*. San Francisco: Chandler Publishing.

Ketner, Kenneth Laine. 1981. "Peirce's Ethics of Terminology," *Transactions of the Charles S. Peirce Society* 17, no. 4 (Fall): 327−47.

Keynes, John Maynard. 2010. "On Reading Books." In John Maynard

Keynes, *Keynes on the Wireless*, ed. Donald Moggridge, pp. 164–73. New York: Palgrave Macmillan.

Kincaid, Harold (ed.). 2012. *The Oxford Handbook of Social Science*. New York: Oxford University Press.

King, Gary, Robert Keohane, and Sidney Verba. 1994. *Designing Social Inquiry: Scientific Inference in Qualitative Research*. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Klamer, Arjo, and Thomas Leonard. 2004. "So What's an Economic Metaphor?" In *Natural Images in Economic Thought: "Markets Read in Tooth and Claw,"* ed. Philip Mirowski, pp. 20–51. New York: Cambridge University Press.

Klein, Daniel. 2014. "Three Frank Questions to Discipline Your Theorizing." In *Theorizing in Social Science*, ed. Richard Swedberg, pp. 106 –30. Stanford, CA: Stanford University Press.

Klinger, Eric. 2009. "Daydreaming and Fantasizing: Thought Flow and Motivation." In *Handbook of Imagination and Mental Simulation*, ed. Keith Markman, William Klein, and Julie Suhr, pp. 225–39. New York: Psychology Press.

Knorr Cetina, Karin. 2014. "Intuitionist Theorizing." In *Theorizing in Social Science*, ed. Richard Swedberg, pp. 29– 60. Stanford, CA: Stanford University Press.

Koedinger, Kenneth, and Ido Roll. 2012. "Learning to Think: Cognitive Mechanisms and Knowledge Transfer." In *The Oxford Handbook of Thinking and Reasoning*, ed. Keith Holyoak and Robert Morrison, pp. 789–806. New York: Oxford University Press.

Kuhn, Thomas. 1970. *The Structure of Scientific Revolutions*. 2nd enlarged ed. Chicago: University of Chicago Press.

Lakatos, Imre. 1974. "The Role of Crucial Experiments in Science," *Studies in History and Philosophy of Science* 4, no. 4: 309–25.

Langley, Pat. 2004. "Heuristics for Scientific Discovery: The Legacy of Herbert Simon." Working paper from the Institute for the Study of Learning and Expertise, Palo Alto, CA. Available at http://www.isle.org/~langley/papers/has.essay.pdf (accessed August 11, 2011).

Larkin, Jill, and Herbert Simon. 1987. "Why a Diagram Is (Sometimes) Worth Ten Thousand Words," *Cognitive Science* 11: 65−99.

Latour, Bruno, and Steve Woolgar. 1986. *Laboratory Life: The Construction of Scientific Facts*. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Lave, Charles A., and James G. March. 1993. *An Introduction to Models in the Social Sciences*. New York: University Press of America.

Lazarsfeld, Paul. 1962. "The Sociology of Empirical Research," *American Sociological Review* 27: 757−67.

Lepenies, Wolf. 1988. *Between Literature and Science: The Rise of Sociology*. Cambridge, UK: Cambridge University Press.

Levi, Edward. 1949. *An Introduction to Legal Reasoning*. Chicago: University of Chicago Press.

Lewis, David. 1973. *Counterfactuals*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Liszka, James. 2011. "Charles Peirce's Rhetoric and the Pedagogy of Active Learning," *Educational Philosophy and Theory* 45, no. 7: 781–88.

Loewenstein, George. 1994. "The Psychology of Curiosity: A Review and Reinterpretation," *Psychological Bulletin* 116, no. 1: 75−98.

Lombrozo, Tania. 2006. "The Structure and Function of Explanations," *Trends in Cognitive Science* 10, no. 10: 464−70.

————. 2007. "Simplicity and Probability in Causal Explanation," *Cognitive Psychology* 55, no. 3: 232−57.

———. 2012. “Explanation and Abductive Inference.” In *The Oxford Handbook of Thinking and Reasoning*, ed. Keith Holyoak and Robert Morrison, pp. 260–76. New York: Oxford University Press.

Lucas, Jeffrey, Kevin Morrell, and Marek Posard. 2013. “Considerations on the ‘Replication Problem’ in Sociology,” *American Sociologist* 44: 217−32.

Mandelbrot, Benoit. 2012. *The Fractalist: Memoir of a Scientific Maverick*. New York: Pantheon Books.

March, James G. 1970. “Making Artists out of Pedants.” In *The Process of Model-Building in the Behavioral Sciences*, ed. Ralph Stogdill, pp. 54–75. New York: Norton.

Markman, Keith, William Klein, and Julie Suhr (eds.). 2009. *Handbook of Imagination and Mental Simulation*. New York: Psychology Press.

Markovsky, Barry. 2008. “Graduate Training in Sociological Theory and Theory Construction,” *Sociological Perspectives* 51, no. 2: 423−45.

Martin, John Levi. 2011. *The Explanation of Social Action*. New York: Oxford University Press.

Mauss, Marcel. 1973. “Techniques of the Body,” *Economy and Society* 2, no. 1: 70–88.

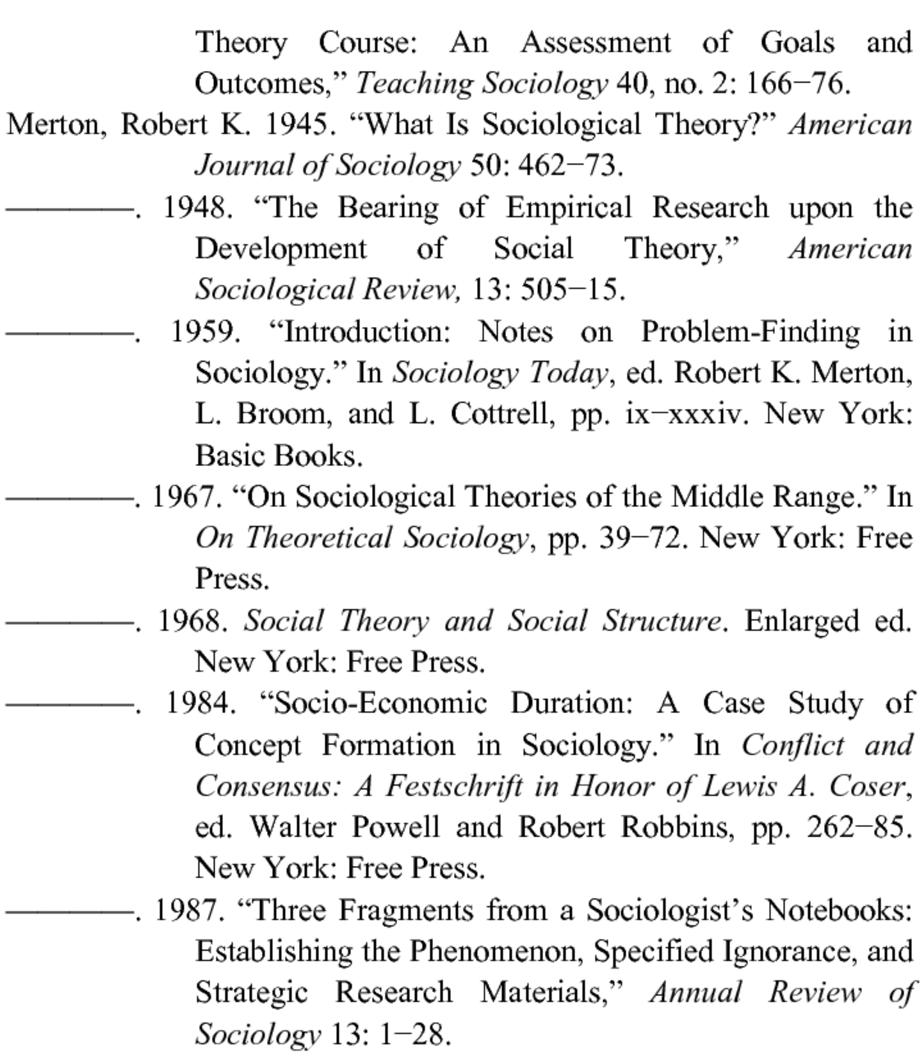
Maxwell, James Clark. 1884. “Are There Real Analogies in Nature?” In *The Life of James Clark Maxwell*, ed. Lewis Campbell and William Garnett, pp. 347–55. London: Macmillan.

Mayer-Schönberger, Viktor, and Kenneth Cukier. 2013. *Big Data: A Revolution That Will Transform How We Live, Work, and Think*. Boston: Houghton Mifflin Harcourt.

Mayr, Ernst. 1982. *The Growth of Biological Thought: Diversity, Evolution, and Inheritance*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

McCloskey, Deirdre. 1986. *The Rhetoric of Economics*. New York: Harvester Press.

McDuff, Elaine. 2012. “Collaborative Learning in an Undergraduate



Theory Course: An Assessment of Goals and Outcomes," *Teaching Sociology* 40, no. 2: 166–76.

Merton, Robert K. 1945. "What Is Sociological Theory?" *American Journal of Sociology* 50: 462–73.

————. 1948. "The Bearing of Empirical Research upon the Development of Social Theory," *American Sociological Review,* 13: 505–15.

————. 1959. "Introduction: Notes on Problem-Finding in Sociology." In *Sociology Today*, ed. Robert K. Merton, L. Broom, and L. Cottrell, pp. ix–xxxiv. New York: Basic Books.

————. 1967. "On Sociological Theories of the Middle Range." In *On Theoretical Sociology*, pp. 39–72. New York: Free Press.

————. 1968. *Social Theory and Social Structure*. Enlarged ed. New York: Free Press.

————. 1984. "Socio-Economic Duration: A Case Study of Concept Formation in Sociology." In *Conflict and Consensus: A Festschrift in Honor of Lewis A. Coser*, ed. Walter Powell and Robert Robbins, pp. 262–85. New York: Free Press.

————. 1987. "Three Fragments from a Sociologist's Notebooks: Establishing the Phenomenon, Specified Ignorance, and Strategic Research Materials," *Annual Review of Sociology* 13: 1–28.

Merton, Robert K., and Alan Wolfe. 1995. "The Cultural and Social Incorporation of Sociological Knowledge," *American Sociologist* 26, no. 3 (Fall): 15–19.

Merton, Robert K., and Harriet Zuckerman. 1973. "Age, Aging, and Age Structure in Science." In *The Sociology of Science*, ed. Robert K. Merton, pp. 497–559. Chicago: University of Chicago Press.

Milgram, Stanley. 1976. *Environmental Psychology*. 2nd ed. New York: Holt, Rinehart, and Winston.

Mills, C. Wright. 1953. *White Collar: The American Middle Classes*.

New York: Oxford University Press.

————. 1959. *The Sociological Imagination.* New York: Oxford University Press.

Mills, C. Wright (ed.). 1960. *Images of Man: The Classic Tradition in Sociological Thinking*. New York: George Braziller.

Murphy, Gregory. 2002. *The Big Book of Concepts*. Cambridge, MA: MIT Press.

Nagel, Ernest. 1961. *The Structure of Science*. New York: Free Press.

Nersessian, Nancy. 2008. *Creating Scientific Concepts.* Cambridge, MA: MIT Press.

Nightingale, Andrea Wilson. 2009. *Spectacles of Truth in Classical Greek Philosophy: Theoria in Its Cultural Context*. Cambridge, UK: Cambridge University Press.

Nisbet, Robert. 1976. *Sociology as an Art Form*. New York: Oxford University Press.

Oebler, Klaus. 1981. "The Significance of Peirce's Ethics of Terminology for Contemporary Lexicography in Semiotics," *Transactions of the Charles S. Peirce Society* 17, no. 4: 348−57.

Ogburn, William. 1930. "The Folkways of a Scientific Sociology," *Publications of the American Sociological Society* 24: 1−11.

Ogburn, William. 1947. "On Scientific Writing," *American Journal of Sociology* 52: 383−88.

Oxford English Dictionary Electronic Resource (OED). 2000. "Theorizing." Oxford, UK: Oxford University Press. Available at http://www.oed.com/view/Entry/200430?redirectedFrom=theorize#eid (accessed October 23, 2012).

Paavola, Sami. 2006. *On the Origin of Ideas: An Abductivist Approach to Discovery*. Helsinki: Philosophical Studies from the University of Helsinki No. 15.

Padgett, John, and Walter Powell. 2012. *The Emergence of Organizations and Markets*. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Parisi, Luciana. 2012. “Speculation: A Method for the Unattainable.” In *Inventive Methods: The Happening of the Social*, ed. Celia Lury and Nina Wakeford, pp. 232−44. London: Routledge.

Park, Robert. 1929. “The City as a Social Laboratory.” In *Chicago: An Experiment in Social Science Research*, ed. T. V. Smith and Leonard White, pp. 1–19. Chicago: University of Chicago Press.

Peirce, Charles S. 1868. “Questions Concerning Certain Faculties Claimed for Man,” *Journal of Speculative Philosophy* 2: 103–14.

————. 1893. “Evolutionary Love,” *Monist* 3, no. 2 (January): 176–200.

————. 1902. “Reasoning.” In *Dictionary of Philosophy and Psychology*, ed. James Mark Baldwin, vol. 1, pp. 426–28. New York: Macmillan.

————. 1906. Lecture I of a planned course. Harvard University, Houghton Library, MS 857.

————. 1929. “Guessing,” *The Hound & Horn* 2, no. 3 (Spring): 267−85.

————. 1932. Vol. 2 of *Collected Papers of Charles Sanders Peirce*, ed. Charles Hartshorne and Paul Weiss. Cambridge, MA: Belknap Press.

————. 1934a. Vol. 5 of *Collected Papers of Charles Sanders Peirce*, ed. Charles Hartshorne and Paul Weiss. Cambridge, MA: Belknap Press.

————. 1934b. “How to Theorize.” In *Collected Papers of Charles Sanders Peirce*, ed. Charles Hartshorne and Paul Weiss, pp. 413–22. Cambridge, MA: Belknap Press.

————. 1935. Vol. 6 of *Collected Papers of Charles Sanders Peirce*, ed. Charles Hartshorne and Paul Weiss. Cambridge, MA: Belknap Press.

————. 1958a. Vol. 7 of *Collected Papers of Charles Sanders Peirce*, ed. Arthur W. Burks. Cambridge, MA: Belknap Press.

————. 1958b. Vol. 8 of *Collected Papers of Charles Sanders Peirce*, ed. Arthur W. Burks. Cambridge, MA: Belknap Press.

————. 1985. “Lowell Lectures of 1903 [476]. Eighth Lecture: Abduction. Part 2. Pythagoras.” In *Historical Perspectives on Peirce’s Logic of Science*, ed. Carolyn Eisele, vol. 2, pp. 1011−21. Berlin: Mouton Publishers.

————. 1992a. *The Essential Peirce*. Vol. 1. Bloomington: Indiana University Press.

————. 1992b. “Training in Reasoning.” In *Reasoning and the Logic of Things*, ed. Kenneth Laine Ketner, pp. 181–96. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Peirce, Charles S. 1997. *Pragmatism as a Principle and Method of Right Thinking: The 1903 Harvard Lectures on Pragmatism*. Ed. Patricia Ann Turrisi. Albany: State University of New York Press.

————. 1998a. *The Essential Peirce*. Vol. 2. Bloomington: Indiana University Press.

————. 1998b. “The Ethics of Terminology.” In Charles S. Peirce, *The Essential Peirce*, vol. 2, pp. 263−66. Bloomington: Indiana University Press.

————. 2010. *Writings of Charles S. Peirce. Vol 8. 1890−1892*. Bloomington: Indiana University Press.

Peirce, Charles S., and Joseph Jastrow. 1885. “On Small Differences in Sensation,” *Memoirs of the National Academy of Sciences* 3: 73−83.

Peirce, Charles S., and Christine Ladd-Franklin. 1902. “Theory.” In *Dictionary of Philosophy and Psychology*, ed. James Mark Baldwin, vol. 1, pp. 693–94. New York: Macmillan.

Pinch, Trevor, and Richard Swedberg. 2012. “Wittgenstein’s Visit to Ithaca in 1949: On the Importance of Details,” *Distinktion: Scandinavian Journal of Social Theory* 14, no. 1: 2–29.

Plato. 1989. *The Republic and Other Works*. Trans. B. Jowett. New

York: Anchor Books.

Platt, Jennifer. 1994. "The Chicago School and Firsthand Data," *History of the Human Sciences* 7, no. 1: 57−80.

————. 1996. *A History of Sociological Research Methods in America, 1920−1960.* Cambridge, UK: Cambridge University Press.

————. 2002. "The History of the Interview." In *Handbook of Interview Research*, ed. Jaber Gubrium and Jaames Holstein, pp. 33−54. London: SAGE.

————. 2011. Interview on the Pilot Study. Los Angeles, August 21.

Polya, George. 1950. "Let Us Teach Guessing." In George Polya, *Collected Papers*, vol. 4, pp. 504−11. Cambridge, MA: MIT Press.

————. 1954. *How to Solve It: A New Aspect of Mathematical Method*. 2nd ed. Princeton, NJ: Princeton University Press.

————. 1959. "Ten Commandments for Teachers." In George Polya, *Collected Papers*, vol. 4, pp. 525−33. Cambridge, MA: MIT Press.

————. 1979. "George Pólya Interviewed on His Ninetieth Birthday," *Two-Year College Mathematics Journal* 10, no. 1 (January): 13−19.

Popper, Karl. 1935. *Logik der Forschung*. Vienna: Julius Springer.

————. 1959. *The Logic of Scientific Discovery*. London: Hutchinson & Co.

Ragin, Charles. 2000. *Fuzzy-Set Social Science*. Chicago: University of Chicago Press.

Ragin, Charles, and Lisa Amoroso. 2011. *Constructing Social Research: The Unity and Diversity of Method.* 2nd ed. Los Angeles: SAGE.

Reed, Isaac, and Mayer Zald. 2014. "The Unsettlement of Inquiry in the Social Sciences." In *Theorizing in Social Science*, ed. Richard Swedberg, pp. 85–105. Stanford, CA: Stanford University Press.

Reichenbach, Hans. 1938. *Experience and Prediction: An Analysis of the Foundations and the Structure of Knowledge*. Chicago: University of Chicago Press.

————. 1951. *The Rise of Scientific Philosophy*. Berkeley: University of California Press.

Reisberg, Daniel (ed.). 2013. *The Oxford Handbook of Cognitive Psychology*. New York: Oxford University Press.

Richards, Ivor Armstrong. 1936. *The Philosophy of Rhetoric*. Oxford, UK: Oxford University Press.

Ricoeur, Paul. 1977. *The Rule of Metaphor: Multi-disciplinary Studies of the Creation of Meaning in Language.* Toronto: University of Toronto Press.

Rinehart, Jane. 1999. "Turning Theory into Theorizing: Collaborative Learning in a Sociological Theory Course," *Teaching Sociology* 27 (July): 216−32.

————. 2012. "Young Minds Bloom: Teaching with My Mouth Shut." Gonzaga University, Spokane, WA. Available at http://magazine.gonzaga.edu/2012/young-minds-bloom-teaching-with-my-mouth-shut (accessed October 17, 2012).

Robinson, Richard. 1950. *Definition*. Oxford, UK: Oxford University Press.

Ross, W. D. 1949. *Aristotle's Prior and Posterior Analytics*. Oxford, UK: Clarendon Press.

Rousseau, Jean-Jacques. 1953. *Confessions*. Trans. J. M. Cohen. London: Penguin Books.

————. 1992. *The Reveries of the Solitary Walker*. Trans. Charles Butterworth. Indianapolis, IN: Hackett Publishing.

Sacks, Oliver. 2012. *Hallucinations*. New York: Random House.

Sartori, Giovanni. 1970. "Concept Misformation in Comparative Politics," *American Political Science Review* 64, no. 4: 1033−53.

Sartre, Jean-Paul. 2004. *The Imaginary: A Phenomenological Psychology of the Imagination*. Trans. Jonathan Webber. London: Routledge.

Scaff, Lawrence. 2011. *Max Weber in America*. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Schickore, Jutta, and Friedrich Steinle (eds.). 2006. *Revisiting Discovery and Justification: Historical and Philosophical Perspectives on the Context Distinction*. Dordrecht: Springer.

Schleifer, James. 1980. *The Making of Tocqueville's* Democracy in America. Chapel Hill: University of North Carolina Press.

Sebeok, Thomas., and Jean Umiker-Sebeok. 1981. "'You Know My Method': A Juxtaposition of Charles S. Peirce and Sherlock Holmes." In *The Sign of Three*, ed. Umberto Eco and Thomas Sebeok, pp. 11−51. Bloomington: Indiana University Press.

Sen, Amartya K. "Description as Choice," *Oxford Economic Papers* 32, no. 3 (November): 353–69.

Simmel, Georg. 1919. "Aus Georg Simmels Nachgelassenem Tagebuch," *Logos* 8: 121−51.

————. 1950. *The Sociology of Georg Simmel*. Ed. and trans. Kurt Wolff. New York: Free Press.

————. 1959. "The Problem of Sociology." In *Georg Simmel, 1858−1918*, ed. Kurt Wolff, pp. 310−36. Columbus: Ohio State University Press.

————. 1997. "Sociology of the Senses." In *Simmel on Culture*, ed. David Frisby and Mike Featherstone, pp. 109–19. London: SAGE.

Simon, Herbert. 1966. "Scientific Discovery and the Psychology of Problem Solving." In *Mind and Cosmos*, ed. Robert Colodny, pp. 22−40. Pittsburgh: University of Pittsburgh Press.

————. 1991a. *Models of My Life*. New York: Basic Books.

————. 1991b. "The Scientist as Problem Solver." In Simon Herbert, *Models of My Life*, pp. 368–87. New York: Basic Books.

Simon, Herbert, Patrick Langley, and Gary Bradshaw. 1981.

"Scientific Discovery as Problem Solving," *Synthese* 47: 1–27.

Skocpol, Theda. 1979. *States and Social Revolutions: A Comparative Analysis of France, Russia, and China.* Cambridge, UK: Cambridge University Press.

Small, Albion. 1896. "Review of Arthur Fairbanks, *An Introduction to Sociology*," *American Journal of Sociology* 2, no. 2: 305–10.

Smith, Edward, and Douglas Medin. 1981. *Categories and Concepts*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Sokol, Robert. 1974. "Classification: Purposes, Principles, Progress, Prospects," *Science* 185, no. 4157 (September 27): 1115–23.

Somers, Margaret. 1995. "What's Political or Cultural about Political Culture and the Public Sphere? Toward an Historical Sociology of Concept Formation," *Sociological Theory* 13, no. 2: 113–44.

Spillman, Lynette. 2004. "Causal Reasoning, Historical Logic, and Sociological Explanation." In *Self, Social Structure, and Beliefs*, ed. Jeffrey Alexander, Gary Marx, and Christine Williams, pp. 216–34. Berkeley: University of California Press.

Stein, Maurice. 1963. "The Poetic Metaphors of Sociology." In *Sociology on Trial*, ed. Maurice Stein and Arthur Vidich, pp. 173–82. Englewood Cliffs. NJ: Prentice-Hall.

Stewart, Ian. 1998. *Nature's Numbers: Discovering Order and Pattern in the Universe*. London: Phoenix Orion Books.

Stinchcombe, Arthur. 1968. *Constructing Social Theories*. Chicago: University of Chicago Press.

————. 1978. *Theoretical Methods in Social History*. New York: Academic Press.

————. 1991. "The Conditions of Fruitfulness of Theorizing about Mechanisms in Social Science," *Philosophy of the Social Sciences* 21, no. 3: 367–88.

————. 2005. *The Logic of Social Research*. Chicago: University of Chicago Press.

Swedberg, Richard. 2009. "Tocqueville as an Empirical Researcher." In *Raymond Boudon: A Life in Sociology*, ed. Mohammed Chaerkaouie and Peter Hamilton, vol. 1, pp. 279−92. Oxford, UK: Bardwell Press.

————. 2012. "Theorizing in Sociology and Social Science: Turning to the Context of Discovery," *Theory and Society* 41: 1−40.

Swedberg, Richard (ed.). 2014. *Theorizing in Social Science: The Context of Discovery*. Stanford, CA: Stanford University Press.

Tavory, Iddo, and Stefan Timmerman. 2012. "Theory Construction in Qualitative Research: From Grounded Theory to Abductive Analysis," *Sociological Theory* 30, no. 3: 167−86.

Tetlock, Philip, and Aaron Belkin (eds.). 1996. *Counterfactual Thought Experiments in World Politics*. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Tocqueville, Alexis de. 2009. "France before the Revolution (1836)," *Journal of Classical Sociology* 9, no. 1: 17−66.

Tversky, Amos, and Daniel Kahneman. 1974. "Judgment under Uncertainty: Heuristics and Biases," *Science* 185, no. 4157 (September 1974): 1124−31.

————. 1982. *Judgment under Uncertainty: Heuristics and Biases*. Cambridge, UK: Cambridge University Press.

van Teijlingen, Edwin, and Vanora Hundley. 2001. "The Importance of Pilot Studies," *Social Research Update* (University of Surrey), no. 35. Available at http://sru.soc.surrey.ac.uk/SRU35.html (accessed July 31, 2011).

Vaughan, Diane. 1998. "How Theory Travels: Analogy, Models, and the Diffusion of Ideas." Paper presented at the meeting of the American Sociological Association, San Francisco, August.

————. 2014. “Analogy, Cases, and Comparative Organization.” In *Theorizing in Social Science*, ed. Richard Swedberg, pp. 61–84. Stanford, CA: Stanford University Press.

Wallace, David Foster, and Bryan Garner. 2013. *Quack This Way: David Foster Wallace and Bryan A. Garner Talk Language and Writing*. Dallas, TX: Penrose Publishing.

Watts, Duncan. 2011. *Everything Is Obvious—Once You Know the Answer*. New York: Crown Business.

Weber, Marianne. 1975. *Max Weber: A Biography*. Trans. Harry Zorn. New York: Wiley.

Weber, Max. 1930. *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism*. Trans. Talcott Parsons. London: G. Allen & Unwin.

————. 1946. “Science as a Vocation.” In *From Max Weber*, trans. And ed. Hans Gerth and C. Wright Mills, pp. 129–56. New York: Oxford University Press.

————. 1949. *Methodology of the Social Sciences*. Trans. and ed. Edward A. Shils and Henry A. Finch. New York: Free Press.

————. 1972. *Wirtschaft und Gesellschaft. Grundriss der verstehenden Soziologie*. 5th ed. Tübingen: J.C.B. Mohr.

————.1975. *Roscher and Knies: The Logical Problems of Historical Economics*. Trans. Guy Oakes. New York: Free Press.

————. 1978. *Economy and Society: An Outline of Interpretive Sociology*. Trans. Ephraim Bischoff et al., 2 vols. Berkeley: University of California Press.

————. 1988. *Gesammelte Aufsätze zur Wissenschaftslehre*. Tübingen: J.C.B. Mohr.

————. 2001. *The Protestant Ethic Debate: Max Weber’s Replies to His Critics, 1907−1910*. Eds. David Chalcraft and Austin Harrington. Liverpool, UK: Liverpool University Press.

————. 2004. *The Essential Weber: A Reader*. Ed. Sam Whimster. London: Routledge.

————. 2012. *Collected Methodological Writings*. Trans. and ed. H. H. Bruun and S. Whimster. London: Routledge.

Weick, Karl. 1989. "Theory Construction as Disciplined Imagination," *The Academy of Management Review* 14, no. 4: 516−31.

————. 1995. "What Theory is *Not*, Theorizing *Is*," *Administrative Science Quarterly* 40: 385−90.

————. 2003. "Imagination in Organization Studies." Talk given at Interdisciplinary Committee of Organizational Studies (ICOS), University of Michigan, Ann Arbor.

————. 2006. "The Role of Imagination in the Organization of Knowledge," *European Journal of Information Systems* 15: 446−52.

Weick, Karl. 2014. The Work of Theorizing." In *Theorizing in Social Science*, ed. Richard Swedberg, pp. 177–94. Stanford, CA: Stanford University Press.

Weiss, Robert. 1996. "Remembrance of Everett Hughes," *Qualitative Sociology* 19, no. 4: 543−51.

Whewell, William. 1860. *On the Philosophy of Discovery, Chapters Historical and Critical*. London: John W. Parker and Son.

Whitehead, Alfred North. 1929. *The Function of Reason.* Boston: Beacon Hill.

Wickelgren, Ingrid. 2012. "Trying to Forget," *Scientific American Mind* 22 (January−February): 32−39.

Wicksell, Knut. 1958. *Selected Papers in Economic Theory*. Ed. Erik Lindahl. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Wieth, Mareike, and Rose Zachs. 2011. "Time of Day Effects on Problem Solving: When the Non-Optimal

Is Optimal," *Thinking and Reasoning* 17, no. 4: 387−401.

Willer, David. 1996. "The Prominence of Formal Theory in Sociology," *Sociological Forum* 11, no. 2: 319−31.

Wittgenstein, Ludwig. 1953. *Philosophical Investigations*. Trans. G.E.M. Anscombe. New York: Macmillan.

————. 1958. *The Blue and the Brown Book*. New York: Harper.

————. 1972. *On Certainty*. Eds. G.E.M. Anscombe and G. H. von Wright. New York: Harper & Row.

————. 1980. *Culture and Value*. Trans. Peter Winch. Chicago: University of Chicago Press.

————. 1998. *Culture and Value*. Rev. ed. Trans. Peter Winch. London: Routledge.

Woodward, James. 2009. "Scientific Explanations." In *Stanford Encyclopedia of Philosophy*, ed. Edward Zalta. Available at http://plato.stanford.edu/entries/scientific-explanation/ (accessed September 28, 2013).

Young, Cristobal. 2009. "Model Uncertainty in Sociological Research: An Application to Religion and Economic Growth," *American Sociological Review* 74: 380–97.

Zashin, Elliot, and Phillip Chapman. 1974. "The Uses of Metaphor and Analogy: Toward a Renewal of Political language," *Journal of Politics* 36 (May): 290−326.

Zerubavel, Eviatar. 2007. "Generally Speaking: The Logic and Mechanics of Social Pattern Analysis," *Sociological Forum* 22, no. 2: 131−45.

Zetterberg, Hans. 2010. Conversation with the author, International Sociological Association (ISA), World Congress of Sociology, Gothenburg, Sweden, July 16.

Zhao, Shanyang. 1996. "The Beginning of the End or the End of the Beginning? The Theory Construction Movement Revisited," *Sociological Forum* 11, no. 2: 305−18.